

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

صورة الرسول (ﷺ) في شعر صدر الإسلام

إعداد

روضة مفيد عبد الهادي صالح

إشراف

أ. د. إحسان الديك

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

2015م

صورة الرسول (ﷺ) في شعر صدر الإسلام

إعداد

روضة مفيد عبد الهادي صالح

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2015/10/1 م وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة

أ. د. إحسان الديك

د. حسين النقيب

د. رضا إغبارية

رئيسا / مشرفا

ممتحنا داخليا

ممتحنا خارجيا

التوقيع

.....

.....

.....

الإهداء

صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد¹

إلى خير الأنام محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام
إلى والديّ الكريمين - حفظكما الله ورعاكما - دعواتكما تحفظني
إلى من ذللّ أمامي الصعاب، ووقف إلى جانبي مادياً ومعنوياً زوجي الغالي
* عادل *

رعاك المولى وأبقاك ذخراً لنا في هذه الحياة.
إلى فلذات كبدي: أحمد، وإبراهيم، ووسيم ملاذي وقت الضيق، سدّد الله خطاكم
إلى إخواني وأخواتي وأزواجهم، وإلى عائلة زوجي، وكل من ساندني له مني كل حب
وتقدير
إهداء محبة وعرفانٍ بالجميل

¹ حسان بن ثابت: الديوان، ص99.

شكر وتقدير

أَتَقَدِّمُ بِجَزِيلِ الشُّكْرِ، وَعَظِيمِ الْاِمْتِنَانِ إِلَى الْأَسْتَاذِ الدُّكْتُورِ: إِحْسَانِ الدِّيَكِ مُشْرِفًا وَمَوْجِهًا، عَلَى مَا قَدَّمَهُ لِي طَوَالَ فِتْرَةِ الدِّرَاسَةِ، فَقَدْ كَانَ صَاحِبَ الْفِكْرَةِ فِي هَذَا الْعَمَلِ، وَكَانَ نِعَمَ الْمَعْلَمِ وَالنَّاصِحِ لَطْلَابِهِ، أَشْكُرُهُ عَلَى صَبْرِهِ، وَسَعَةِ صَدْرِهِ لَتَسَاوُلَاتِي، وَجَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا خَيْرَ الْجَزَاءِ. وَالشُّكْرُ الْجَزِيلُ إِلَى عَضْوِي هَيْئَةِ الْمُنَاقَشَةِ الدُّكْتُورِ حُسَيْنِ النُّقَيْبِ وَالدُّكْتُورِ رِضَا إِبْرَاهِيْمَةَ لِمَا قَدَّمَا لِي مِنْ مَلَاَحِظَاتٍ قِيَمَةُ أَثَرَتِ الرِّسَالَةِ.

كَمَا أَتَوَجَّهُ بِالشُّكْرِ الْكَبِيرِ لِأَسَاتِذَتِي فِي جَامِعَةِ النِّجَاحِ الْوُطْنِيَّةِ، وَفِي قِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَحْدِيدًا، لِمَا أَبَدُوهُ مِنْ تَشْجِيْعٍ وَرَفْدٍ لِّلطَّلَابِ بِالْمَعْلُومَاتِ، فَبُورَكَتْ جُهُودُكُمْ، وَدُمْتُمْ نَبْعَ عَطَاءٍ عَلَى الدَّوَامِ.

وَالشُّكْرُ مُوصُولٌ لِلْعَامِلِينَ فِي مَكْتَبَةِ جَامِعَةِ النِّجَاحِ الْوُطْنِيَّةِ، خَاصَّةً الْأَسْتَاذَ: فَايزَ سَلُومَ (أَبُو مَازِنَ)، وَمَكْتَبَةَ بَلَدِيَّةِ نَابِلَسَ، وَكَذَلِكَ فِي مَكْتَبَةِ بَلَدِيَّةِ قَلْقِيلِيَّةِ، وَمَكْتَبَةِ بَلَدِيَّةِ الْبَيْرَةِ، وَالْمَكْتَبَةِ الْخَتْنِيَّةِ فِي الْقُدْسِ الشَّرِيفِ.

وَكَذَلِكَ كُلِّ مَنْ كَانَتْ لَهُ يَدٌ فُضِّلَتْ عَلَيَّ خَاصَّةً شَقِيقَتِي (رَغْدَةَ)، وَقَرَّةَ عَيْنِي (وَسِيمَ).

إقرار

أنا الموقعة أدناه، مقدمة الرسالة التي تحمل عنوان:

صورة الرسول (ﷺ) في شعر صدر الإسلام

Image of Prophet Peace be upon him in The Earlier Published Literature Islam Poetry

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the research's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

اسم الطالب: روضة مفيد عبد الهادي صالح

Student's Name:

التوقيع:

Signature:

التاريخ: 2015/10/1

Date:

قائمة المحتويات

الصفحة	الموضوع
ج	الإهداء
د	الشكر والتقدير
هـ	الإقرار
و	فهرس المحتويات
ح	الملخص
1	المقدمة
4	الفصل الأول: صورة الرسول (ﷺ) في الشعر قبل الإسلام
5	المبحث الأول: صورته عند قريش
6	1- المستوى الخاص
6	أ- عند الأم، الأم بالرضاعة
10	ب- عند الجد
13	ج- عند العم
15	2- المستوى العام
15	أ- حادثة التحكيم والحجر الأسود
17	ب- حادثة الاستسقاء
21	المبحث الثاني: صورته عند الأحرار والرهبان
21	أولاً: عند اليهود
24	ثانياً: عند الرهبان
25	1- بحيرا الراهب
26	2- ورقة بن نوفل
31	المبحث الثالث : صورته عند الكهان والجن
31	1- الغيطة.
32	2- كاهن جنب
33	3- فاطمة الخثعمية
34	4- أحاديث شق وسطيح

35	5- كعب بن لؤي
36	6- سواد بن قارب الأزدي
40	الفصل الثاني: صورة الرسول (ﷺ) في الشعر بعد الإسلام
42	المبحث الأول: صورته عند المسلمين
42	أولاً: صورة القائد الشجاع
51	ثانياً: صورة الكريم
60	ثالثاً: صورة الصادق
67	رابعاً: صورة الأمين
72	* الصورة الدينية للرسول (ﷺ)
72	1- صورة المبارك
76	2- صورة خاتم النبيين
78	3- صورة صاحب الشفاعة
80	4- صورة الهادي
86	5- صورة النبي والرسول
92	* الصورة الشخصية للرسول (ﷺ)
93	أ- صورة الأغر، الأزهر، الأبيض
96	ب- صورة البدر
102	المبحث الثاني: صورته عند الأعداء
102	أ- عند قريش وما حولها
112	ب- عند اليهود
116	ج- عند المنافقين
119	الفصل الثالث: أثر التشكيل الفني في صورة الرسول (ﷺ)
120	المبحث الأول: اللغة والأسلوب
139	المبحث الثاني: المحسنات البديعية
148	المبحث الثالث: الصورة الفنية
159	الخاتمة
162	قائمة المصادر والمراجع
b	Absstract

صورة الرسول (ﷺ) في شعر صدر الإسلام

إعداد

روضة مفيد عبد الهادي صالح

إشراف

أ.د. إحسان الديك

الملخص

يتناول هذا البحث موضوع صورة الرسول (ﷺ) في شعر صدر الإسلام، حيث رسم شعراء صدر الإسلام للرسول (ﷺ) صوراً متعددة في الشعر، فكانت الصورة المعنوية والدينية والشخصية وغيرها، وظهرت صورة الأسد والسيف والبدر والهلال في أغراض الشعر المتعددة.

وتعتبر هذه الدراسة جديدة في عنوانها ومضمونها وأسلوبها، فقد وقفت على صورة الرسول (ﷺ) في الشعر قبل الإسلام، ومن ثم امتدت الدراسة لتشمل صورته بعد الإسلام، وكيف بدت في نظر الشعراء المسلمين وغير المسلمين.

واعتمدت الدراسة على المنهج التكاملي، واتكأت على التاريخي في فصلها الأول، والتحليلي في فصلها الثالث، وقد انتظم عقد هذه الدراسة في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

أما المقدمة: فقد عرضت الباحثة فيها أسباب اختيارها الموضوع، وأهميته، والدراسات السابقة، والصعوبات التي اعترضتها في أثناء الدراسة، والمنهج الذي اتبعته، وأهم المصادر والمراجع التي كانت ركيزة أساسية لهذا البحث.

واشتمل الفصل الأول: "صورة الرسول (ﷺ) في الشعر قبل الإسلام". على ثلاثة مباحث هي: صورة الرسول (ﷺ) عند قريش، وصورته عند اليهود والنصارى، والمبحث الثالث: صورته عند الجن والكهان.

أما الفصل الثاني: فكان في مبحثين، الأول: صورته (ﷺ) عند المسلمين، وعرضت لصورة الرسول المعنوية ومنها: صورة القائد الشجاع، والكريم، والأمين، وصورة الصادق والصورة الدينية التي ظهرت للرسول في الشعر ومنها: المبارك، وصاحب الشفاعة، وخاتم النبيين، والهادي،

والنبي والرسول، والصورة الشخصية تمثلت في صفات الأغر والأزهر والأبيض وكذلك صورة البدر والهلال. وأما المبحث الثاني: صورته عند الأعداء، وقد تناول المبحث أهم الأعداء الذين عادوا الرسول (ﷺ) والدين الإسلامي، وموقف الرسول منهم. وجاء في ثلاثة أقسام: عند قريش ومأحولها وعند اليهود وعند المنافقين.

ودرست في الفصل الثالث النصوص الشعرية من حيث اللغة والأسلوب، والمحسنات البديعية والصورة الفنية.

وانتهت الدراسة بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، وذيلت البحث بقائمة المصادر والمراجع التي أخذت منها وانتفعت بها.

المقدمة:

كانت صورة الرسول (ﷺ) في صدر الإسلام حاضرة في أذهان الشعراء، فكثير من الصحابة تغنى بصفاته ومدحه في حياته، وبعد وفاته (ﷺ)، فنجد مقطوعات وقصائد نظمها الشعراء لرسولهم الحبيب وحاولوا من خلالها إبراز صورته؛ بالوقوف على كثير من الصفات المادية والمعنوية التي تحلى بها.

وجاءت أهمية هذه الدراسة لتكشف عن الأشعار في الكتب والمصادر القديمة، وتلقي الضوء على أهم الصور التي ساهمت في التعريف بهذا النبي فكان الشعر مرآة حقيقية لتلك الفترة التي عايشها الرسول (ﷺ) وصحابته. وكانت كتب التاريخ والسيرة النبوية المعين الأول لاستخراج هذه الأشعار مثل: الطبقات الكبرى لابن سعد، والروض الأنف للسهيلي، والبداية والنهاية لابن كثير، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، وكثير من الشعراء ممن ورد لهم ذكر في كتب السيرة النبوية كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم ؛ كانت تلك المصادر خير وسيلة للكشف عن هذه الأشعار.

ومن الدراسات التي أخذت منها:

- 1- دراسة منور الحربي: شخصية الرسول (ﷺ) في شعر صدر الإسلام (رسالة ماجستير) وقف فيها الباحث على شخصية الرسول في الشعر وموقفه وموقف الخلفاء الراشدين من الأشعار كما توقف عند صفات الرسول (ﷺ) الخلقية والخلقية والمميزات النبوية.
- 2- دراسة واضح الصمد (أدب صدر الإسلام): يبحث في حياة الرسول (ﷺ) من المولد حتى المبعث ويأتي على مكانة الشعر في الجاهلية والإسلام وأغراضه ومظاهره.
- 3- دراسة محمود عكاشة: (الشعر في عصر النبوة) تناول فيه أسماء الشعراء في ذلك العصر وأغراض الشعر في عصر النبوة واختتم الكتاب ببعض خصائص الشعر في تلك الفترة الزمنية.

4- بحث علي محمد الحبوبى (شخصية الرسول الكريم في شعر السيرة النبوية لابن هشام): تناول فيه أشعار الشعراء ممن عاشوا مع الرسول في مكة والمدينة وأهم المناسبات والوقائع والأحداث التي استعانوا على تصويرها شعراً ليظهروا من خلالها علاقتهم بالرسول (□).

5- دراسة مي يوسف خليف: (شخصية الرسول في شعر مدرسة المدينة المنورة) وتبرز الدور الذي قام به الشعراء في الرد على المشركين وإظهار صورة القائد المسلم والخطيب بعدما نزل في المدينة المنورة.

وكانت سعة المادة وصعوبة حصرها، وتوزعها في ثنايا الكتب من أهم المعوقات التي وقفت أمام البحث.

واعتمد البحث على المنهج التكاملي، وكان المنهج التاريخي ركيزةً للفصل الأول باعتباره مدخلاً لدراسة وفهم الصورة قبل الإسلام.

وانتظم عقد الدراسة في مقدمة وثلاثة فصول هي:

الفصل الأول: صورة الرسول (□) في الشعر قبل الإسلام وقد قسّمته إلى ثلاثة مباحث:

- صورته عند قريش
- صورته عند اليهود والنصارى
- وصورته عند الكهان والجن

وجاء الفصل الثاني لبيان (صورة الرسول (□) في الشعر بعد الإسلام) وتوزع على قسمين: صورته عند المسلمين، وصورته عند الأعداء، وضمّ المبحث الأول صورة الرسول المعنوية؛ من خلال صورة القائد الشجاع، والأمين، والكريم، والصادق، والصورة الدينية، والصورة الشخصية بما حملته من صورة الأبيض والأغر والأزهر وصورة البدر. أما المبحث الثاني فخصصته لصورته عند قريش ومن حولها، واليهود، والمنافقين. وعرض الفصل الثالث والأخير:

لأثر التشكيل الفني في صورة الرسول (ﷺ) وذلك عن طريق دراسة الأشعار دراسة فنية والخروج بصورة متكاملة، فجاءت اللغة والأسلوب والمحسنات البديعية والصورة الفنية. وانتهى البحث بخاتمة أجملت النتائج التي توصلت إليها.

الفصل الأول

صورة الرسول (ﷺ) قبل الإسلام

المبحث الأول: صورة الرسول (ﷺ) عند قريش

المبحث الثاني: صورته عند الأقباط والرهبان

المبحث الثالث: صورته عند الكهنة والجن

الفصل الأول

صورة الرسول (ﷺ) قبل الإسلام

ليس من السهل أن يتناول المرء بالدراسة عظيمًا من عظماء التاريخ، وقائدًا من قادة الأمم، فما بالك بالذي يكتب عن نبي غير مجرى التاريخ وأقام للإنسانية صرحًا تفخر به البشرية جمعاء.

إنّ الكتابة عن شخصية الرسول الكريم (ﷺ) مهما بلغت من النضج والشمول، لن تبلغ شيئاً يسيراً مما خطّه الله في محكم كتابه¹، كما أنّ الكتب التي اعتنت بدراسة سيرته (ﷺ) هي كتب مشهود لها أمثال: السيرة النبوية لابن هشام، وكتاب الطبقات لابن سعد، والكامل في التاريخ لابن الأثير، وغيرها الكثير، وكانت الأشعار التي أتت على ذكر الرسول (ﷺ) والحديث عن صفاته، عبارة عن أبيات ومقطوعات متناثرة. حاولت الباحثة جادة الوقوف على أكثرها، لتكون من خلالها صورة واضحة للرسول في تلك الحقبة الزمنية.

المبحث الأول

صورة الرسول (ﷺ) عند قريش

يذكر القرآن الكريم هذه القبيلة بالاسم دون غيرها من القبائل قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾² ويرجع نسب قريش إلى النضر بن كنانة فقد كان اسم النضر قريشاً³. غير أن شأن قريش لم يبرز في التاريخ إلا أيام قصي بن كلاب، حيث انقسمت قريش إلى قسمين:

¹ الفهادي، علي كمال: شخصية الرسول في شعر حسان بن ثابت، مجلة آداب الرافدين، العراق، عدد 24، 1993، ص2.

² سورة قريش، الآية (1-2).

³ فروخ، عمر: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، بيروت، دار العلم للملايين، 1972، ص46.

قسم بضواحي مكة سُموا الظواهر وكانوا بدوًا، والآخر في بطاحها وكانوا حضراً¹.

ولمّا كان عبد الله والد الرسول (ﷺ) من أعز قبيلة في العرب، ومن أشرف جد في بني هاشم، عبد المطلب، كان محمد (ﷺ) أعلى الناس نسباً وأشرفهم حسباً. وهذا ما ورد في صحيح مسلم أن رسول الله (ﷺ) قال: "إن الله اصطفى كنانه من ولد اسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانه، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"².

ومما يُروى عن الرسول (ﷺ) قوله (فَضَّلَ اللهُ قريشاً بسبع خصال، فضَّلَهُم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبد الله إلا قريش، وفضَّلَهُم بأنهم نصرهم يوم الفيل وهم مشركون، وفضَّلَهُم بأنهم نزلت فيهم سورة من القرآن، لم يدخل فيها أحد من العالمين وهي (إيلاف قريش)، وفضَّلَهُم بأن فيهم النبوة والخلافة، والحجاجة، والسقاية)³.

ولمعرفة كيف بدا الرسول (ﷺ) في أشعار قريش؟ كان لزاماً تقسيم الموضوع إلى مستويين عام وخاص، حتى تتكشف معالم هذه الصورة بأبعادها المختلفة.

- المستوى الخاص:

- عند الأم:

كانت آمنة بنت وهب⁴ بنت عبد مناف بن زهرة بن كلاب من قريش، أم الرسول (ﷺ) أفضل امرأة في قريش نسباً ومكانةً، امتازت بالذكاء وحسن البيان، تزوجت من عبد الله والد محمد

¹ ينظر: فروخ، عمر: مرجع سابق، ص46.

² ينظر المباركفوري، صفي الرحمن: **وانك لعلى خلق عظيم**، دار كندة للإعلام والنشر، ج1، (د.ت)، ص428. ومسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري: **صحيح مسلم**، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1977، ج2، ص310.

³ الألباني، محمد ناصر الدين: **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**، ط3، الكويت، الضاحية، المكتبة الإسلامية، 2000م، ص775.

⁴ ينظر الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط14، بيروت، مج1، 1999، ص26.

(□)، بعد أن رآته شاعرة من شوارع الجاهلية يُقال إنها رقية بنت نوفل وكنيتها أم قتال¹. وفي روايات أخرى هي فاطمة بنت مر الخثعمية².

وكانت من أجمل النساء وأعفهن³، وقد قرأت الكتب. دعت عبد الله ليقع عليها وتعطيه مائة من الإبل، لكنه أبى ذلك وقال⁴:

(الرجز)

وَالْحَلُّ لَا حَلَّ فَاسْتَبِينَهُ	أَمَّا الْحَرَامُ فَالْحَمَامُ دُونَهُ
يَحْمِي الْكَرِيمُ عَرَضَهُ وَدِينَهُ؟!	فَكَيْفَ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَبْغِينَهُ

ولكن إرادة الله شاعت أن يكون هذا النور، (نور النبوة) لآمنة بنت وهب، دون غيرها من النساء قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾⁵.

وها هي المرأة تغبط آمنة على حملها، والشرف الذي حازت عليه لا يدانيه شرف وتقول⁶:

(الطويل)

وَلَمَّا حَوَتْ مِنْهُ أَمِينُهُ مَا حَوَتْ	حَوَتْ مِنْهُ فَخَرًا مَا لَذَلِكَ ثَانٍ
وَلَمَّا قَضَتْ مِنْهُ أَمِينُهُ مَا قَضَتْ	نَبَا بَصْرِي عَنْهُ وَكُلَّ لِسَانِي

¹ السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي حسن الخثعمي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، بيروت، لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر، ج1، 1978م، ص180.

² ينظر: السهيلي، أبو القاسم، عبد الرحمن: الروض الأنف، ج1، ص180. وينظر: صقر، عبد البديع: شاعرات العرب، منشورات المكتب الإسلامي، الدوحة، 1967م، ص303.

³ فاطمة بنت مر الخثعمية، اشتهرت بالفراسة بين كاهنات العرب وأثر عنها قول الشعر، قرأت الكتب ومنها الدينية، كانت تقيم بين أهل تبالة، وقيل بمكة توفيت 612م، ينظر سكر، عزمي: معجم الشعراء في تاريخ الطبري، ط1، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية، 1999م، ص330.

⁴ السهيلي، أبو القاسم: الروض الأنف، مصدر سابق، ج1، ص180. ابن هشام: السيرة النبوية، تح السقا وآخرون، ج1، ص156.

⁵ سورة البقرة، آية 117.

⁶ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد: أعلام النبوة، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ص188. وصقر، عبد البديع: شاعرات العرب، مرجع سابق، ص304.

لقد حلّ في جسد آمنه الطاهر نور عظيم، إنه نور النبوة، التي كانت تلك المرأة تبغي الحصول عليه، ولكن بمجرد زواج عبد الله بآمنة غادره ذلك النور، لذلك نراها تغض الطرف عن الزواج به، وتُطلق في ذلك مثلاً "قد كان ذلك مرة، أما اليوم فلا"¹.

وقد عبرت المصادر والكتب عن فخر آمنة به وجاء على لسانها، بعد أن قيل لها إنك حملت بسيد هذه الأمة: "أعيذه بالواحد من شر كل حاسد". ثم تسميه محمداً².

كما أنها "أي السيدة آمنة" لم تجد مشقة حتى وضعت، ورأت حين وضعت نوراً يخرج معه أضواء قصور الشام³.

وبمجرد ولادة هذا الطفل اليتيم، أرسلت السيدة آمنة إلى جده عبد المطلب وحدثته بما رأت حين حملت به، وما قيل لها أن تسميه⁴.

وكان من عادة العرب وأشرافهم أن يسترضعوا أولادهم⁵، في البادية، حتى تستقيم أجسامهم، وتصح ألسنتهم، بما توفره البادية من هواء نقي، وصفاء في الطبيعة.

– الأم بالرضاعة:

خرجت حليلة السعدية⁶ مع نسوة من بني سعد تلتمس الرضعاء في سنة لم تبقى لهم شيئاً، فخرجت على أتان ومعها شارف⁷، برفقة زوجها وابن لها صغير⁸.

¹ ابن سعد، محمد بن سعد الهاشمي البصري: الطبقات الكبرى، تح محمد عبد القادر، بيروت، لبنان، ج1، ص77.
² ابن هشام، أبو محمد عبد الملك المعافري: السيرة النبوية، تح مصطفى السقا وآخرين، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1972، ص166.

³ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ص81.

⁴ يُنظر: ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي: البداية والنهاية، تح احمد أبو ملحم وآخرين، ط1، دار الديار للتراث، 1988، ص246. ويُنظر: ابن سعد الطبقات الكبرى، ص82-83. والسهيلي: الروض الأنف، ص184.

⁵ ابن منظور، جمال الدين بن مكرم: لسان العرب، بيروت، دار صادر. (د.ت)، مادة (رضع). وتعني طلب المرضعة لأولادهم.

⁶ بنت ابي ذؤيب عبدالله بن الحارث بن جابر السعدي البكري الهوازني، من أمهات النبي (ﷺ) في الرضاعة كانت زوجة الحارث بن عبد العزى السعدي من بادية الحديبية. (...-بعد8هـ...بعد630م) ينظر الزركلي: الأعلام، مج2، ص272.

⁷ الشارف: الناقة المسنة.

⁸ يقال إن اسمه عبد الله بن الحارث، ينظر ابن هشام: السيرة النبوية، ص171.

ولما ذُكر لها محمد (ﷺ)، ورأت النسوة أعرضت عنه - متى عُرِف أنه يتيم- ترددت في أخذه، لكن زوجها دعاها أن تأخذه لعل الله يجعل لهم فيه الخير والبركة.

وما أن ركبت ناققتها حتى غدت بها الخطى، وابتعدت كثيراً عن صويحباتها، حتى قلن لها يا حليلة ما صنعت؟ قالت إنها أخذت خير مولود وأعظمهم بركة¹.

وما أن وضعته السيدة حليلة في حجرها حتى أقبل ثدياها عليه فشرب (ﷺ) حتى روي وشرب معه أخوه، وكان لا ينام من شدة الجوع.

تُرى ما هي النفحات المباركة التي حملها ذلك اليتيم معه إلى ديار بني سعد؟

أهي بركة الحليب الذي جعله الله مباركاً في صدر مرضعته؟ أم هي في خصب الأرض والماشية التي باركها الله لمنزلة ذلك الطفل المبارك، وحلولة تلك البلاد؟ تقول حليلة: "لما قدمنا منازلنا من بني سعد، ما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها، وكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع. مما دعا القوم أن يسروا لرعيانهم: ويحكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا"².

كانت أمه أمانة بنت وهب قد علمت أنها حملت ووضعت خير مولود، وكانت تخشى عليه، فعندما خرجت به حليلة إلى ديار بني سعد جعلت أمه أمانة تعوده وتقول³:

(الرجز)

أَعِيْذُهُ بِاللهِ ذِي الْجَلالِ	مَنْ شَرَّ مَا قَدْ مَرَّ عَلَى الْجِبَالِ
حَتَّى أَرَاهُ حَامِلَ الْحَلالِ	وَيَفْعَلُ الْعُرْفَ إِلَى الْمَوَالِي

وغيرهم مِنْ حَشْوَةِ الرِّجَالِ

¹ ينظر السهيلي: الروض الأنف، ص185، وابن سعد: الطبقات الكبرى، ص90

² السهيلي: الروض الأنف، ص184-185. وينظر ابن سعد: الطبقات الكبرى، ص90. وابن هشام، السيرة النبوية، ص170-171.

³ ابن سعد: الطبقات الكبرى، مصدر سابق، ص90.

تكشف الأبيات حرص الأم وخوفها على وليدها من أي سوء أو مكروه قد يحيط به وهذه التعويذة قديماً تُرادف الرقية الشرعية بمفهومها الحالي، وفيها تُعبّر أمانة بنت وهب عن رغبتها أن يكبر غلامها ويصبح أفضل الرجال؛ بما سيمتاز به عن أقرانه من حب للخير ومساعدة المحتاج، وأمر بالمعروف، وسيادة على قومه.

لم تكن تعلم أمه بما ينتظره في البادية، فعندما بلغ أربع سنين، أتاها ملكان، وشقا بطنه واستخرجا علقة سوداء وطرحاها وغسلا بطنه، ثم وُزن بألف من أمتة فوزنهم، بعد ذلك أسرع أخوه بالرضاعة يصيح بوالدته حليلة: أدركي أخي القريشي!

وبجدانه منتقع اللون، وتخاف حليلة عليه وترده لأهله في مكة، رغم أنفهم، بعد أن رأت وسمعت الكثير من البركة والخير على يديه في البادية¹.

كان محمد (ﷺ) مع أمه أمانة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم، في كلاءة الله وحفظه يُنبته نباتاً حسناً، لما يريد به من كرامته، فلما بلغ (ﷺ) ست سنين، توفيت والدته آمنه بالأبواء بين مكة والمدينة، وهي عائدة به إلى مكة².

- عند الجد:

عبد المطلب³ هو جد الرسول (ﷺ) كان أحسن قريش وجهاً، وأمدّها جسماً وأحلمها حلماً وأجودها كفاً، لم يره ملك قط إلا شفّعه⁴.

¹ ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، مصدر سابق، ص90.

² ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ص168.

³ اسمه شيبه ولد عام 497م، وعبد المطلب لقبه، وكنيته أبو الحارث، اشتهر بالمروءة والبلاغة نال الرفادة والسقاية، وصار سيد قريش، وبعد أن غدا أبا لثمانية عشر ولداً، اعتقد بإيفاء نذره بذبح ابنه عبد الله، وكان أحب أبناءه إليه، وافتهاد بنصيحة العرافة بمئة جمل، قيل إنه أول من خضب شعره بالسواد بين العرب، توفي عام 579م. ينظر سكر، عزمي: معجم الشعراء في تاريخ الطبري، مصدر سابق، ص281-282.

⁴ البغدادي، محمد بن حبيب: المنطق في أخبار قريش، تعليق خورشيد حمد فارق، ط1، بيروت، عالم الكتب، 1985م، ص22.

وتُقر كتب التاريخ والنسب أن أوثق صلات بني هاشم كانت مع عبد المطلب¹.

لما تُوفيت أمانة بنت وهب كفل محمدًا (ﷺ) جده عبد المطلب، وضمه ورق عليه رقّة لم يرقها على ولده.

وكان يُقر به ويدنيه منه، وكان يجلس على فراشه ويقول دعوهُ²، وكان يُقبل رأسه وفمه، ويمسح ظهره، ويسر بكلامه، وما يرى منه³.

ولا عجب فيما يفعله الجد مع حفيده، إذ سرّ به كثيرًا بعد أن نظر إليه بعد ولادته، مما دعاه إلى حمله إلى الكعبة والدعاء والشكر لله على ما أعطاه قائلًا⁴:

(الرجز)

هَذَا الْغُلَامُ الطَّيِّبُ الْأُرْدَانُ⁵
أُعِيْذُهُ بِالْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ
حَتَّى أَرَاهُ بَالِغَ الْبُنْيَانِ
مِنْ حَاسِدٍ مُضْطَرِبِ الْعَنَانِ
حَتَّى أَرَاهُ رَافِعَ اللِّسَانِ
فِي كُتُبِ ثَابِتَةِ الْمَثَانِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَانِي
قَدْ سَادَ فِي الْمَهْدِ عَلَى الْغُلَمَانِ
حَتَّى يَكُونَ بُلْغَةَ الْفَتِيَانِ
أُعِيْذُهُ مِنْ كُلِّ ذِي شَنَانٍ
ذِي هَمَّةٍ لَيْسَ لَهُ عَيْنَانِ
أَنْتَ الَّذِي سَمَّيْتَ فِي الْقُرْآنِ

أَحْمَدَ مَكْتُوبَ عَلَى اللِّسَانِ⁶

ويبدو أن الجد قال ما قال خوفًا على صغيره، ودرعًا للشر وانتقاءً لأعين الحساد. فدخل به بيت الله الحرام وأخذ يُعوّذه ويدعو له⁷. وإذا أخذنا بما روته كتب السيرة والتاريخ بأن أمانة بنت وهب

¹ سعيد، محمد: النسب والقرابة في المجتمع العربي قبل الإسلام، ط1، بيروت، لبنان، دار الساقى، 2006م، ص400.

² العاملي، السيد محسن الأمين: سيرة الرسول عن طبقات ابن سعد، بيروت، دار الفكر العربي، 1968، ص9.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ص168.

⁴ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ص82-83. وينظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ص246. السهيلي: الروض الأنف، ص184.

⁵ جمع رذن وهو الكم.

⁶ ابن كثير: البداية والنهاية، ص264-265. وينظر السهيلي: الروض الأنف، بصيغة أخرى (احمد مكتوب على البيان)، ص184. وابن سعد: الطبقات الكبرى، ص83.

⁷ السهيلي: الروض الأنف، ص184.

والدة النبي (ﷺ) قد أخبرت جده بما رأيته من البشائر مدة حملها؛ لا غرابة أن نجد أبيات عبد المطلب التي يدعو الله عز وجل فيها بالفطرة تتضمن وما يتفق مع تلك البشائر، بأن يحفظ هذا الوليد ويعلي شأنه¹، وتتجلى دعوة الجد الصادقة أن يحفظ الله هذا الوليد بعد أن أتت به مرضعته لترده إلى أهله في مكة ويضل عنها ويلتمسه جده ولا يجده ويقول²:

(الرجز)

رَبِّ رُدِّ إِلَيَّ رَاكِبِي مُحَمَّدًا رُدَّهُ إِلَيَّ وَاصْطَنَعُ عِنْدِي يَدًا

وفي رواية أخرى يذكرها البيهقي رحمه الله³:

(الرجز)

يَا رَبِّ إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يُوْجَدْ فَجَمْعُ قَوْمِي كُلَّهُمْ مُبَدَّد

فكان الجد يُصور ضياع كل القوم وتفرقهم، بضياع هذا الغلام المبارك وعانقه جده وهو يبكي، ونحر عبد المطلب عشرين جروزا وأطعم أهل مكة⁴.

كان عبد المطلب يؤثر محمداً، ويخشى عليه بعد وفاته، وقد أوصى بكفالتة ابنه أبا طالب وفي ذلك يقول⁵:

(الرجز)

أُوصِيكَ يَا عَبْدَ مَنْأَفَ بَعْدِي بِمَوْتِمْ بَعْدَ أَبِيهِ فَرْدِ
فَارَقَهُ وَهُوَ ضَجِيعُ الْمَهْدِ فَكُنْتُ كَالْأُمِّ لَهُ فِي الْوَجْدِ

¹ حمدان، عاصم علي: من بواكير شعر المنافحة عن الرسول (ﷺ) والتبشير بالرسالة، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، ع1، مج16، 2008، ص16.

² ابن سعد: الطبقات الكبرى، ص90-91.

³ الهيثمي: احمد بن محمد بن حجر: المنح الملكية في شرح الهمزية، تح بسام محمد بارود، ط1، بيروت، دار الحاوي للطباعة والنشر، ج5، 1998، ص253.

⁴ الهيثمي، احمد بن محمد: المنح الملكية في شرح الهمزية، مصدر سابق، ص253.

⁵ التتويجي، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1994، ص9. وينظر: السهيلي: الروض الأنف، مصدر سابق، ص185.

ويظهر حزن الجد على فراق حفيده، وذلك لشعوره بدنو أجله، وتركه هذا اليتيم وحيداً. فقد مات والده وهو في بطن أمه، وقد تركته أمه يتيماً صغيراً، فكان الجد يحنو عليه كما الأم على صغيرها. ولكن لماذا اختار عبد المطلب أبا طالب ليكفل محمداً من بعده دون سائر إخوته؟ لقد توسم فيه من الرعاية الكافية والاهتمام بمحمد لشدة حبه له، فلقد كان يحبه حباً شديداً، لم يحبه لولده، وكان أبو طالب لا ينام إلا إلى جانبه وإذا خرج يُخرجه معه¹.

- عند العم:

اسمه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم²، وكنيته أبو طالب، عم النبي (ﷺ)، وشاعر جيد الكلام، وكان عبد الله والد الرسول (ﷺ) وأبو طالب أخوان لأب وأم، وأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ³.

وقد كفل الرسول (ﷺ) بعد وفاة جده، وأحسن تربيته، ويذكر أنه إذا رأى محمداً بكى وقال: إذا رأيته ذكرت أخي فقد كان شديد الحب له والحنو عليه⁴.

لقد كان على شدة فقره أنبل إخوته وأكرمهم وأعظمهم مكانةً في قريش، ولقد قام برعاية محمد (ﷺ) أفضل قيام. فكان يخصه بالطعام وكان أولاده يصبحون رمصاً شعثاً، ويصبح رسول الله (ﷺ) كحياًلً دهيناً⁵.

كان محمد (ﷺ) شديد التعلق بعمه أبي طالب، وكان لا يفارقه أبداً، وأراد أبو طالب الخروج للتجارة إلى الشام، ولما تهيأ للمسير صبّ⁶ به الرسول (ﷺ)، فرق له عمه وكان أن خرج به معه، ومما قاله أبو طالب في ذلك⁷:

¹ التتويج، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي، ص10.

² شامي، يحيى: موسوعة شعراء العرب، ط1، بيروت، دار الفكر العربي، 1999م، ج1، ص231.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ص164.

⁴ التتويج، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي، ص10.

⁵ ابن سعد: سيرة الرسول، دار الفكر للجميع، 1968، ص10.

⁶ الصبابة: رقة الشوق، يقال صببت بكسر الباء، ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ص165.

⁷ السهيلي: الروض الأنف، مصدر سابق، ص208. والتتويج، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي، ص87.

(الطويل)

بِفَرْقَةٍ حَرَّ الْوَالِدَيْنِ كِرَامَ
لِتَرْحَلْ إِذْ وَدَعْتُهُ بِسَلَامِ
وَأَمْسَكْتُ بِالْكَفَيْنِ فَضَّلَ زِمَامِ
تَجُودُ مِنَ الْعَيْنَيْنِ ذَاتِ سَجَامِ
شَامِي الْهَوَى، وَالْأَصْلُ غَيْرُ شَامِي

أَلَمْ تَرْنِي مِنْ بَعْدِ هَمِّ هَمَمَتِهِ
بِأَحْمَدٍ لَمَّا أَنْ شَدَدْتُ مَطِيَّتِي
بَكَى حُزْنًا وَالْعَيْسُ قَدْ فَصَلَتْ بِنَا
ذَكَرْتُ أَبَاهُ، ثُمَّ رَقَرَقْتُ عَبْرَةً
فَقُلْتُ: تَرُوحَ مَعَ الْعَيْرِ الَّتِي رَاحَ أَهْلُهَا

ويظهر أبو طالب تعاطفه مع ابن أخيه اليتيم، وتذكره لأخيه عبد الله الذي كان يحنو عليه، ولم يبق إلا هذا الطفل اليتيم من ذكر هذا الأخ الشقيق، الذي تفوق بحبه منزلة أولاده، ويذكر أنه قال يمدحه وهو صغير¹:

(الكامل)

عِنْدِي يَفُوقُ مَنَازِلَ الْأَوْلَادِ
وَالْعَيْسُ² قَدْ قَلَصَنَ بِالْأَزْوَادِ
مِثْلَ الْجُمَانِ مُفَرَّقٍ بِبِدَادِ³
وَحَفِظْتُ فِيهِ وَصِيَّةَ الْأَجْدَادِ

إِنَّ الْأَمِينَ مُحَمَّدًا فِي قَوْمِهِ
لَمَّا تَعَلَّقَ بِالزِمَامِ ضَمَمْتُهُ
فَارْفُضَ مِنْ عَيْنِي دَمْعٌ ذَارِفٌ
رَاعَيْتُ فِيهِ قَرَابَةَ مَوْصُولَةٍ

وهو هنا يشير إلى صفة الرسول في قومه "الأمين" وما حبه وتفضيله له على أبنائه إلا لما كان يمتاز به () ولما جمع الله فيه من الأمور الصالحة ، فشَبَّ رسول الله () والله تعالى يحفظه ويحوطه من أقدار الجاهلية. حتى بلغ أن كان رجلاً، أفضل قومه مروءةً وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً وأعظمهم أمانةً حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين⁴.

¹ التتوحي، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي، ص38.

² العيس: الإبل النشيطة البيضاء إلى كدرة، مفردها أعيس وعيساء، ينظر التتوحي، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي، ص38.

³ ارفض: تتابع سيلانه متفرقا. ذارف: سائل. البداد: اللبد تحت السرج والقتب.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص167.

المستوى العام:

هناك أحداث تاريخية ومحطات مهمة عاشها وعاصرها رسولنا الكريم، محمد بن عبد الله (ﷺ) قبل البعثة، كان لها أبلغ الأثر في رسم معالم شخصيته الفذة، التي فاضت على البشرية بالخير والنور والعطاء¹، وأهم تلك الأحداث:

أولاً: حادثة التحكيم والحجر الأسود²:

لما بلغ الرسول (ﷺ) خمسا وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبناء الكعبة³، ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن⁴ اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، و تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال، وكادت نار الحرب أن تشتعل بين بني عبد الدار وبني عدي، ففربوا جفنة مملوءة دماً⁵ وتعاهدوا على الموت، ودامت الخصومة أربع ليال أو خمسا قبل أن يبادرهم أبو أمية بن المغيرة – وكان أسن قريش عامئذ-، يا معشر قريش اجعلوا بينكم -فيما تختلفون فيه، أول من داخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم، ففعلوا.

وكان أول من دخل عليهم رسول الله (ﷺ)، فلما رأوه قالوا :هذا الأمين، رضينا هذا

محمد.

¹ الكعبي، عبد الحكيم: موسوعة التاريخ الإسلامي، عصر النبوة وما قبله، الأردن، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2003 م، ص233.

² الحجر الأسود: الحجر المنسوب في الركن الشمالي للكعبة المشرفة من الخارج في غطاء من الفضة وهو مبدأ الطواف، ويرتفع عن الأرض الآن، مترا ونصف المتر، وقيل ذراع ما بين الحجر الأسود والأرض ذراعان وثلاث ذراع.

³ بنيت الكعبة خمس مرات، الأولى بناها شيت بن آدم، والثانية حين بناها ابراهيم، والثالثة حين بنتها قريش هذه المرة، وكان ذلك قبل الإسلام بخمس سنين، والرابعة حين احترقت في عهد ابن الزبير، فلما قام عبد الملك بن مروان هدمها، لأنه لم يعجب بما فعل ابن الزبير في بنائها وبناءه على ما كانت عليه في عهد رسول الله (ﷺ)، ينظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص204.

⁴ الركن: أي الحجر الأسود، وسمي ركناً لأنه مبني في الركن. ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ص209.

⁵ جفنة الدم: وتسمى لعقه الدم، ادخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، وتعاهدوا على الموت. ينظر: السيرة النبوية، ص182.

وعندما أخبروه الخبر قال (ﷺ): هَلَمْ إِلَيَّ ثَوْبًا، فَأُتِيَ بِهِ، فَأَخَذَ الْحَجَرَ، وَوَضَعَهُ فِيهِ، وَقَالَ: لَتَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا. ففعلوا: حتى إذا بلغوا موضعه. ووضعه هو بيده الشريفة ثم بنى عليه¹.

يكشف هذا الحدث عن إقرار جماعي من قريش بحكمة الرسول (ﷺ) وسداد رأيه. ورجاحة عقله، وفي هذا يقول هبيرة بن أبي وهب المخزومي²:

(الطويل)

تَشَاجَرَتِ الْأَحْيَاءُ فِي فَضْلِ خُطَّةٍ	جَرَّتْ بَيْنَهُم بِالنَّحْسِ مِنْ بَعْدِ أَسْعَدٍ
تَلَاقُوا بِهَا بِالْبُغْضِ بَعْدَ مَوَدَّةٍ	وَأَوْقَدَ نَارًا بَيْنَهُمْ شَرًّا مَوْقِدٍ
فَلَمَّا رَأَيْنَا الْأَمْرَ قَدْ جَدَّ جَدُّهُ	وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ غَيْرَ سَلِّ الْمُهَنْدِ
رَضِينَا وَقُلْنَا الْعَدْلَ أَوَّلَ طَالِعٍ	يَجِيءُ مِنَ الْبَطْحَاءِ مِنْ غَيْرِ مَوْعِدٍ
فَفَاجَأَنَا هَذَا الْأَمِينُ مُحَمَّدٌ	فَقُلْنَا رَضِينَا بِالْأَمِينِ مُحَمَّدٍ

يصور الشاعر من خلال الأبيات السابقة الحدث بكل مجرياته، وكيف أرادت كل قبيلة أن تتال الشرف في وضع الحجر الأسود مكانه، وقد وصل الأمر بهم إلى سفك الدماء لولا إرادة الله، إذ ظهر النبي محمد (ﷺ) وقد بدا الفرح على وجوههم بظهوره، لأنه كانت له مكانة مرموقة في مكة؛ فقد كان أهلها يلجأون إليه في حل منازعاتهم، وفي تفسير ما أخفي وغم عليهم من بعض القضايا³. هذا الحدث كان له أهمية خاصة عند الرسول (ﷺ) والقبائل العربية وكذلك في قريش تحديداً، لأنه وقع قبل بعثته (ﷺ) بما يقارب خمس سنوات⁴ وقد كانت قريش تُسمي رسول الله (ﷺ) بالأمين قبل أن ينزل عليه الوحي⁵، وإلى قضية التحكيم هذه يُشير عمر فروخ في كتابه

¹ ينظر ابن هشام: السيرة النبوية، ص182.

² ابن هشام: السيرة النبوية، ص197.

³ ينظر، ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ص197.

⁴ الكعبي، عبد الحكيم: موسوعة التاريخ الإسلامي عصر النبوة وما قبله، الأردن، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2003م، ص238.

⁵ ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ص183. وينظر: الأندلسي، أبو الفضل عياض بن عمرو اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تح كمال بسيوني زغلول المصري، مؤسسة الكتب الثقافية، 1995، ج1، ص108.

"تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية"¹ بأن هذا التحكيم يدل على أمرين: وجاهة محمد وأسرته في قريش، وعلى مزايا محمد الشخصية التي كانت موضع احترام كبير. لقد ظهر كثير من هذه المزايا لأهل مكة والقبائل المجاورة وقد أتى على كثير منها هبيرة في أبياته السابقة كالعدل والأمانة والحكمة في فض الخلاف، فقد أنقذ محمد (ﷺ) مكة من حرب كادت تنتشب بين القبائل وحسم الخلاف الذي كان يهدد وحدتهم، وقد يتساءل البعض ويقول من أين لهذا اليتيم الفقير بهذا الأدب الرفيع؟ وكيف اجتمعت فيه كثير من صفات النبل والأخلاق الحميدة؟ فذلك ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾².

ثانيا: حادثة الاستسقاء:

تتابعت على قريش سنون ذهبن بالأموال واشفين على الأنفس، فقالت رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف³: سمعت في المنام قائلاً يقول: يا معشر قريش إن هذا النبي المبعوث منكم وهذا إبان خروجه وبه يأتيكم بالحيا والخصب، فانظروا رجلاً من أوسطكم نسباً طوالاً عظماً، أبيض مقرون الحاجبين فليخرج هو وجميع ولده وليخرج منكم من كل بطن رجل فتطهروا وتطيبوا ثم استلموا الركن، ثم ارقوا إلى أبي قبيس، ثم يقدم هذا الرجل ويستسقي وتؤمنون فإنكم ستسقون وأصبحت وقصت رؤياها عليهم فنظروا فوجدوا الصفة، صفة عبد المطلب واجتمعوا وفعلوا ما أمرتهم به ثم علوا على أبي قبيس ومعهم النبي (ﷺ) وهو غلام فتقدم عبد المطلب وقال:

لا هم⁴، هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك وإماؤك وبنات إمائك قد نزل بنا ما ترى وتتابعنا علينا هذه السنون فذهبت بالظلف والخف وأشقت على الأنفس فاذهب عنا الجذب، وائتنا بالحيا

¹ فروخ، عمر: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، مرجع سابق، ص51.

² سورة الجمعة، آية (4).

³ من الشواعر ذوات الفصاحة والبلاغة، أوردها الطبراني وابن جعفر في الصحايبات، كانت أشد الناس على ابنها مخرمة قبل أن يسلم، ينظر الوائلي عبد الحكيم: موسوعة شاعرات العرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين، ط1، عمان، دار اسامة للنشر والتوزيع، 2001، ص36.

⁴ يعني اللهم.

والخصب، فما برحوا حتى سالت الأودية وبرسول الله سقوا فقالت رقيقه بنت أبي صيفي بن هاشم ابن عبد مناف¹:

(البسيط)

وَقَدْ فَقَدْنَا الْحَيَا وَاجْلُوذَ الْمَطَرِ
دَانَ فَعَاشَتْ بِهِ الْأَنْعَامُ وَالشَّجَرُ
وَحَيْرَ مَنْ بَشَّرَتْ يَوْمًا بِهِ مُضِرُّ
مَا فِي الْأَنَامِ لَهُ عَدْلٌ وَلَا خَطَرُ

بَشِيَّةٌ² الْحَمْدُ أَسْقَى اللَّهُ بَلَدَنَا
فَجَادَ بِالْمَاءِ جُونِي لَهُ سُبُلُ
مَنَا مِنَ اللَّهِ بِالْمِيمُونَ طَائِرُهُ
مُبَارَكُ الْأَمْرِ³ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِهِ

وفي هذه الأبيات التي يرد فيها الاستسقاء بالرسول (ﷺ) وهو غلام مع جده عبد المطلب وذلك بعد أن أجدبت الأرض وهلك الزرع. مخالفة وقع فيها الكثير، حيث نسبوا بيت أبي طالب⁴:

(الطويل)

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ
ثَمَالُ الْيَتَامَى عَصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ⁵

إلى جده عبد المطلب، وقد أورد ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قوله: "قدمت مكة وهم في سنة قحط فقالت قريش: يا أبا طالب: اقحط الوادي واجذب العيال فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجنة تجلت عنه سحابة قنماء وحوله أغيلمة فأخذه أبو طالب وألصق ظهره بالكعبة ولأذ الغلام بإصبعه، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا، وانفجر الوادي، وأخصب النادي وقال أبو طالب⁶:

¹ ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، بيروت، دار الجيل، 1974، ج1، ص39.

² شبيبة: اسم عبد المطلب جد الرسول (ﷺ).

³ وردت برواية أخرى (مبارك الوجه)، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ص54-55. وكذلك البلاذري، احمد بن يحيى: أنساب الأشراف، تح محمد حميد الله، القاهرة، دار المعارف، ص82.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، ص252. وينظر التتوحي، محمد: أبو طالب عم النبي، ص67.

⁵ ثمال بكسر المثلثة: الملجأ، والعصمة: الحافظ من الضياع، والأرامل: المساكين رجالا ونساء لكن النساء أكثر استعمالا. ينظر: الهيثمي: المنح المكية في شرح الهزمية، ج1، ص286-287.

⁶ الهيثمي، احمد بن محمد بن حجر: المنح المكية في شرح الهزمية، ج1، ص286.

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثَمَالُ الْيَتَامَى عَصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

وهنا يمكن الجمع بين الروايات المختلفة بتكرار الواقعة، إذ إن واقعة أبي طالب كان الاستسقاء به عند الكعبة، وواقعة عبد المطلب كان أولها أنهم أمروا باستلام الركن ثم بعد ذلك رقي جبل أبي قبيس¹.

ولكن بيت أبي طالب الذي يمتدح فيه الرسول (ﷺ)، يمكن القول فيه بأنه قد ذكر هذا البيت إثر هذه الواقعة ومن ثم أكمل قصيدته بعد البعثة النبوية².

ومما يعزز قولنا هذا، ويؤكد أن منشئ البيت هو أبو طالب، قول الرسول (ﷺ) عندما استسقى لأهل المدينة: "لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسره"، فقال أصحابه كأنك يا رسول الله أردت قوله:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثَمَالُ الْيَتَامَى عَصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

قال: أجل³.

وقد أورد ابن سلام الجمحي في طبقاته قوله عن أبي طالب: "وكان أبو طالب شاعراً جيد الكلام، أبرع ما قال قصيدته التي امتدح فيها النبي (ﷺ):

وَأَبْيَضُ يَسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ.....، وأضاف أن القصيدة زيد فيها وطولت، ولا يدري أين منتهأها، وقد سأله الأصمعي عنها وقال: "صحيحة جيدة"⁴.

وقد اشتهرت قصيدة أبي طالب اللامية في مدح الرسول (ﷺ) وحوطه وحمائته وحقيقة ما جاء به من رسالة خالدة حيث يقول فيها⁵:

¹ ينظر: الهيثمي، أحمد بن محمد: المنح المكية في شرح الهمزية، ج1، مصدر سابق، ص268.

² الهيثمي: المنح المكية في شرح الهمزية، ج1، ص288.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ص252.

⁴ الجمحي، محمد بن سلام: طبقات فحول الشعراء، شرحه محمود محمد شاكر، الرياض وزارة المعارف، 1974، ص245.

⁵ عرجون، محمد الصديق إبراهيم: محمد رسول الله، ط21، دمشق، دار القلم، 1995، ص314-315، وديوان أبي طالب ص72-73.

(الطويل)

وَزَيْنًا لَمَن وَالَاهُ رَبُّ الْمَثَاكِلِ
وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

فَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا جَمَالًا لِأَهْلِهَا
لَقَدْ عَلِمُوا إِنْ ابْنَانَا لَا مَكْذِبَ لَدِينَا

إلى أن يقول:

(الطويل)

وَأَظْهَرَ دِينَنَا حَقَّهُ غَيْرَ بَاطِلِ

فَأَيَّدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ

وهذا يؤكد ما أوردناه سابقاً، بأنه قال بيت الاستسقاء في الرسول (ﷺ) قبل البعثة، ومن ثم أكمل القصيدة بعد الإسلام، حيث تتضح إشارات كثيرة في القصيدة يأتي فيها على ذكر الرسول (ﷺ) والذود عنه وحمايته وكيف أظهر الله الحق على يديه¹.

إذاً فقد كان المستسقى به الرسول (ﷺ) وهو غلامٌ مبارك في الأرض والسماء، وسقى الله به الحياة، قبل البعثة وبعد الإسلام، والله درّ أبي طالب الذي أجاد في وصفه بأبرع قصيدة وصفها ابن سلام في طبقاته، وقد أدخله في عداد الشعراء، لوجود ديوان شعر يُنسب إليه وقد ورد أكثره في سيرة (ابن اسحق)، واسمه (عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم)².

هذه كانت واقعات حياته (ﷺ) قبل البعثة - في طفولته- وفي شبابه، تصوّر لنا أدق تفاصيل حياته، وفي سلوكه وسيرته قبل الرسالة، وتلقي الضوء على كثير من الصفات التي كرمه الله بها كالصدق، والأمانة، التي شهد بها الكثير، ومنهم علي بن أبي طالب في قوله "كان رسول الله (ﷺ) ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم صدقه وأمانته، وقد تأخر في هجرته إلى المدينة لانشغاله برد الودائع التي كانت عند الرسول (ﷺ)" ³. وحكمته وقدرته على تجاوز المحن؛ فكان الملجأ لأهل مكة وما حولها، وكان (ﷺ) مباركاً، رضيعاً، طفلاً، وشاباً، واقتضت حكمة الله أن يصطفيه، وليس لأحد إلا له سبحانه الأمر من قبل ومن بعد.

¹ عرجون، محمد الصادق: مرجع سابق، ص314-315.

² ينظر: علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب. ط1، بيروت، دار العلم للملايين، 1972، ج9، ص697.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ص129.

المبحث الثاني

صورته عند الأقباط والرهبان

أولاً: عند اليهود:

عرف العرب في الجاهلية اليهود، وورد ذكرهم في الشعر الجاهلي¹، ووردت لفظة "لم" في القرآن الكريم في مواضع مختلفة²، لكن ما وصل إلينا من شعر يهود الجاهلية قليل جداً لا يعدو بضع قصائد وأبيات مبعثرة في أمهات كتب الأدب العربي³. وقد يرجع سبب قلة ما وصل إلينا من شعرهم في الجاهلية إلى ضعف إقبالهم على اعتناق الدين الإسلامي⁴، مقارنةً بالذين اعتنقوا الإسلام وخلدوا مجدهم وآثارهم شعراً.

قد حفلت المصادر الإسلامية بكثير من الاقتباسات والنصوص من كتب اليهود والأخبار⁵ الذين أخبروا عن ظهور نبي مصلح في آخر الزمان، وفق ما جاءت به كتبهم تلك⁶.

وكانت صفة الرسول (ﷺ) مؤكدة في التوراة والإنجيل، لكن اليهود والنصارى أنكروها بل أضاعوا بعض الأنجيل التي نصت على ذلك⁷.

وقد نصت الآيات القرآنية على ظهور اسم الرسول محمد (ﷺ) في كتبهم قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾⁸.

¹ علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ج6، ص511.

² وردت في سورة البقرة آية 113، 120، وسورة المائدة آية 18، 51، 64، 62، وسورة التوبة آية 30.

³ ولفنسون، إسرائيل: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، القاهرة، مطبعة الاعتماد، 1927، ص23.

⁴ السابق، ص25.

⁵ الأخبار: مفرداها خبر وهو العالم من اليهود، لسان العرب، مادة (خبر).

⁶ البيهقي، أحمد بن الحسين: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تح عبد المعطي قلنجي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1985، ج1، ص273-284.

⁷ النبروي، فتحية عبد الفتاح: السيرة النبوية المطهرة وبناء الدولة الإسلامية، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2013، ص73. وينظر: رضا، محمد رشيد: إنجيل برنابا، ترجمة: خليل سعاده، القاهرة، دار البشير، 1995، ص65.

⁸ سورة الاعراف، آية 157.

ولقد كان العرب يجهلون الديانة اليهودية، ويقولون لليهود "لكم علم ليس لنا"¹، لهذا توقفت الباحثة عند خبر من علمائهم (اليهود) هو قيس بن نشبة²، وكان قد قرأ الكتب وذكر قصة إسلامه شعراً، فعندما سمع بالنبي (ﷺ) قدم عليه وقال: أنت رسول الله؟ قال: نعم، فقال له: أنت شريف في قومك، وفي بيت النبوة فما تدعو إليه؟ فعرض عليه أمور الإسلام وعرفه بما يأمر به، وينهى عنه، فقال له: ما أمرت إلاّ بحسن، وما نهيت إلاّ عن قبيح، فأخبرني عن كحل ما هي؟ قال: السماء. قال: أخبرني عن محل؟ قال: الأرض. قال: فلمن هما؟ قال: لله. قال: ففي أيهما هو؟ قال: فيهما وله الأمر من قبل ومن بعد. قال: أنت صادق وأشهد أنك رسول الله. وقد سماه الرسول (ﷺ) خبر بني سليم، وإذا افتقده (ﷺ) سأل عنه وقال: أين خبركم؟

ومما قاله قيس بن نشبة في ذلك³:

(الكامل)

كُلُّ الرِّضَا لَأَمَانَتِي وَلِدِينِي
وَعَقَدْتُ فِيهِ يَمِينَهُ بِيَمِينِي
فَاللَّهُ قَدَّرَ أَنَّهُ يَهْدِينِي
أَرْجُو السَّلَامَةَ مِنْ عَذَابِ الْهُونِ

تَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ وَرَضِيتهُ
ذَاكَ أَمْرٌ نَازَعْتُهُ قَوْلَ الْعَدَى
قَدْ كُنْتُ أَمَلُهُ وَانْظُرْ دَهْرَهُ
أَعْنِي ابْنَ أَمْنَةِ الْأَمِينِ وَمَنْ بِهِ

تكشف الأبيات السابقة عن ترقب وانتظار قيس بن نشبة لهذا النبي الكريم، استطاع بعلمه وقراءته للكتب السماوية أن يهتدي لهذا الدين وبسؤاله رسول الله (ﷺ) وبعد أن تأكد ووثق من الإجابة اطمأن قلبه وشرح الله صدره للإسلام، وهذا يعني أن هناك دلائل كثيرة تؤكد بعثة الرسول (ﷺ) لكن اليهود أنكروها، وقد جاء إسلامه بعد طول انتظار لهذه البعثة الشريفة، وقد حرص أن يذكر بأمة آمنة بنت وهب التي وضعت خير مولود، الأمين المبارك في الأرض والسماء.

¹ ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص201. وينظر: ولفنسون، إسرائيل: تاريخ اليهود في بلاد العرب، مرجع سابق، ص87.

² هو قيس بن نشبة السلمي، خبر بني سليم، كان يقرأ ويكتب في الجاهلية، عرف كثيرا من أخبار الروم وفارس وأشعار العرب والكهان وقال الشعر ولما ظهر الإسلام وفد على النبي (ﷺ) بعد الخندق وسأله عن السماوات وسكانها، وأجابه واسلم وكان الرسول (ﷺ) يسميه (خبر بني سليم). ينظر: الزركلي، خير الدين: الأعلام، 14، لبنان، بيروت، دار العلم للملايين، 1999، ج5، ص209.

³ ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل: الإصابة في تمييز الصحابة، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1977، ج5، ص505.

لكن هناك تساؤلاً يدور في ذهن الباحثة وهو: هل كانت صورته (ﷺ) إيجابية عند جميع اليهود قبل الإسلام؟ وهل كان هناك تشابه في ردود الأفعال عندما علموا بظهور النبي محمد وولادته؟

تذكر المصادر وكتب السيرة القديمة أن معظم اليهود كانوا يحملون الحقد والحسد في نفوسهم لظهور النبي (ﷺ) في قريش، وكثيراً ما كانت ترد عبارة "احذر عليه من اليهود"، ففي طبقات ابن سعد تذكر حليلة السعدية مرضعة الرسول (ﷺ) كيف قال لها اليهود عندما رأوا الطفل اليتيم في حجرها "لو كان يتيماً لقتلناه" ولكنها أخفت عنهم أمره وقالت لهم بأنها أمه وهذا أبوه¹.

وعندما بلغ الرسول (ﷺ) اثنتي عشرة سنة من عمره، خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام للتجارة وراه الراهب بحيرا أوصى عمه أن يعود به من حيث أتى ويحذر عليه اليهود. فما كان من عمه إلا أن أنهى تجارته وعاد به مسرعاً إلى مكة².

وكان أبو طالب عم الرسول (ﷺ) قد أتى على ذكر اليهود في قصيدته، وكيف ردّ الراهب وصرف عنه كيدهم في قوله³:

(الكامل)

ظَلَّ الْغَمَامَةُ ثَاغِي⁵ الْأَكْبَادِ
عَنْهُ وَجَاهَدَ أَحْسَنَ التَّجْهَادِ
فِي الْقَوْمِ بَعْدَ تَجَادُلٍ⁶ وَتَعَادِ
عَنْ قَوْلِ حَبْرٍ نَاطِقٍ بِسَدَادِ

قَوْمٌ يَهُودٌ قَدْ رَأَوْا مَا قَدْ رَأَوْا
ثَارُوا لِقَتْلِ مُحَمَّدٍ فَهَاهُمُو
وَتَّى⁴ بَحِيرَاءَ ذُرَيْرًا فَاثْنَتَى
وَنَهَى دُرَيْسًا فَاثْنَتَى لَمَّا نَهَى

¹ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، مصدر سابق، ص77.

² السابق، ج1، ص155. ويُنظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك: الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت رينز، فسبادن، دار نشر غرانزشتاينر، 1962، ج1، ص57.

³ التتويج، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي (ﷺ)، ص39.

⁴ تى: كفّ وصرف.

⁵ ثاغر: فاتح.

⁶ تجادل: مصاولة في الحرب.

عندما رأى اليهود الرسول قادماً إلى بصرى، تَظَلَّه الغمامة، أصرُّوا على قتله بعدما تأكَّد لهم نبوته، لكن بحيرا الراهب ردَّ هؤلاء الثلاثة (زريراً، هماماً، دريساً)¹ وصرف أذاهم عن محمد بعد أن حاورهم وأقنعهم بعدم التعرض له، فصدقوه وانصرفوا عنه.

هذه صورة بسيطة تُذكر بأفعال اليهود تجاه الرسل، وقد كانت قبل ظهور الرسالة وانتشار الإسلام، فكيف كانت الصورة بعد ذلك - هذا ما سنأتي على ذكره في الصفحات القادمة.

ثانياً : الرهبان :

أكد الإسلام من خلال القرآن الكريم على مضامين الكتاب المقدس واحتوائه على إشارات متعددة تؤكد ظهور نبي في آخر الزمان ومنها إشارة سيدنا عيسى عليه السلام وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾².

وكان من تأثير المسيحية، أن مال بعض العرب إلى الرهينة وبناء الأديرة³، وقد ذكر البيهقي حديثاً مطولاً وبطرق متعددة شمل وصفاً لأديرة الرهبان⁴ وصوامعهم بما تحويه من صور للأنبياء. ومنها صورة الرسول (ﷺ) شاهدها من اتَّصل بهم وزار أديرتهم تلك⁵.

¹ هم نفر من أهل الكتاب كانوا قد رأوا من رسول الله (ﷺ) ما رآه بحيرا في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب فأرادوه فردهم بحيرا عنه. ينظر ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ج1، ص167، وديوان أبي طالب، ص39.

² سورة الصف، آية 6.

³ برو، توفيق: تاريخ العرب القديم، ط4، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1996م، ص308.

⁴ الرهبان: مفرداها راهب وقد عرفت شخصية الراهب في العصر الجاهلي وفي القرآن والحديث، ويذكر القرآن الرهبان والقسيسين والأخبار في بعض الأحيان، وأشار الشعراء الجاهليون إلى الراهب في صومعته وذكروا ان المسافرين يرى نور هذه الصومعة من بعيد فتثير في ذهنه فكرة المأوى يلوذ به ويستدل على أن لفظ راهب ليس فيه ما يشين، ينظر ا.جي.بريل، دائرة المعارف الإسلامية، ط1، الشارقة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1998، ج16، ص5079.

⁵ البيهقي، أحمد بن الحسين: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، مصدر سابق، ج1، ص384، ص390.

1- بحيرا الراهب:

عندما خرج أبو طالب في تجارته إلى الشام، وكان أن اخرج معه محمداً (ﷺ) بعد أن تعلّق الأخير بعمه نزل الركب في بصرى¹ بأرض الشام وبها راهب يقال له بحيرا² في صومعة له وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم، ولا يعرض لهم، لكنه هذه المرة صنع لهم طعاماً كثيراً ودعاهم للحضور صغيراً وكبيراً، لكن محمداً (ﷺ) تخلف ولم يحضر وليمة الطعام وقد عرف هذا الراهب بعدم وجوده، فأشار إلى القوم أن يحضروا الغلام الصغير محمداً (ﷺ).

وقام إليه واحتضنه وأجلسه معهم، وإلى تلك الحادثة يشير أبو طالب عم الرسول (ﷺ) إلى الراهب وبصنيعه معهم ويقول³:

(الطويل)

لَنَا فَوْقَ دُورٍ يَنْظُرُونَ عِظَامَ
لَنَا بِشَرَابٍ طَيِّبٍ وَطَعَامَ
فَقُلْنَا: جَمَعْنَا الْقَوْمَ غَيْرَ غُلَامَ
لَهُ دُونَكُمْ مِنْ سُوقَةٍ وَإِمَامَ
لَكُنْتُمْ لَدَيْنَا الْيَوْمَ غَيْرَ كِرَامَ

فَلَمَّا هَبَطْنَا أَرْضَ بُصْرَى تَشَوَّفُوا
فَجَاءَ بَحِيرَا عِنْدَ ذَلِكَ حَاشِداً
فَقَالَ: اجْمَعُوا أَصْحَابَكُمْ عِنْدَمَا رَأَى
يَتِيمَ فَقَالَ: ادْعُوهُ إِنَّ طَعَامَنَا
فَلَوْلَا الَّذِي خَبَرْتُمُو عَن مُحَمَّدٍ

هذا الراهب توسم في رسول الله (ﷺ) النبوة، ورأى الغمامة تظله من بينهم فصنع لهم الطعام ضيافة واستدعاهم⁴، حتى لم يبق منهم حرٌّ أو عبدٌ أو كبيرٌ أو صغيرٌ إلا وقد حضر مما جعل القوم يعجبون من فعله ويتساءلون عن شأنه اليوم⁵!

¹ بصرى: بلد في جنوبي دمشق، كانت محطة للقوافل.

² راهب: كان ينتهي إليه علم أهل النصرانية، لم يزل في تلك الصومعة، إليه يصير علمهم عن كتاب فيما يزعمون يتوارثونه كابر عن كابر (د.ت). ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ص165. وابن كثير: البداية والنهاية، مج1، ص213.

³ التتويج، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي، مصدر سابق، ص88. وينظر باختلاف في بعض المفردات، السهيلي: الروض الأتف، مصدر سابق، ج1، ص208.

⁴ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، مجلد1، ص213.

⁵ ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ج1، ص166.

لقد أخذ يلحظ الغلام الصغير ويسأله عن حاله وهيئته وأموره، والرسول يخبره ويوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، حتى رأى خاتم النبوة بين كتفيه¹.

لقد تثبت بحيرا من محمد، وعرف بما قرأه في الكتب الدينية بأنه رسول الله وخاتم الأنبياء. لهذا أوصى به كثيراً عمه أبا طالب. وقد حذره من اليهود وبطشهم به، وقد أخبره بما هو كائن له من شأن عظيم².

تلك الحادثة كانت في طفولة الرسول (ﷺ)، وبصحبة عمه أبي طالب، أما نبوءة الراهب الآخر فذكروا أن اسمه نسطور³ فقد رأى الرسول (ﷺ) مع ميسرة غلام السيدة خديجة -رضي الله عنها- في ظل شجرة واستدعى ميسرة وسأله عن الرسول (ﷺ) وقال له ميسرة: هذا رجل من قريش وأخبره الراهب: "ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي"⁴.

2- ورقة بن نوفل⁵:

إن استغراق أهل مكة في عبادة الأوثان التي شملت جميع جوانب الحياة لديهم جعلت بعض الأفراد يضيقون ذرعاً بها، فما كان منهم إلا أن اعتزلوا عبادة قومهم وتوجهوا إلى عبادة الله وحده فكان هناك الأحناف وكان النصارى ومنهم ورقة بن نوفل، حيث أقام على النصرانية، وكان يدعى (القس)⁶.

¹ ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ج1، ص166. وينظر الهيثمي، أحمد بن محمد: المنح الملكية في شرح الهمزية، ج1، مصدر سابق، ص289. وينظر النبراوي، فتحية: السيرة النبوية المطهرة وبناء الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص62-64.

² ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، مصدر سابق، ص167.

³ هم المسيحيون النساطرة، سكنت على امتداد طرق التجارة واستقروا بين العرب، وفي شمال الجزيرة العربية كانوا ينتمون للكنيسة النسطورية "في شرق سوريا" ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، مصدر سابق، ص9902.

⁴ يريد ما نزل تحتها هذه الساعة إلا نبي، ولم يرد ما نزل تحتها قط إلا نبي لبعده عهد الأنبياء قبل ذلك، ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ص72. وينظر ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص620.

⁵ جده أسد بن عبد العزى، من قريش، حكيم جاهلي، اعتزل عبادة الأصنام، توفي حوالي 12 قبل الهجرة، وينظر: شامي يحيى: موسوعة شعراء العرب، ج1، مصدر سابق، ص189.

⁶ البلاذري: أنساب الأشراف، مصدر سابق، ص106.

كان ورقة بن نوفل قد كره عبادة الأوثان، وطلب الدين في الآفاق، وقرأ الكتب¹ بالإضافة إلى كونه حكيماً متديناً موحداً؛ كان أيضاً شاعراً بليغاً عاش يلتبس دين التوحيد ويبشر بقرب ظهور نبي من العرب يكون خاتماً للرسل من قبله.

كان ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة-رضي الله عنها- لذلك نراها تتطلق إليه تخبره بما رأت من كرامات زوجها محمد (ﷺ) وبما كان من أمره (ﷺ) مع غلامها ميسرة وكيف أظلمته الغمامة.

ويبشرها ورقة بأنه نبي هذه الأمة ويقول في ذلك²:

(الوافر)

لَأَمْرٍ طَالَمَا بُعِثَ الشَّيْخَا⁴
فَقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يَا خَدِيجَا
مِنَ الرَّهْبَانِ أَكْرَهُ أَنْ يَعُوجَا
شَهِدْتُ وَكُنْتُ أَوْلَهُمْ وَلُوجَا⁵

لَجَجْتُ³ وَكُنْتُ فِي الذِّكْرِى لُجُوجَا
وَوَصَفٍ مِنْ خَدِيجَةٍ بَعْدَ وَصَفٍ
بِمَا خَبَرْتَنَا مِنْ قَوْلِ قَسٍ
فِيَا لَيْتَنِي إِذَا مَا كَانَ ذَاكُمُ

تكشف الأبيات السابقة في جيمية ورقة بن نوفل عن التبرم من الوضع الديني والوثني الذي كان موجوداً في مكة قبل الرسالة، وتعبّر عن شوق وانتظار ولهفة كبيرة لظهور هذا النبي كما تدلّ الأبيات على صدق ورقة وإيمانه برسالة محمد. فقد كان متابعاً له وقد عرف من الإرهاصات السابقة وأقوال الأخبار والرهبان ما يثبت صحة نبوءته بمحمد⁶. ويُعبّر عن أمنياته أن يكون موجوداً عندما

¹ ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل: الإصابة في تمييز الصحابة، مج6، مصدر سابق، ص609.

² ينظر ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، مجلد2، مصدر سابق، ص10. وينظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص192. وينظر أيضاً الفجاوي، عمر عبد الله، والمعاطيه، ريم فرحان: شعر ورقة بن نوفل جمع ودراسة، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل العلوم الإنسانية والإدارية، عدد1، مج10، 2009م، ص4.

³ لججت: الحبيت.

⁴ النشيج: البكاء.

⁵ ولوج: دخول.

⁶ ينظر: حمدان، عاصم علي: من بواكير شعر المنافحة عن رسول الله (ﷺ) والتبشير بالرسالة، مصدر سابق، ص17-19.

يُبْعَثُ الرَّسُولُ (ﷺ)، وَلَتُنْ أَدْرِكُهُ هَذَا الْيَوْمَ لِيَجَاهِدَ مَعَ الرَّسُولِ (ﷺ)¹. وَيُذَكَّرُ خِلَالَ شَعْرِهِ
بِأَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ مَرْسَلٌ إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعٍ حَيْثُ يَقُولُ²:

(الطويل)

بِأَنَّ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ مُرْسَلٌ	إِلَى كُلِّ مَنْ ضُمْتُ عَلَيْهِ الْأَبَاطِحُ
وَوُظِّنِي بِهِ أَنْ سَوْفَ يُبْعَثُ صَادِقًا	كَمَا أُرْسِلَ الْعَبْدَانِ هُودٌ وَصَالِحُ
وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ حَتَّى يُرَى لَهُ	بَهَاءٌ وَمَنْشُورٌ مِنَ الدَّهْرِ وَاضِحُ

وهنا يبين ورقة صدق نبوة محمد (ﷺ) وأنه صادق مرسل من عند الله إلى كل بقاع الأرض، ويأتي على ذكر الأنبياء السابقين - ولا عجب في ذلك - فنحن نعلم أن ورقة بن نوفل قد قرأ الكتب وأخذ من روايات السابقين وأخبارهم ما يؤكد ظهور هذا النبي، وسيكون لدعوته النصر المؤزر والظهور كما حصل مع هؤلاء الأنبياء السابقين³.

حتى إنه يتحدث عن أتباع محمد (ﷺ) ومن سيكون منهم، وماذا سيكون مصير دعوته وكيف سينتشر هذا الدين ليعم ضياؤه بقاع الأرض، ويذكر خير الناس من يهتدي بدعوته، ويسير على هذا الطريق، وأشرارهم من يقف عثرة ويعارض دينه فيقول⁴:

(المتقارب)

بِأَنَّ سَوْفَ يَتَّبِعُهُ مِنْ لُؤِيٍّ	ذَوُو الرِّأْيِ وَالْعَزْوَ وَالْأَضْعَفِ
فَيُظْهِرُ فِي النَّاسِ مِنْ بَعْدِ حِينٍ	ضِيَاءً لَهُ سُبُلُ مُسَدِّفِ
فَخَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَتْبَاعُهُ	وَشَرُّ الْبَرِيَّةِ مَنْ يَصْدَفِ

¹ ينظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، مصدر سابق، ص10.

² ينظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، سابق، ص11. وينظر: الفجاوي، عمر عبد الله، والمعاطبة، ريم فرحان: شعر ورقة بن نوفل جمع ودراسة، مصدر سابق، ص6.

³ ينظر: الفجاوي، عمر عبد الله، والمعاطبة، ريم فرحان: شعر ورقة بن نوفل جمع ودراسة، مصدر سابق، ص13.

⁴ ينظر السابق، ص16.

نعم، كان ورقة يُنشد الشعر ويتشوق فيه لإنجاز وعد الله وكريم رحمته، بإرساله رسولاً من العرب يهديهم إلى سواء السبيل¹، وبالرغم من تضارب الروايات حول وفاته قبل مبعث النبي (ﷺ) أو في بداية الدعوة الإسلامية، فقد كانت له مكانة طيبة في نفس الرسول (ﷺ) تؤيد ذلك الأحاديث المروية مثل قوله (ﷺ) : "لقد رأيتُ القس في الجنة عليه ثياب الحرير". وفي رواياتٍ أخرى ثياب بيض².

بقي أن نشير إلى قضية الشك والانتحال التي تعرض لها الشعر الجاهلي بشكل واسع ودارت حولها مؤلفات كثيرة من المحدثين أمثال: طه حسين (في الشعر الجاهلي) وكذلك إبراهيم النعانة (في الجاهلية وصدر الإسلام)، فقد أثار الأخير قضية الشك في شعر ورقة بن نوفل حيث اشتملت قصائده على معان وكلمات ورد معظمها في القرآن الكريم³ وكذلك ذكر لأسماء الأنبياء السابقين، والباحثة ترد على ذلك بأن ورقة قد قرأ الكتب السماوية السابقة وعرف منها المرويات والقصص وليس فيها ما يثير الشك أو التساؤل، لأنها ببساطة تمتاز بالسهولة والوضوح ولا نجد الغريب من الألفاظ قد استُخدمت بشكل مباشر أو غير مباشر في أي من قصائده⁴.

ومما تجدر الإشارة إليه أننا لسنا في هذا المقام لنحكم على النصوص بالقبول أو الرفض لأننا نقبل الشعر الجاهلي كله (الثابت والمشكوك فيه) على أنه مصدر من مصادر الحياة في الجاهلية. لأن الذين وضعوا ذلك الشعر حرصوا على تقليد الجاهليين في معانيهم وألفاظهم، وهكذا يبقى الشعر المنحول دالاً على ما يدل عليه الشعر الثابت⁵.

¹ خفاجي، محمد عبد المنعم، وعبد الجبار عبد الله: قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية (د.ط)، 1980، ص229.

² ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، مجلد6، ص608. وينظر الزهري، محمد بن مسلم بن مجيد الله بن شهاب: المغازي النبوية، تح، سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، 1981، ص45.

³ النعانة، إبراهيم عبد الرحمن: شعر بني كنانة في الجاهلية وصدر الإسلام، جمعاً وتحقيقاً ودراسةً، ط1، دار جرير للنشر والتوزيع، 2007، ص152-153.

⁴ ينظر: القيسي، أيهم عباس حمودي: ورقة بن نوفل حياته وشعره، مجلة المورد، ع1، مج17، 1988، ص171.

⁵ ينظر: فروخ، عمر: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، مرجع سابق، ص23.

كانت هذه وقفات قصيرة على صورة الرسول (ﷺ) عند اليهود والنصارى، وقد تراوحت الصورة بينهما. ففي نظر اليهود كانت تحمل كل معاني الحسد والغيرة والحقد وتتمنى الفتك بهذا النبي المنتظر حتى قبل خروجه وبعثته، في حين كانت الصورة إيجابية عند النصارى إلى حد كبير عبر عنها الرهبان ومنهم ورقة بن نوفل، الذي تمنى أن يكون حاضراً وقت ظهور الرسول الكريم وبعثته، ليؤازره ويشد عضده.

وكذلك بحيرا الراهب الذي ما فتئ يُوصي عمه به ويحذره بطش اليهود. وتبقى الصورة غير مكتملة حتى تشمل جانبا آخر وهم الكهان والجن في تلك المرحلة الزمنية.

المبحث الثالث

صورته عند الكهان والجن

الكاهن هو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار¹. كانت الكهانة ظاهرة كثيراً في أرض العرب² والذين كانوا يؤمنون بوجود الجن والعفاريت، ولهم في ذلك أشعار وأخبار كثيرة³ حيث وجدت طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب، أو تعرف ما يأتي به الغد، بما يلقي إليها تابعها من الجن، وكان واحداً يسمى كاهناً، وتابعه الذي يُوحى إليه يسمى رئي⁴. يستعين به ويسترق له الأخبار والأسرار من السماء⁵. جاء في كتاب "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام"، أن غير واحد من الكهان أخبره رئيه من الجن بأسجاع ورجزفيها ذكر مبعث النبي (ﷺ)، وسمع من هواتف الجان من ذلك أشياء كثيرة⁶. لقد كان التنبؤ بالرسالة النبوية الشريفة وبعثة الرسول (ﷺ) من أكثر أمور الغيب انتشاراً ونسبةً إلى الجاهليين. إذ ورد على السنة الكهنة ورجال الدين والشياطين⁷، وقد أشارت كتب السيرة النبوية والمصادر القديمة إلى غير واحد من كهان العرب الذين تحدثوا بأمر محمد (ﷺ) قبل مبعثه لما تقارب من زمانه⁸.

1- الغيطة⁹:

امرأة من بني سهم يقال لها الغيطة، كانت كاهنة في الجاهلية ولها تابع، جاءها في إحدى الليالي وأنقض تحتها وقال: أدر ما أدر، يوم عقر ونحر، فقالت قریش: وما ذاك؟ وما يريد؟ ثم جاء

¹ ابن منظور: لسان العرب، مادة (كهن).

² ابن تيمية، احمد بن العباس: النبوت، بيروت، دار الكتب العلمية، ص400.

³ البستاني، بطرس: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار الجيل، دار نظير عبود، 1989، ص29.

⁴ ضيف، شوقي: العصر الجاهلي، ط28، القاهرة، دار المعارف، 2008، ص420.

⁵ برو، توفيق: تاريخ العرب القديم، مرجع سابق، ص290.

⁶ الذهبي، شمس الدين بن عثمان: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط1، تح عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ج1، ص122.

⁷ الديك، إحسان: الكاهنة الجاهلية: قراءة في مكانتها ولغتها، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة البحرين، 2010، ص9.

⁸ الذهبي، شمس الدين: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مصدر سابق، ج1، ص122.

⁹ يُقال في نسبها الغيطة بنت مالك بن الحارث بن عمرو بن الصعق بن شنوف بن مرة. ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية ج1، تح طه عبد الرؤف سعد، ص192.

ثانية وقال شعوب¹، وما شعوب، تُصرع فيه لكعب الجنوب، وقالت قريش وماذا يريد؟ إنَّ هذا لأمر كائن ما هو؟ فما عرفوه حتى وقعت بدر وأحد. كانت هذه الكاهنة قد تنبأت بحدوث تلك الوقعات والغزوات بعد ظهور الرسالة المحمدية، لكن قريشاً لم تكن تعلم ما يقصده ذلك التابع إلا بعد حين. وقد ذكرها ابن هشام في معرض حديثه عن إرهابات النبوة، وكان تابعها على شكل طائر، وقد أخبرها بقرب بعثة النبي، وإنه يحرم الزنا وذكر أن ولدها الغيطة:

لَقَدْ سَفَهَتْ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا بَنِي خَلْفٍ قَيْضاً بِنَاً وَالْغَيَاطِلُ²

2- كاهن جنب³:

إن القلق الذي كان سببه خبر مجيء نبي بلغ مسامع بني جنب⁴. وكانت جنب بطنا من اليمن، كان لهم كاهن، لما ذكر أمر الرسول (ﷺ)، وانتشر في العرب قالت له جنب: انظر لنا في أمر هذا الرجل، واجتمعوا أسفل الجبل، نزل إليهم حين طلعت الشمس ووقف متكئاً على قوس له، ورفع رأسه إلى السماء طويلاً وقال: أيها الناس، إن الله أكرم محمداً واصطفاه، وطهر قلبه وحشاه، ومكثه فيكم أيها الناس قليل، ثم اشتد راجعاً من حيث أتى⁵. وما يمكن أن يقال في هذه الرواية عن كاهن جنب أن نبوءة هذا الكاهن تتم عن معرفة تامة بعقائد مختلفة وثقافات متعددة⁶. حيث أشار في عباراته المسجوعة القصيرة، لمعان كبيرة، وهي فترة حياة الرسول القصيرة مقارنةً بالأنبياء السابقين حيث عمروا طويلاً، إضافة إلى حادثة شق الصدر التي حدثت للرسول (ﷺ) في طفولته وهو لا يزال في ديار بني سعد عند مرضعته حليلة السعدية، حيث طهر الله قلبه من الأضغان، وملاه بالحكمة والنور والإيمان.

¹ شعوب ماشعوب وكعب لجنوب هو كعب بن لؤي والذين صرعوا لجنوبهم ببدر وأحد من أشرف قريش معظمهم كعب ابن لؤي، شعوب بضم الشين كأنه جمع شعب، ينظر: السابق، ص193.

² ابن هشام: السيرة النبوية، تح السقا وآخرون، ج1، ص209.

³ جنب: هم مذحج، بطن من اليمن، سموا جنباً، لأنهم جانبوا بني عمهم صداء ويزيد ابني سعد العشيرة بن مذحج يُنظر: المحقي، ابراهيم أحمد: معجم المدن والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، 1985م، ص94.

⁴ فهد، توفيق: الكهانة العربية قبل الإسلام، ترجمة حسن عودة ورندة بعث، بيروت شركة قدمس للنشر والتوزيع، 2007 ص78.

⁵ ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق ج1، تح طه عبد الرؤوف سعد، ص193.

⁶ السهيلي: الروض الأنف، ج1، مصدر سابق، ص245.

3- فاطمة الخثعمية¹:

كانت من أجمل النساء وأعفهن، وكانت تعتاف، وتقرأ الكتب². رأت نور النبوة في وجه عبد الله بن عبد المطلب، وأرادت أن يقع عليها وتعطيه مائة من الإبل، لكنه أبى ذلك وذهب إلى زوجته آمنة بنت وهب، ثم غادر إلى المرأة، لكنها رفضت بعد أن أخبرها وقالت له: إني رأيت في وجهك نوراً ساطعاً وقد ذهب الآن³، وقد أردت بأن يكون هذا النور فيّ، وأبى الله إلا أن يكون لآمنة بنت وهب وقالت⁴:

(الكامل)

فَتَلَأَّتْ بِحَنَاتِمِ الْقَطْرِ ⁵	إِنِّي رَأَيْتُ مَخِيلَةً نَشَأَتْ
مَاحُولُهُ كَاضَاءَةَ الْفَجْرِ	فَلَمَّا تُهَا ⁶ نُورًا يُضِيءُ بِهِ
مَا كُلُّ قَادِحٍ زُنْدَهُ يُورِي	وَرَأَيْتُهُ شَرَفًا أَبْوَعُ بِهِ
مِنْكَ الَّذِي اسْتَلَبْتَ وَمَا تَدْرِي	لِلَّهِ مَا زَهْرِيَّةٌ سَلَبَتْ

لقد عبرت الكاهنة بلغتها عن نبوءة مستقبلية لبعثة هذا الرسول الكريم، واستطاعت من خلال شعرها أن تبوح برغبتها بالظفر بهذا الشرف والنسب الكبير، فقد كان لها دور كبير في الجاهلية، مثلها مثل مثيلاتها الساميات مشهورة مميزة من سادة القوم وأشرفها⁷.

¹ ورد التعريف بهذه المرأة خلال البحث ينظر ص7.

² ينظر، البلاذري: أنساب الأشراف، ص79.

³ السهيلي: الروض الأنف، ج1، مصدر سابق، ص180، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ص78.

⁴ السهيلي: الروض الأنف، ج1، مصدر سابق، ص180. البلاذري: أنساب الأشراف، ص80.

⁵ مخيلة: سحابة تخالها ماطرة، حناتم: السحاب الأسود.

⁶ لمأتها: أبصرتها.

⁷ الديك، إحسان: الكاهنة الجاهلية: قراءة في مكانتها ولغتها، مرجع سابق، ص6.

4- أحاديث شق وسطيح¹:

أحاديث شق وسطيح كثيرة، جمعها غير واحد من الرواة من أهل العلم، وكذلك أخبار غيره من الكهان وأحاديثهم في تفسير رؤيا تبع اليمَن لارتياحه من أمور ظهرت مع ولادة الرسول الكريم، عندما أرسل كسرى عبد المسيح² بن عمرو (وهو خال سطيح) يُخبره بالأمر، وقد أتى سطيحا وقد أشفى على الضريح فسلم عليه وكلمه، ولم يرد إليه سطيح جواباً، فأنشد عبد المسيح يقول³:

(الرجز)

أَصَمُّ أَمْ يَسْمَعُ غَطْرِيفَ الْيَمَنِ	أَمْ فَادَ فَازَ لَمْ بِهِ شَأَوَ الْعَنَنِ ⁴
يَا فَاصِلَ الْخُطَةِ أَعَيْتَ مَنْ وَمَنْ	أَتَاكَ شَيْخُ الْحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنِ
أَبْيَضَ فَضْفَاضَ الرِّدَاءِ وَالْبَدَنِ	رَسُولُ قَيْلِ الْعُجْمِ يَسْرِي لِلْوَسَنِ ⁵

ولما سمع سطيح شعره رفع رأسه وقال: عبد المسيح على جمل مشيح، أتى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك ساسان لارتجاس الإيوان، وخمود النيران ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً

¹ * -سطيح: هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن نمير بن بني الذئبي من بني مازن من الأزد، كاهن جاهلي غساني حتى إن عبد المطلب رضي به حكماً بينه وبين جماعة من قيس عيلان في خلاف على ماء في الطائف، وهو كاهن من بني ذئب ما كان فيه عظم سوا رأسه، وزاد الزبيدي: كان أبداً منبسطة منسحقاً، وكان يطوى كما تطوى الحصيرة (...-52ق هـ =572م)، ينظر الزركلي: الأعلام ج3، ص14.

*شق: بن صعب بن بشكر بن رهم القصري الأثماري الأزدي، كاهن جاهلي من عجائب المخلوقات ومن معاصري سطيح الكاهن أيضاً، وكان يستدعيان أحياناً للاستشارة، أو تفسير بعض الأحلام، وعاش شق بعد ولادة النبي (ﷺ) كما يقال، ويذكرون أنه كان نصف إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة (... نحو 55 ق هـ =... نحو 573م). ينظر الزركلي، خير الدين: الأعلام، ج3، ص170.

² عبد المسيح: هو عمرو بن قيس بن حيان الحارثي الغساني يدعى بقبيلة، وهو ابن اخت سطيح الكاهن، بلغ الإسلام لكنه ظل مسيحياً، عرف بدهائه وحكمته وبصره بالأمور، توفي بعد سنة 14هـ/635 م. يُنظر: شامي يحيى: موسوعة شعراء العرب، ص55.

³ ابن كثير: البداية والنهاية، مجلد1، مصدر سابق، ص250.

⁴ العنن: الجهد والمشقة.

⁵ الوسن: شدة النوم أو النعاس.

صعاباً تقود خيلاً عرباً..... ياعبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة وفاض وادي السماوة، غاضت بحيرة ساوة وخمدت نار الفرس فليس الشام لسطيح شاماً وقضى مكانه¹.

وقد عبر الأعشى عن صدق نبوءة سطيح فقال²:

(البسيط)

مَا نَظَرْتُ ذَاتَ أَشْفَارٍ³ كَنَظَرْتُهَا حَقًّا كَمَا صَدَقَ الدُّبِّي إِذْ سَجَا

وإذا عدنا إلى قصة سطيح وخاله عبد المسيح وتفسيره رؤيا الموبدان، وكيف قطع عبد ج هذه المسافات الطويلة لتفسير هذا الأمر غريب الحدوث وفي تلك الفترة وكيف قض مضاجع الملك والموبدان، عرفنا كيف كان للكاهن شأن خطير في حياة الجاهليين⁴، وكيف كان يتمتع بمنزلة كبيرة، حيث كانوا يعتقدون بأنهم يوحى إليهم، ولعل ذلك ما جعل نفوذهم يتجاوز القبيلة إلى أبعد منها⁵.

5- كعب بن لؤي⁶:

هو أول من جمع قومه يوم الجمعة، وكانت قريش تسمى (يوم الجمعة) العروبة ويخطبهم، ويذكرهم بمبعث النبي (ﷺ) ويقول: أما بعد فاسمعوا وتعلموا، وافهموا واعملوا، ليل

¹ ابن كثير: البداية والنهاية، مجلد1، مصدر سابق، ص250.

² ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، تح طه عبد الرؤوف سعد، ص64. وديوان الأعشى، ص105. والأعشى، أبو بصير ميمون بن قيس (ت: 7هـ): ديوان الأعشى، تح فوزي عطوي، ط1، بيروت، لبنان، الشركة اللبنانية للكتاب، 1968، ص105.

³ يريد زرقاء اليمامة.

⁴ الديك، احسان: الكاهنة قراءة في مكانتها ولغتها، مرجع سابق، ص3.

⁵ ضيف شوقي: العصر الجاهلي، ص420-421.

⁶ هو كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن مدركة بن الياس بن مضر، يقال إنه أول من قال أما بعد، توفي كعب بن لؤي قبل عام الفيل بخمس وعشرين سنة. ينظر: الروضان، عبد عون: موسوعة شعراء العصر الجاهلي، عمان، دار اسامة للنشر والتوزيع، 2001، ص274.

داج ونهار ساج، والأرض مهاده، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، هل رأيتم من هالك رجع، أو ميت نشر، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم، ويقول¹:

(الطويل)

نَهَارٌ وَلَيْلٌ كُلُّ يَوْمٍ بِحَادِثٍ سَوَاءٌ عَلَيْنَا لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا
يُؤْوِبَانِ بِالْأَحْدَاثِ حَتَّى تَأْوِبَا وَبِالنَّعْمِ الضَّافِي عَلَيْنَا سُبُورُهَا
عَلَى غَفْلَةٍ يَأْتِي التَّبِيُّ مُحَمَّدٍ فَيُخْبِرُ أَخْبَارًا صَدُوقَ خَبِيرِهَا

ويقول أيضا²:

(البسيط)

يَا لَيْتَنِي شَاهِدٌ نَجَوَاءَ دَعْوَتِهِ حِينَ الْعَشِيرَةِ تَبْغِي الْحَقَّ خَذْلَانًا

وهنا يبشر كعب بالنبي (ﷺ) ويتمنى أن يكون موجوداً حين بعثته، حيث ستخذه العشيرة، وتتخلى عنه، وعلى الرغم مما ورد في الكتب القديمة، أنه كان بين موت كعب بن لؤي ومبعث رسول الله (ﷺ) فترة زمنية طويلة³، إلا أنه كان ذا علم ونبوءة كبيرة أخبر من خلالها عن صدق محمد، وكيف سيظهر نوره فجأة ليعم البشرية نوراً وهداية.

6- سواد بن قارب الأزدي⁴:

كان كاهناً في الجاهلية وأدرك الإسلام⁵، وعندما وفد على عمر بن الخطاب، نظر إليه عمر وقال: إن هذا الرجل لعلى شركه ما فارقه بعد، ثم عرف بعد ذلك عن إسلامه، واستغفر عمر رضي الله عنه-، وسأله عمر عن صاحبه في الجاهلية وما جاء به، فرد سواد: أنه قد جاءه قبل

¹ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ص227. وينظر السهيلي: الروض الأنف، ج1، ص52.

² المرزباني، أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى: معجم الشعراء، تح عباس هاني الجراح، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ج2، ص285.

³ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ص227.

⁴ هو سواد بن قارب الدوسي في قول ابن الكلبي، وقال غيره هو سدوسي، ينظر ابن هشام: السيرة النبوية، تح طه عبد الرؤوف سعد، ج1، مصدر سابق، ص194.

⁵ ينظر، شامي يحيى: موسوعة شعراء العرب، ج1، مصدر سابق، ص255.

الإسلام بشهر أو نحوه، وقال: ألم تر إلى الجن وإبلاسها، وإياسها من دينها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها.

قال ابن هشام: هذا سجع وليس بشعر. وفي رواية أخرى أنه سمع صوت هاتف من داخل عجل يصيح: يا ذريح، أمر نجيح، رجل يصيح، ويقول: لا إله إلا الله¹، ومهما يكن مصدر الصوت الهاتف، فقد كانت ثمة أصوات تنطلق من كل حذب وصوب، تنبئ برسالاته النبوية². ومما يروى أيضاً في ذكر هواتف الجن³:

وَشَدَّهَا الْعَيْسُ بِأَحْلَاسِهَا	عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَإِبْلَاسِهَا
مَا مُؤْمِنُو الْجِنِّ كَأَنْجَاسِهَا	تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى

وهذا ما أخبر به العباس بن مرداس⁴ بعد إسلامه حيث كان لأبيه صنم اسمه ضممار، ولما مات أبوه، جاء العباس إلى الصنم، بعد ظهور أمر الرسول (ﷺ) وسمع صوتاً يقول⁵:

(الكامل)

هَلْكَ الْأَنْيَسُ وَعَاشَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ	قُلْ لِلْقَبَائِلِ مِنْ سَلِيمٍ كُلِّهَا
بَعْدَ ابْنِ مَرْيَمَ مِنْ فُرَيْشٍ مُهْتَدِي	إِنَّ الَّذِي وَرِثَ الثُّبُوءَ وَالْهُدَى
قَبْلَ الْكِتَابِ إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	أَوْدَى الضَّمَّارَ وَكَانَ يُعْبَدُ مَرَّةً

هذه القصة تبين العلاقة التي كانت بين الجن والكهان، وكيف كان الجني يخبر من يواليه بما يريد⁶. وأما هتوفهم برسول الله (ﷺ) فهو من الآيات الدالة على نبوته، ومما حكي عن زياد

¹ ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية، تح طه عبد الرؤوف سعد، ص194-195.

² فهد، توفيق: الكهانة العربية قبل الإسلام، مرجع سابق، ص77.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، سابق، ص195.

⁴ هو العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة بن عبد قيس من بني سليم ينتمي إلى قيس بن عيلان بن مضر ويكنى أبا الهيثم، وهو ابن الخنساء الشاعرة، تماضر بنت عمرو بن الشريد. ينظر: المعلمي، يحيى بن عبد الله: عقود الجمان شعر وشعراء، الرياض، دار المعلمي للنشر، 1994، ج1، ص146.

⁵ زيدان، جرجي: تاريخ أداب العربية، ط2، مصر، مطبعة الهلال، 1942/274. وينظر: المعلمي، يحيى بن عبد الله: عقود الجمان شعر وشعراء، سابق، ص146.

⁶ ينظر: صالح، حليلة خالد رشيد: الجن في الشعر الجاهلي، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، 2005، ص155.

عن ابن جريج عن ابن العباس - رضي الله عنهما - أنه كان يحدث عن رجل من خثعم وكانوا ذات ليلة يتقاضون الى صنم لهم، إذ صاح من داخل الصنم صائح يقول¹:

(الرجز)

يَا أَيُّهَا الرِّكْبُ ذُؤُو الْأَحْكَامَ مَا أَنْتُمْ وَطَائِشِ الْأَحْلَامِ
وَمُسْنَدُو الْحُكْمِ إِلَى الْأَصْنَامِ
هَذَا نَبِيُّ سَيِّدِ الْأَنْبَاءِ يَصْدَعُ بِالْحَقِّ وَبِالْإِسْلَامِ
أَعْدِلْ ذِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ
وَيَتَّبِعْ النُّورَ عَلَى الْأَظْلَامِ سَيُعْلَنُ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ
وَقَدْ طَهَّرَ النَّاسَ مِنَ الْآثَامِ

ونخلص القول إلى أن الجن كائنات كانت تعيش في خيال الإنسان، وبتهيأ له أنها تلاحقه أينما ذهب، وترتبط بالخوف والرغبة عندما تذكر، فكل شيء مخيف أو صوت غريب كان متعلقاً بالجن في بادية العرب².

إنَّ القوة الهائلة، التي يتمتع بها الكهان، وقوة تأثيرهم في النفوس جعلت من الرسول (ﷺ) يصرح لخديجة بعدما جاءه جبريل - عليه السلام - "خشيت أن أكون كاهناً"³، وفي روايةٍ أخرى عندما جاءه بأجياد، لمَّا كان يتعبد في غار حراء قبل نزول الوحي، حيث كان الجبل يمثل مصدراً للوحي والإلهام، وإليه لجأ الأنبياء والكهنة، والعرافون واعتكفوا به⁴.

ورُسمت صورة للرسول (ﷺ) في غابر الأزمان في أذهان الكهان، وقد عبر كلٌّ عن هذه الصورة واستحضرها بلغته الخاصة، وربما احتفظ الكهان لأنفسهم - باعتبارهم مجموعة دينية

¹ الماوردي: أعلام النبوة، مصدر سابق، ص146.

² ينظر: صالح، حليلة خالد رشيد: الجن في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص235.

³ ابن سعد: الطبقات الكبرى، مصدر سابق، ص194-195.

⁴ الديك، احسان: الوعل صدى تموز في الشعر الجاهلي، مجلة جامعة القدس المفتوحة، ع3، 2003، ص47.

- بلغة منتخبة مخصصة لأغراضهم الدينية¹ لكنها بمجملها تؤكد أنّ العرب كانوا على أبواب مرحلة جديدة لاستقبال الرسالة المحمدية.

¹ الديك، إحسان: الكاهنة الجاهلية: قراءة في مكانتها ولغتها، مرجع سابق، ص16.

الفصل الثاني

صورة الرسول (ﷺ) في الشعر بعد الإسلام

المبحث الأول: صورته عند المسلمين.

المبحث الثاني: صورته عند الأعداء.

الفصل الثاني

صورة الرسول (ﷺ) في الشعر بعد الإسلام

تقديم:

أحدث الدين الجديد تغييراً كبيراً على الشعر في صدر الإسلام. فقد استبعدت أغراض شعرية كالهجاء وظهرت أخرى مثل شعر الفتوحات، وكان للمكانة الكبيرة التي فرضها الرسول (ﷺ) في قلوب المسلمين أثر كبير في التغني بمناقبه وسماته في الشعر العربي عامة، وصدر الإسلام خاصة¹.

ولما كان الشعر مرآة لذلك العصر، وتصويراً للأحداث والمناسبات بكل دقة وتفصيل؛ نجده في حياة الرسول (ﷺ) يجري على كل لسان²، فهذا أبو زيد القرشي يقول: "لم يبق أحد من أصحاب رسول الله إلا وقد قال الشعر وتمثل به"³. فهناك الكثير من المسلمين الذين عبروا عن حبهم وولائهم لهذا النبي من خلال قصائد أو مقطوعات قصيرة، كانت بمثابة توثيق وشهادات حية على الفترة الزمنية التي عايشها الرسول (ﷺ) بدءاً من ولادته وحتى بعد وفاته. ولهذا فقد عملت الباحثة على جمع أكبر قدر ممكن من الشعر الذي قيل في الرسول (ﷺ) في تلك الفترة للوقوف على صورته عند الشعراء. ومهما اختلف الشعراء في رسم صورته (ﷺ) من شخص لآخر وتفاوتت أساليبهم ومناهجهم، ستبقى أشعارهم ذات دلالة، وصورة حية معبرة عن حقبة زمنية غيرت مجرى التاريخ، وعن رسول كريم أضاء حياة العرب بعد أن غرقوا في ظلمات الجهل لسنوات طوال. وقد تكشف لنا هذه الأشعار عن زوايا مظلمة لم نتوصل إليها بعد في حياة الرسول (ﷺ)، وعن عمق المشاعر والانفعالات لدى شعراء ذلك العصر.

¹ دهش، عقيل جاسم: البعد الإنساني لشخصية الرسول الأعظم في شعر حسان بن ثابت، عدد 30، مركز دراسات الكوفة 2013، ص 31.

² ضيف، شوقي: العصر الإسلامي، ط 7، 1963، ص 53.

³ أبو زيد القرشي، أحمد بن أبي الخطاب (ت: 165هـ): جمهرة أشعار العرب، ج 1، 1963 م، ص 162.

فكيف بدت صورته (□) عند المسلمين وغير المسلمين؟ وهل تشابهت صورته بعد الإسلام مع الصورة التي رُسمت له قبل الإسلام؟

هذا سيكون مدار البحث في الصفحات القادمة، حيث سأعرض بدايةً لصورة الرسول (□) عند المسلمين. وسأقف على أكثر الصور تكراراً في الشعر.

أولاً: صورته عند المسلمين:

ارتبطت صورة الرسول (□) قبل الإسلام بكثير من القيم الأخلاقية كالسيادة والكرم والشجاعة والأمانة وغيرها، وكان الشعراء ينظمون أشعارهم بالصورة الجاهلية حتى دخلوا في الإسلام، فقد نظموا أشعارهم متأثرين بالقرآن الكريم والدين الجديد¹، وحاولوا من خلال هذا الشعر أن يُبرزوا صورة الرسول، ويؤكدوا على كمال صفاته المعنوية والمادية.

فما هي أبرز الصور التي أوردتها الشعراء للرسول (□)؟ وفي أي غرض شعري جاءت هذه الصورة؟ وهل اختلفت الصورة بين شاعر وآخر وما مدى تأثيرهم بها؟

أولاً: صورة القائد الشجاع:

هذه الصفة العظيمة امتّاز بها سيد المرسلين محمد (□)، ظهرت بوادرها منذ نعومة أظفاره، حيث كان لتنشئته في البادية الأثر الكبير في صقل معالم هذه الشخصية العظيمة. لما تفرّضه تلك الطبيعة الصحراوية القاسية على الإنسان من القدرة على التحمل وزرع الثقة والقوة في نفوس أبنائها.

إنّ محمداً (□) توزع بين شجاعتين: شجاعة ورثها عن آبائه وأجداده، وقد كانوا من صناديد العرب ورجالاتها، ومن ذوي النجدة والبأس والإقدام، وأخرى اكتسبها من تفانيه في الله،

¹ ينظر: الصمد، واضح: أدب صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الحمرا، ط1، 1994، ص80.

وشوقه إلى لقاءه وقيادته لجمع من المؤمنين، ممن يتبارون للقاء الله، ويتلذذون باقتحام ميادين القتال للفوز بإحدى الحسينيين: النصر أو الشهادة¹.

كما أنه () يذكر قصته مع أعمامه في الجاهلية، في طفولته، وكيف كان يرد عنهم النبل ويقول "كنت أنبل على أعمامي أي أردّ عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها"².

وكان لتعبده بغار حراء أيضاً، قبل البعثة الشريفة، من العظمة والقوة في نفسه، فقد حُبب إليه الخلاء، وكان يتخلى بغار حراء من ذوات العدد والليالي وقيل (شهرًا) في السنة³.

لكن كيف عبر الشعراء عن قائدهم وشجاعته، وكيف انعكست شجاعة هذا القائد على جنده؟

يقول حسان بن ثابت⁴ - رضي الله عنه - يصف جيش المسلمين يتقدمهم الرسول ()⁵:

(البسيط)

مُسْتَشْعِرِي حَلَقِ الْمَآذِي يَقْدُمُهُمْ جَلْدُ النَّحِيْزَةِ مَاضٍ غَيْرُ رَعْدِيْدٍ⁶
مَاضٍ عَلَى الْهَوْلِ رَغَابٌ لَمَّا قَطَعُوا إِذِ الْكُمَاةُ تَحَامَوْا فِي الصَّنَادِيْدِ⁷

يصف حسان - رضي الله عنه - جيش المسلمين وهم يلبسون الدروع البيضاء يتقدمهم القائد الشجاع محمد رسول الله () الذي لا يهاب ولا يخشى شيئاً إلا الله، هذا القائد ضرب لهم المثل الأعلى في الشجاعة بتقدمه ومبارته أولاً، فهو ماضٍ في إقدامه وجراته، لا يخاف في أشدّ

¹ دهش، عقيل جاسم: البعد الانساني لشخصية الرسول الأعظم في شعر حسان بن ثابت، ص34.

² السهيلي: الروض الأنف، مصدر سابق، ج1، ص319. وابن هشام: السيرة النبوية، تح طه عبد الرؤف سعد، ج1، ص170.

³ الماوردي: أعلام النبوة، مصدر سابق، ص223.

⁴ حسان بن ثابت الأنصاري بن المنذر أحد المخضرمين الذين عاشوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام، مدح الرسول () والصحابه والخلفاء وما زال إلى أن استأثر الله به سنة 50هـ. يُنظر: الزركلي: الأعلام، مجلد 2، ص175. والبرقوقي، عبد الرحمن: شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، المكتبة التجارية، مصر، ص9

⁵ البرقوقي، عبد الرحمن: شرح ديوان حسان بن ثابت، ص80-81.

⁶ حلق المآذي: يلبسون الدروع، جلد: قوي. - النحيزة: الطبيعة، غير رعيدي: غير جبان.

⁷ الكماة: جمع كمي وهو الشجاع، الصناديد: الشجعان.

المواقف ولا يحتمي بغير السلاح ويشهد الغارات والحروب المملوءة بالأبطال والخيال والجياد، والأسلحة المرهفة، يتقدم بشجاعة وحماسة نحو الأعداء¹. كما يذكره حسان - رضي الله عنه - في موضع آخر، وفيه يرد على عبد الله بن الزعري عندما بكى أهل بدر²:

(الكامل)

وَذَكَرْتَ مِنَّا مَاجِدًا ذَا هِمَّةٍ سَمَحَ الْخَلَائِقِ مَاجِدَ الْإِقْدَامِ
أَعْنِي النَّبِيَّ أَخَا التَّكْرُمِ وَالنَّدَى وَأَبْرَ مَنْ يُوَلِّي عَلَى الْأَقْسَامِ³

فَمِنْ صُورِ الشَّجَاعَةِ، الْإِقْدَامِ عَلَى الْقِتَالِ فِي حُبِّ الْمَوْتِ أَوْ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ⁴. وهو إذا حلف أبر بقسمه، وهذا دليل آخر على مكارم الأخلاق التي تحلى بها الرسول (ﷺ).

أما كعب بن مالك⁵ فيذكر بدرًا، ويذكر القائد الذي بثَّ روح النصر والغلبة في نفوس جنده المؤمنين فيقول⁶:

(الكامل)

وَبِئْرٍ بَدْرٍ إِذْ يَرْدُ وَجُوهَهُمْ جَبْرِيلُ تَحْتَ لَوَائِنَا وَمُحَمَّدٌ⁷

فهو يذكر إقدام الرسول (ﷺ) ورفع راية الحق والتوحيد، وقد أكرمهم الله بالنصر وأنزل معهم ملائكته وعلى رأسهم جبريل ملك الوحي عليه السلام قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُّمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ٩ ﴾⁸.

¹ مقداد، عبد الله جبريل: شعر يهود في الجاهلية وصدر الاسلام، (د.ط)، عمان، دار عمار، 1999، ص149.

² حسان بن ثابت: الديوان، ص385.

³ يولي: يحلف.

⁴ مقداد، عبد الله جبريل: شعر يهود في الجاهلية وصدر الاسلام، مرجع سابق، ص149.

⁵ كعب بن مالك بن عمرو الأنصاري السلمي (بفتح السين واللام)، الخزرجي، صحابي من أكابر الشعراء من أهل المدينة واشتهر في الجاهلية وكان في الاسلام من شعراء النبي (ﷺ) وشهد أكثر الوقائع (...50 هـ = ...670م). ينظر: الزركلي: الأعلام، مج5، ص288.

⁶ الأنصاري، كعب بن مالك: الديوان، تح مجيد طراد، بيروت، دار صادر، 1997، ص37.

⁷ جبريل: الملاك جبريل، ناقل الوحي

⁸ سورة الأنفال، آية 9.

وكعب بن مالك لا يتوقف عن مدح الرسول (ﷺ) وشجاعته وتصويرها أمام الأعداء ليؤكد لهم أن أحد مظاهر هذه الشجاعة: قوة الرسول القائد وصلابته فيقول¹:

(الوافر)

رئيسهم النَّبِيُّ وَكَانَ صُلْبًا نَقِيَّ الْقَلْبِ مُصْطَبِرًا عَزُوفًا²

إضافة إلى أنه القائد بما يتحلى به من القوة والشدة، فإنه يجمع إلى ذلك صفات أخرى منها طهارة القلب ونقاء السريرة. وقد كان (ﷺ) يتعوذ من الجبن، الذي هو ضد الشجاعة والإقدام، وكان يقول دبر كل صلاة "اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر"³.

ويصف كعب الرسول (ﷺ) بذى الهمة والعزيمة المرتفعة التي لا يحول بينها وبين مرادها ومبتغاها أي شيء، ولا شيء يُثني هذا القائد العظيم عن الوصول لأهدافه فيقول⁴:

(البسيط)

نَجْدُ الْمَقْدَمِ مَاضِي الْهَمِّ مُعْتَزِمٌ حِينَ الْقُلُوبِ عَلَى رَجْفٍ مِنَ الرَّعْبِ⁵

فالرعب لم يعرف طريقه إلى قلب رسولنا الكريم، فتوكله على الله دائم، واستشعاره بمراقبته له وطمأنينته دائماً تسكن قلبه. ولهذا مدحه رفيقه أبو بكر⁶ وهما يختبئان في غار حراء من قريش ورجالاتها بقوله⁷:

¹ كعب بن مالك: الديوان، ص68.

² العزوف: عفيف القلب واللسان.

³ الإمام مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، ج2، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1977م، ص476-477.

⁴ كعب بن مالك: الديوان، مصدر سابق، ص25.

⁵ النجد: العالي المرتفع، ونجد المقدم كناية عن الشجاعة، الهمم: الهمة والعزيمة، الرجف: الاضطراب والارتجاف، الرعب: الخوف.

⁶ أبو بكر الصديق (51ق.هـ-13هـ=573-634م) هو عبد الله بن عثمان بن عامر القرشي، خليفة رسول الله، رافقه في الهجرة وفي الغار، ومناقبه كثيرة جداً، توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة. ينظر: ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج2، ص341.

⁷ أبو بكر الصديق: الديوان، تح راجي الأسمر، ط1، بيروت، دار صادر، 1997، ص53-54. وابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص183.

(البسيط)

قَالَ النَّبِيُّ وَلَمْ أَجْزَعْ يُوقِرْنِي وَنَحْنُ فِي سُدْفَةٍ مِنْ ظُلْمَةِ الْغَارِ¹
لَا تَخْشَ شَيْئًا (فَإِنَّ اللَّهَ ثَالِثُنَا) وَقَدْ تَوَكَّلْنَا مِنْهُ بِإِظْهَارِ²

وهذا مذكور في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَتَصَرَّوْهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾³.

فهو خير البرية، وخير خلق الله، وهو مفرّج للعالمين، وقدوة للتابعين، لا تأخذه في الله لومة لائم. وقد عبّر مالك بن نمط⁴ عن شجاعة الرسول (ﷺ) ووصفه بالسيف قائلاً⁵:

(الطويل)

فَمَا حَمَلَتْ نَاقَةً فَوْقَ رَحْلِهَا أَشَدَّ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ مُحَمَّدٍ
وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ الْعُرْفِ جَاءَهُ وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرِفِي الْمُهَنْدِ⁶

الشاعر يمتدح شجاعة الرسول (ﷺ) وينفي أن تكون هناك ناقة قد حملت على ظهرها من هو أشدّ من محمد (ﷺ) على الأعداء، ويستخدم اسم التفضيل (أَمْضَى) ليدلل على هذه القوة من خلال تصويره الرسول بالسيف القاطع البتار.

¹ لم أجزع: لم أصبر، وقر: جَلَل، السدفة: الظلمة.

² لا تخش: لا تخف، إن الله ثالثنا: هذا رد الرسول (ﷺ) على أبي بكر حين قال: "لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا" فقال: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما".

³ سورة التوبة، آية 40.

⁴ مالك بن نمط بن قيس الهمداني الأرحبي، أبو ثور، صحابي، شاعر من رؤساء همدان، استعمله النبي (ﷺ) على من أسلم من قومه (سنة 9هـ) كان يلقب بذي المشعار (د.ت)، ينظر الزركلي: الأعلام، مج 5، ص 267.

⁵ ابن هشام: السيرة النبوية، ص 5.

⁶ المشرفي: سيف يجلب من المشارف يُنسب إليها. المهند: السيف المصنوع من حديد بلاد الهند.

وتحدث عن هذه الصورة كعب بن زهير¹ حين مدح الرسول (ﷺ) في لاميته ووصفه أيضاً بالسيف قائلاً²:

(البسيط)

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنْدٌ مِنْ سَيْوفِ اللَّهِ مَسْلُورٌ

فالسيف رمز للبطولة، وشعار للفروسية، وأكثر ما يشبه بالسيف عند العرب الإنسان، من حيث شجاعته وقوته وبسالته، وكثير من الصفات التي حمدوها في السيف ألبسوها بمدوحهم الإنسان³.

أما علي بن أبي طالب فلم يكتفِ بصفات الشدة والصلابة كما ذكرت عند الشعراء السابقين، بل صورهُ بالليث الذي يدافع عن عرينه بكل ما أُوتي من قوة وجلد فيقول⁴:

(الطويل)

جَوَادٌ تَشْطَى الْخَيْلُ عَنْهُ كَأَنَّمَا يَرِينُ بِهِ لَيْثًا عَلَيْهِنَّ ضَارِيَا
مَنْ الْأَسَدُ قَدْ أَحْمَى الْعَرِينَ مَهَابَةً تَفَادَى سَبَاعُ الْأَرْضِ مِنْهُ تَفَادِيَا
شَدِيدٌ جَرِيءُ النَّفْسِ نَهْدٌ مُصْدِرٌ هُوَ الْمَوْتُ مَغْدُوٌّ عَلَيْهِ وَغَادِيَا

يقول علي - رضي الله عنه - إن هذا الفارس الجواد تفرقت الخيول عنه وابتعدت وكأنها رأت فيه الليث الضاري، هذا الأسد قد زاد عن مملكته وقد زرع الرعب في قلوب الأعداء ونتيجة لذلك فإن سباع الأرض تتحاشاه وتبتعد عن طريقه. إذن هي صورة القائد العظيم مرتبطة برمز الليث الضاري والجامع بينهما صفة الشجاعة والقوة.

¹ هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، شاعر مخضرم، من أهل نجد عالي الطبقة وقد أنشد الرسول (ﷺ) لاميته المشهورة ومطلعها "بانئت سعاد" ودافع عن الرسول (ﷺ) بشعره، وله ديوان شعر، ولا يعرف له تاريخ ميلاد، توفي عام 26هـ/645 م، يُنظر، الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج 5، ص266.

² كعب بن زهير: الديوان، رواية أبي سعيد السكري، بيروت، دار الفكر للجميع، 1968، ص22.

³ علي، أسامة عبد الحكيم: دراسة تاريخية للسيف عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، التربية، الإمارات، ع83، 1999، ص32.

⁴ علي بن أبي طالب: الديوان، جمع وترتيب عبد العزيز مكرم، ط1، 1988م، ص216.

وبرزت صورة الليث مرةً أخرى عند مالك بن عوف¹ إذ يقول²:

(الطويل)

وَإِذَا الْكَتِيبَةُ عَرَدَتْ أَنْيَابَهَا بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرَبَ كُلُّ مُهَيَّئٍ³
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ وَسَطَ الْهَبَاءَةِ خَادِرٌ فِي مَرَصِدِ

صورة حية رسمها الشعراء المسلمون للرسول القائد وسط المعركة وهو يذود عن الصحابة، ويرد عنهم كل ما يؤذيهم، فكأنما هو الأسد الذي تحتمي به أشباله الصغار. وكذلك هم صورة الجند عندما يتوسطهم الرسول محمد (ﷺ) في المعارك والحروب. لكن هناك تساؤلاً يدور في ذهن الباحثة، وهو لماذا وصف الشاعر الأسد بالخادر في البيت السابق؟ ومن المعروف أن الخدر للمرأة، فما هي العلاقة التي ربطت الأسد الخادر بالمرأة؟ هذه اللفظة (الخادر) ارتبطت مع امرئ القيس، فقد سبق العرب بأشياء ابتدعها واستحسنتها العرب، ومن ثم اتبعه الشعراء فيها. يقول امرؤ القيس⁴:

(الطويل)

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخَدَرَ خَدَرَ عُنِيْزَةٍ قَالَتْ لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي

يبدو من المغزى الذي أراده الشاعر بوصفه الأسد بالخادر؛ أنه أراد أن يقول لنا أن هذا الأسد لا يستطيع أحد أن يقترب من عرينه، كما هو الحال مع المرأة المخدرة التي لا يقرب دارها مريب؟ ويمكن أيضاً إنه لا يعتدي على أحد، وإنما يدافع عن عرينه ويقاوم من يهاجمه وهو رابض فيه.

¹ مالك بن عوف بن سعد الأنصاري، صحابي، وشاعر، كان ذا منزلة عالية في قومه، وكان رئيساً للمشرّكين يوم حنين، قبل أن يُسلم، شهد القادسية، وفتح دمشق (ت: 20هـ): يُنظر: الزركلي: الأعلام، ج5، ص264.

² ابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص134. والمرزباني: معجم الشعراء، ج1، ص322.

³ السمهري: الرمح الصليب العود.

⁴ الزبيدي، محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، (1205هـ)، تح أحمد فراج وآخرون، ط1، الكويت، ج1، 1965، ص140، مادة (خدر) وامرؤ القيس: الديوان، تح محمد ابو الفضل ابراهيم، ط2، دار المعارف، 1964، ص11.

وقد رُوي عن شجاعة الرسول قول أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس"¹ كانت تلك صور رسمها شعراء رجال للرسول (ﷺ) وقت الشدائد والحروب، لكن ماذا عن النساء، هل ظهرت هذه الصفة للرسول (ﷺ) في أشعارهن؟ وكيف عبرت النساء عن شجاعته (ﷺ) في صدر الإسلام؟

تقول عاتكة بنت عبد المطلب² واصفةً شجاعة الرسول وإقدامه يوم بدر³:

(الطويل)

أَلَا بِأَبِي يَوْمَ اللَّقَاءِ مُحَمَّدًا	إِذَا عَضَّ مِنْ عَوْنِ الْحُرُوبِ الْغَوَارِبِ ⁴
مَرَى السُّيُوفِ الْمُرْهَفَاتِ نَفُوسَكُمْ	كَفَاحًا كَمَا تُمَرِّي السَّحَابَ الْجَنَائِبِ ⁵
فَكَمْ بَرَدَتْ أَسْيَافُهُ مِنْ مَلِيلَةٍ	وَزَعَزَعَ وَرْدَ بَعْدَ ذَلِكَ صَالِبِ ⁶

تصف الشاعرة شجاعة الرسول (ﷺ) في الحرب، فالرسول والمسلمون يقاتلون بالسيوف مواجهة لأنهم لا يهابون الموت، فإما النصر وإما الشهادة، وهنا تأتي على وصف القوم من المشركين والكفار ومحالٌّ بهم من هزيمة وسكون وثائرة⁷. والشاعرة بذلك تشترك مع مالك بن نمط بتصوير الرسول مرةً أخرى بالسيف القاطع، فقد استدرَّ بسيفه نفوس المشركين كما تستدر الخيول التي لا تتركب، المطر النازل عليها. وتنتقل بعد ذلك لتصور قتلى القلبيب ومافعله ذلك الفارس المغوار عليه أفضل الصلاة والسلام هو وجيشه المقدام بهم فتقول⁸:

¹ صحيح مسلم، ج2، مصدر سابق، ص321.

² عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم، شاعرة لها ديوان في الحماسة، وهي من عمات الرسول "ص" تأخرت في إسلامها والثابت أنها كانت يوم وقعة بدر (2هـ/624م) بمكة ينظر الزركلي: الأعلام، مج 3، ص242.

³ مقابلة، زايد: عمات الرسول (ﷺ)، الأردن، عمان، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، 2008م، ص156.

⁴ الحرب العوان: التي قُوتل فيها مرة بعد مرة.

والغوارب: جمع غارب وهو أعلى كل شيء.

⁵ المرهفات: جمع مرهف وهو السيف الذي رقت حواشيه، كفاحاً: مواجهة، ليس بينهما حجاب، تمرى: تستدر، الجنائب: جمع جنيبة وهي الفرس التي تُقاد ولا تتركب.

⁶ المليلة: الحر الكامن في الجسد والحمى، والورد: اسم من أسماء الخمس أو يومها إذا أخذت صاحبها لوقت، والزعازع: الشدائد، وصالب: صليت الحمى اشتدت وطالت.

⁷ ينظر: مقابلة، زايد: عمات الرسول (ﷺ)، مرجع سابق، ص140.

⁸ مقابلة، زايد: عمات الرسول (ﷺ)، مرجع سابق، ص156.

(الطويل)

لَدَى ابْنِ أَخِي أَسْرَى لَهُ مَا يَضَارِبُ
مَنْ اللَّهَ حِينَ سَاقَ وَالْحِينَ حَالِبُ
بَنُو عَمِهِ وَالْحَرْبُ فِيهَا التَّجَارِبُ
الْجَبَانُ وَتَبْدُو بِاللَّهَارِ الْكَوَاعِبُ

فَمَا بَالُ قَتْلَى فِي الْقَلِيبِ وَمِثْلِهِمْ
فَكَانُوا نِسَاءً أَمْ أَتَى لِنَفْسِهِمْ
فَكَيْفَ رَأَى عِنْدَ اللَّقَاءِ مُحَمَّدًا
أَلَمْ يَغْشَكُمْ ضَرْبًا يَحَارُ لَوْقَعِهِ

لقد أتت عاتكة على ذكر قتلى القليب، وتشبيهه المشركين بالنساء، جاء الحين لنفوسهم فأهلكها ثم تأتي ثانية على شجاعة الرسول (ﷺ) وتتساءل كيف رآه بنو عمه، وكيف كان الرسول (ﷺ) والمسلمون يقاتلون المشركين ويضربونهم ضرباً يحار فيه الجبان، ولِدقة براعتها في رسم هذه الصورة العظيمة لهذا القائد العظيم، فإنها تذكر أن نجوم الليل وكواكبه قد ظهرت لهم في وضح النهار كناية عن قوة وشجاعة هذا القائد وجيشه¹. إن الصورة التي رسمها الشعراء للرسول وشجاعته مستمدة من الطبيعة ومظاهرها، فتصوير الرسول (ﷺ) بالأسد الضاري تارة وبالسيف الباتر تارة أخرى؛ لهو التحام كبير بهذه الطبيعة وماحولها. وقد رأينا كيف استحوذت صورة الأسد على منزلة كبيرة من حيث التردد والحضور. هذا الحيوان يُشكل رمزاً لمجموعة من القيم الاجتماعية والنفسية، فإذا كان لهذا الليث القدرة الكبيرة على حماية مملكته، فكيف بنا بالقائد المصطفى مع جيشه؟ فلا عجب إن صوره الشعراء بالأسد في شدته وبأسه ومنعته.

كانت هذه بعض الصور التي رسمها الشعراء لقائد مسيرتهم المصطفى (ﷺ)، حاولوا ما استطاعوا أن يكون الرسول القائد قدوتهم ومثلهم الأعلى في الشجاعة والإقدام والتضحية في سبيل الله من خلال استحضار المعارك والسيوف الباترة، ومن خلال تصوير الرسول (ﷺ) بالأسد الخادر بين أشباله، استعداداً للنزول للمصاولة والقتال، وأرى بأنهم قد وفقوا في رسم كثير من ملامح هذه الصورة .

¹ ينظر: مقابلة، زايد: عمات الرسول (ﷺ)، مرجع سابق، ص140-141.

ثانياً : صورة الكريم:

صفة ثانية تميّز بها سيد المرسلين، صفة قديمة حديثة، تجلت في أخلاقه وفي صفاته (□)، وورثها عن آبائه وأجداده ومدحه سبحانه في كتابه قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾¹.

وقد أودع الله هذه الخصلة في نفس النبي الكريم، فكان نعم القدوة والمثل الأعلى في البذل والعطاء. فكان بكرمه المفرط، وسخائه الدائم مدرسة تعلم منها المسلمون الأوائل كيف يكون البذل في سبيل الله وكيف يشتررون آخرتهم بدنياهم، وهذا الرسول (□) قد خيّر من قبل فاختر الآخرة، لكن ما هي الصورة التي ظهرت له عند الشعراء؟ وكيف تناولوها في أشعارهم؟

كانت صورة الرسول الكريم قد اتخذت مسارين، الأول الكرم المادي والآخر الكرم المعنوي، وكلاهما كانا في حياة الرسول (□) جنباً إلى جنب، فقد كان (□) ينفق المال في سبيل الله وتأليفاً على الإسلام و تشريعاً لأُمتِه، وكان جوده وكرمه سبباً في إسلام كثير من المشركين، فقد كان يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وما رواه أنس - رضي الله عنه - يؤكد ذلك حيث قال "ما سأل رسول الله (□) شيئاً إلا أعطاه على الإسلام، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: "يا قوم أسلموا، فإن محمداً يُعطي عطاء من لا يخشى الفاقة"².

وكان (□) يمضي عليه الشهر والشهران ولا يُوقد في بيته نار، وبالرغم من شدة حاجته إلا أنه كان دائم العطاء كما ورد عن ابن عباس - رضي الله عنه - "كان رسول الله أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان"³.

لهذا كان شعراء صدر الإسلام قد أتوا على صورته في الكرم في حياته، وحتى بعد وفاته في أشعارهم - فمما ذكره حسان رضي الله عنه - وامتدح به الرسول في حياته قوله⁴:

¹ سورة الحاقة: آية 40.

² صحيح مسلم: ج1، ص324.

³ المرجع السابق، ص321.

⁴ حسان بن ثابت: الديوان، ص385.

(الكامل)

أَعْنِي النَّبِيَّ أَخَا التَّكْرُمِ وَالنَّدَى وَأَبْرَّ مَنْ يُؤْلِي عَلَى الْأَفْسَامِ

حسان يخص الرسول () بهذا المدح، ولا أحد يستحق هذا المدح سواه ()
ولذلك يأتي حسان بقصيدة أخرى ليؤكد على هذه الخصلة ويقول¹:

(البسيط)

أَعْنِي الرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُ عَلَى الْبَرِيَّةِ بِالتَّقْوَى وَبِالْجُودِ

حسان يبين منزلة الرسول () ومكانته عند الله، فقد ارتفعت وعلت هذه المنزلة بسبب تقواه وكرمه، لأنه ينفق في سبيل الله، ولأجل مرضاته، لا رياءً أو مباهاةً، أو طلباً لمركزٍ أو شهرةٍ فهو قدوة المسلمين ومعلمهم. وهذا ما عبر عنه مالك بن عوف²، فبعد أن ردَّ الرسول () صبايا هوازن، يسأل عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقال قومه: هو بالطائف مع ثقيف، فقال الرسول () أخبروا مالكا إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل، فلما جاء بالغ في إكرامه، وردَّ عليه أهله وماله وأسلم مالك وقال³:

(الكامل)

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتَدَى وَمَتَى تَشَأْ يُخْبِرَكَ عَمَّا فِي غَدٍ⁴

هذه الصفة (الكريم) جعلت مالكا بن عوف يقع في حيرة من أمره، ويقف أمام عظمة الرسول () مشدوهاً، فهو لم يسمع عن شخص بهذا الشرف الرفيع من الخلق، ولم يكن في عصره وما داني طرفيه من قاريه في فضله، ولا داناؤه في كماله خلقاً وخلقاً⁵.

¹ حسان بن ثابت: الديوان، ص 80.

² هو مالك بن عوف بن سعد الأنصاري، صحابي وشاعر، كان ذا منزلة عالية في قومه، كان رئيساً للمشركون يوم حنين، قبل أن يسلم، شهد القادسية، وفتح دمشق (ت: 20هـ). ينظر الزركلي: الأعلام، ج 5، ص 264.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ج 4، ص 134.

⁴ اجتدى: طلب منه الجدوى أي العطية.

⁵ الماوردي: أعلام النبوة، مصدر سابق، ص 201.

ولعلَّ كرم الرسول (ﷺ) وعطاءه هو ما شجَّع زهير بن صرد الجشمي¹ لأن يطلب العفو والكرم من الرسول (ﷺ) يوم حنين عن طريق تذكيره برضاعته في بني سعد، ويستعطفه بقوله²:

(البسيط)

أَمْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا	إِذْ فُوكَ يَمْلُؤُهُ مِنْ مَحَضِّهَا الدَّرَر
أَمْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا	وَإِذْ يَزِينُكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَذُر
أَمْنُنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي كَرَمٍ	فَإِنَّكَ الْمَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَنْتَظِر

إنَّ تذكير الجشمي للرسول (ﷺ) بفترة حضانتته ورضاعته في البادية، واستعطفه كرمه، كل ذلك لينقذ قومه من الأسر، فما كان من الرسول (ﷺ) إلا أن قال "ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وكذلك قالت قريش والأنصار"³. وهكذا فقد كان كرم الرسول سبباً في عودة السبايا من هوازن والغنائم لأصحابها، فعادت فواضله عليهم قديماً وحديثاً، وقد تأثر الصحابة بكرم الرسول (ﷺ) وتنازلوا عن حقهم أيضاً.

أما مالك بن نمط⁴ فقد وضَّح عطاء الرسول (ﷺ) الذي لا يدانيه أحد فقال⁵:

(الطويل)

وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ الْعُرْفِ جَاءَهُ
وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرِفِي الْمُهَنْدِ

إنَّ كرم الرسول (ﷺ) مشهودٌ له ليس فقط عند مالك بن نمط، فهو الكريم قبل بعثته وبعدها، ومما ورد في صحيح مسلم قول خديجة - رضي الله عنها - عندما أتاه الملك جبريل عليه

¹ زهير بن صرد الجشمي: أبو صرد الجشمي السعدي من بني سعد بن بكر ويكنى أبا جرول، كان زهير رئيس قومه وقدم على رسول الله في وفد هوازن (د.ت). يُنظر: الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (260-360هـ): المعجم الكبير، ط2، (د.م)، دار إحياء التراث العربي، ج5، ص270.

² البهقي: دلائل النبوة، ج5، ص194. وابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص153. وابن كثير: البداية والنهاية، مج2، ج3، ص363.

³ البهقي: دلائل النبوة، ج5، ص194. وابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص153.

⁴ مالك بن نمط بن قيس الهمداني الأرحبي، أبو ثور، صحابي وشاعر، من رؤساء همدان، استعمله النبي (ﷺ) على من أسلم من قومه سنة (ت: 9هـ) كان يُلقب بذي المشعار (د.ت). يُنظر: الزركلي: الأعلام، مج5، ص267.

⁵ ابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص246.

السلام أول مرة "إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف"¹. فكرمه (□) يشمل القريب والبعيد، الفقير والغني، وهذا العباس بن مرداس²، يطمع في كرم الرسول (□) ولا يقبل أن يُفضل عليه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس في العطاء فيقول³:

(المتقارب)

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِيدِ	بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَالْأَقْرَعِ
وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ ذَا قُدْرَةٍ	فَلَمْ أُعْطَ شَيْئًا وَلَمْ أَمْنَعِ
وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَابِسٌ	يَفُوقَانِ مِرْدَاسٍ فِي مَجْمَعِ

فما كان من الرسول (□) إلا أن قال " اذهبوا واقطعوا لسانه، فزادوه حتى رضي"⁴.

وهذه القصة توضح صورة الكرم عند الرسول (□) في تأليف القلوب، ولهذا فقد اتسمت الصورة بمعانٍ إسلامية تختلف كلياً عما كانت في الجاهلية، لأنها اتخذت من القرآن الكريم تشريعاً ودستوراً لها " قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾"⁵، وكذلك من سنة الرسول العطرة الدافع الأول للبذل والعطاء . ويأتي محمد ابن بشر بن معاوية⁶ - رضي الله عنه - على كرم الرسول (□) البالغ معهم، ويمتدحه فيقول⁷:

¹ صحيح مسلم، ج 1، ص79.

² العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة بن عبد بن قيس بن سليم، ويكنى أبا الهيثم، وهو ابن الخنساء الشاعرة، كان فارساً وسيداً في قومه وقد أدرك الإسلام، ووفد على رسول الله (□) وحسن إسلامه وروى الحديث. ينظر: المعلمي، يحيى بن عبد الله: عقود الجمان شعر وشعراء، (د.ط)، الرياض، دار المعلمي للنشر والتوزيع، ج1، 1994م.

³ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص359. والواقدي: المغازي، مصدر سابق، ج3، ص947. والمعلمي: عقود الجمان، ص146.

⁴ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج2، ص359. والواقدي: المغازي، مصدر سابق، ج3، ص946-947.

⁵ آل عمران، آية 92.

⁶ محمد بن بشر بن معاوية بن ثور البكائي، من بني كلاب بن صعصعة، يُعد في أهل الحجاز قدم هو وأبوه على الرسول (□) وافدين فدعا لهم بالبركة وأعطاهم أعزاً. ينظر ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، مج6، ص146.

⁷ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، مج 6، ص146. والسيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: الخصائص الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية، ج2، 1985، ص44.

(الكامل)

وَدَعَا لَهُ بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَاتِ
عُفْرًا تَوَاجِلُ¹ لِسَنَ الْجُبَاتِ
وَيَعُودُ ذَاكَ الْمَلءُ بِالْغَدَوَاتِ
وَعَلَيْهِ مِنِّي مَا بَقِيَتْ صَلَاتِي

وَأَبِي الَّذِي مَسَحَ النَّبِيَّ بِرَأْسِهِ
أَعْطَاهُ أَحْمَدُ إِذْ أَتَاهُ أَعْنَزًا
يَمْلَأُنْ رِفْدَ الْحَيِّ كُلَّ عَشِيَّةٍ
بُورِكُنْ مِنْ مَنَحٍ وَبُورِكُ مَانِحٍ

هذا العطاء المبارك من سيد الخلق المبارك، كان له وقعه في نفس محمد بن بشر، فجاءت أبياته صادقة معبرة عن كرم الرسول (ﷺ) فكان صاحب حظوة، إذ نال من كرم الرسول المعنوي بأن مسح على رأسه ودعا له بالخير والبركة، وكذلك أعطاهم أعنزاً تغدو شباعاً في أثناء عودتها. فكان نعم الكرم المادي من خير خلق الله (ﷺ). أما الصورة عند طالب بن أبي طالب²، فكانت أوسع وأبلغ بكثير من الشعراء السابقين، فقد صور الرسول (ﷺ) بالبحر الواسع العطاء فقال³:

(الطويل)

سَوَى أَنْ حَمِيْنَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ التُّرْبَا
كَرِيْمًا نَشَاهُ لَا بَخِيْلًا وَلَا ذَرْبَا
يُؤْمُونُ بَحْرًا لَا نَزُورًا وَلَا صَرْبًا⁴

فَمَا إِنْ جَنَيْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيْمَةٍ
أَخَا ثِقَةٍ فِي النَّائِبَاتِ مُرْزَعًا
يُطِيفُ بِهِ الْعَافُونَ يَغْشُونَ بَابَهُ

هذا الرسول كما البحر العظيم في عطائه، يقف السائل ببابه طالباً جوده وكرمه الذي لا يقل ولا ينضب، ولا تشوبه شائبة، كما عرفوه (ﷺ) يلجأون إليه وقت الشدائد ويجدونه.

¹ تواجِل: عظام البطون. اللجبات: جمع لجبة وهي الشاة التي قلَّ لبنها.

² طالب بن أبي طالب، أخو جعفر وعقيل وعلي وكان أحسن أخوته، مفقوداً في غزوة أحد، وقيل جال به فرسه في البحر وغرق قبل الهجرة بثلاث سنين وليس له عقب، وكان عمره خمسين سنة. يُنظر الأعلمي، محمد بن الحسين الحاتري (ت: 1394هـ): دائرة المعارف أو مقتبس الأثر ومجد مادثر، ط1، بيروت، لبنان، منشورات مؤسسة الأعلمي، ج2، 1968، ص27.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص28. السهيلي: الروض الأنف، ج5، ص247.

⁴ ابن منظور: لسان العرب، النزور: القليل التافه، مادة (نزر). وصربا: مادة (صرب) وهو اللبن الحقيق الحامض.

والصورة الأجل في وصف الرسول (ﷺ) بالبدر إذا ما طلع للناس في وقت الشدة، نجدها عند قطن بن حارثة¹ حيث يقول²:

(الطويل)

أَغْرَ كَأَنَّ الْبَدْرَ سِنَّةٌ وَجْهَهُ إِذَا مَا بَدَأَ لِلنَّاسِ فِي حُلِّ الْعَصَبِ
أَقَمْتَ سَبِيلَ الْحَقِّ بَعْدَ اعْوَجَاجِهَا وَرَشْتَ الْيَتَامَى فِي السَّقَايَةِ وَالْجَدْبِ

اقتترنت صورة الرجل الكريم بالبدر الذي يعم ضوءه ليشمل الجميع³، ولم يجد الشاعر أجمل من صورة البدر يرسمها للرسول (ﷺ) الكريم؛ لأن حاجة العرب للكريم وقت الشدة لا تقل عن حاجتهم إلى القمر في الليالي المظلمة، فقد أصبحت الأيام العصيبة والسنوات القاحلة مقياساً للجود والكرم حيث تكون فيه الحاجة أعظم والإنسان أعوز للمساعدة، ومن هنا لجأ الشعراء للقمر لإبراز مكانة الكريم وإظهار قيمة الكرم والجود كفضيلة تستحق الثناء والمدح⁴.

كان تلك صور رُسمت للرسول (ﷺ) في حياته لكن الشعراء لم يتوقفوا عن مدحهم الرسول (ﷺ) ووصفه بالكريم حتى في رثائهم له بعد وفاته، فحسان - رضي الله عنه - يبكي بحرقة على فقد الرسول (ﷺ) ويعرض مكارم خلقه ويقول⁵:

(الطويل)

وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ
أَعَفَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلًا لَا يُنْكَدُ⁶
وَأَبْذَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدَ إِذَا ضَنَّ مَعْطَاءُ بِمَا كَانَ يُتْلَدُ⁷

¹ قطن بن حارثة العلبي من بني عليم بن بكر بن زبد بن اللات بن ثور بن كلب يُنظر: ابن الأثير، عز الدين بن الحسن بن علي بن محمد الجوزي: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط1، تح محمد معوض وعادل عبد الموجود، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1994م، ج4، ص389.

² المرزباني: معجم الشعراء، ص189. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج4، ص389.

³ اشتية، فؤاد يوسف اسماعيل: القمر في الشعر الجاهلي، (رسالة ماجستير غير منشورة) جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2010 م، ص168.

⁴ يُنظر: اشتية، فؤاد اسماعيل: القمر في الشعر الجاهلي، ص82.

⁵ حسان بن ثابت: الديوان، ص95.

⁶ النائل: ما تتاله أي عطاء، والمنكد: النزر وأن لا يهنأه من يعطاه.

⁷ الطريف: المال المحدث المستفاد، التالد: والتلبد المال القديم الأصلي الذي وُلد عندك أو ورث عن الآباء، يُتلد: يُتخذ من مال.

يذكر حسان أن الماضين في الخلق لم يفقدوا مثل محمد، ولن يفقدوا مثله حتى يوم القيامة. صورة النبي الكريم حتى بعد وفاته بقيت في أذهان الشعراء ولمسوها وعاشوها مع الرسول (ﷺ). فهذه الصفة امتاز بها من بين البشر، فقد كان أجودهم وأكثرهم صدقة في سبيل الله وقد شرع نظام الزكاة وجعلها أحد الأركان الخمسة¹.

وفي مقطوعة أخرى من رثاء حسان بن ثابت للرسول (ﷺ)، يذكر أن النبي أبذل الناس وأكثرهم عطاءً فيقول²:

(البسيط)

مُصَدِّقًا لِلنَّبِيِّينَ الْأُلَى سَلَفُوا وَأَبْذَلَ النَّاسِ لِلْمَعْرُوفِ لِلْجَادِي³

ونلاحظ تكرار المفردات نفسها عند حسان، فقد وردت (أبذل) في الأبيات السابقة، وها هي الآن ترد مرة أخرى ليؤكد بتكراره المفردة على قمة الكرم والعطاء الذي تحلى به سيد الخلق والمرسلين.

ونجد في رثاء أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - صورة الرسول الكريم فهو نعم الإمام والقائد وفي ذلك يقول الصديق⁴:

(الوافر)

فُجِعْنَا بِالنَّبِيِّ وَكَانَ فِينَا إِمَامَ كَرَامَةٍ نِعَمَ الْإِمَامِ

فهو صاحب كرامات وأفضال ولن ننساه وننسى فضله على العالمين. وفي موضع آخر يطلب من عينه أن لا تسأم ببكاء الرسول ويصور الرسول بصاحب المكرمات والأعمال الشريفة ويقول⁵:

¹ المباركفوري، صفى الرحمن: وإنك لعلى خلق عظيم، دار كنده للإعلام والنشر، ج1، (د.ت)، ص430.

² حسان بن ثابت: الديوان: ص100.

³ الجادي: طالب الجدوى وهي العطية.

⁴ أبو بكر الصديق: الديوان، ص29.

⁵ المصدر السابق، ص31، ص32.

(المتقارب)

وَحَقَّ الْبُكَاءُ عَلَى السَّيِّدِ¹
وَمَحَضُ الضَّرْبِيَّةِ وَالْمُحْتَدِ²
بَيْنَ الْمَحَافِلِ وَالْمَشْهَدِ³

أَيَا عَيْنٍ جُودِي وَلَا تَسْأَمِي
عَلَى ذِي الْفَوَاضِلِ وَالْمَكْرُمَاتِ
فَكَيْفَ الْإِقَامَةُ بَعْدَ الْحَبِيبِ

إِنَّ أبا بكر إذ يطلب من عينيه البكاء وعدم الملل بكاء الحبيب (□)، يُعبر عن الأصل الطيب للرسول (□) ويتذكر فضله وكرمه، فهو صاحب الجود وهو من كان القدوة للمسلمين والمثل الأعلى في البذل والعطاء، وسيكون من الصعب عليه أن يعتاد الحياة الطبيعية دونه.

أما الصورة الإيمانية التي رسمها كعب بن مالك لفقد الرسول (□) فقد توشحتها الحزن وألهبته المشاعر⁴. ففي حين كانت الفاجعة بفقد النبي (□) عظيمة، سكبت عيناه الدموع وراح كعب يصرخ ويقول⁵:

(المتقرب)

لَخَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَالْمُصْطَفَى⁶
عَلَيْهِ لَدَى الْحَرْبِ عِنْدَ الْلُقَا
وَحَيْرِ الْأَنَامِ وَخَيْرِ اللَّهِهَا⁷

يَا عَيْنُ فَأَبْكِي بِدَمْعِ ذَرَى
وَبْكِي الرَّسُولَ وَحَقَّ الْبُكَاءُ
عَلَى سَيِّدِ مَا جَدِ جَحْفَلِ

إذن هي صورة السيد الماجد الكريم، خير الخلق، وخير الأنام، فوقت الحروب سنفتقد القائد، ووقت الهبات والكرم سنتذكر هذا العظيم والمانح الذي لا يباريه أحد في كرمه وعطاياه .

¹ جودي: اسخي بالدمع، لا تسأمي: لا تملي، حق: وجب، السيد: هو النبي (□).

² ذي الفواضل: صاحب الأعمال الشريفة، المكرمات: جمع مكرومة وهي فعل الكرم، محض الضربية: خالص الطبيعة، المحتد: الأصل.

³ المحافل: جمع محفل وهو تجمع الناس، المشهد: محضر الناس وتجمعهم، الحبيب: محمد (□).

⁴ يعقوب، عبد الكريم وأمين أحمد حميدوش: صورة الإنسان المؤمن في الشعر بين صدر الإسلام والعصر الأموي، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج31، ع1، 2009 م، ص4.

⁵ كعب بن مالك: الديوان، ص111.

⁶ ذرى: تفرق على الخدين.

⁷ جحفل: السيد الكريم الرفيع القدير، الله: العطاء الذي لا عطاء فوقه.

أما عاتكة بنت المطلب فصورت الرسول صاحب الندى والكرم وهو صاحب السيادة والشرف الرفيع، وفي رثائها له، تطلب له الرحمة من رب العالمين وتقول¹:

(الكامل)

فَعَلَيْكَ رَحْمَةً رَبَّنَا وَسَلَامَهُ يَا ذَا الْفَوَاضِلِ وَالنَّدَى وَالسُّودِدِ

ففي المدح ظهرت صورة الرجل القائد الكريم، وفي الرثاء لم تغب صورة الرسول الكريم عند الشعراء، وها هي في الاعتذاريات تظهر صورة الرسول الكريم (□) وفيها يُعبر الشاعر عن ندمه واعتذاره عما بدا منه في الماضي.

ويطلب من الرسول (□) أن يعفو عنه بعد أن كان قد أهدر دمه، والحديث هنا عن أنس بن زنيم² بعد أن أتى الرسول تائباً قال³:

(الطويل)

فَمَا حَمَلَتْ نَاقَةَ فَوْقَ رَحْلِهَا أَبْرَّ وَأَوْفَى نِمْةً مِنْ مُحَمَّدٍ
أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلًا إِذَا رَاحَ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهْنَدِ⁴
وَأَكْسَى لِبَرْدِ الْخَالِ قَبْلَ ابْتِدَالِهِ وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتَجَرَّدِ⁵

أنس في أبياته يعتذر للرسول (□) ويمتدح شجاعته وكرمه، هذا الكرم المادي قد شاهده وعرفه أنس بأمر عينيه، وها هو الآن أمام كرم الرسول المعنوي طالباً العفو والمغفرة له.

¹ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص842-ص942، ومقابلة، زايد: عمات الرسول (□)، السيرة والشعر، مرجع سابق، ص162.

² هو أنس بن زنيم بن عمرو الكناني، شاعر من الصحابة، هجا الرسول (□) فأهدر دمه، أسلم يوم الفتح ومدح الرسول (□) وعفا عنه، (ت: 60هـ)، ينظر الزركلي: الأعلام، ج2، ص24.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص424، وابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، مج3، ص4، ص5، والواقدي: المغازي، ج2، ص790-791.

⁴ في المغازي: وأوسع نائلاً إذا راح يهتر اهتزاز المهند، ينظر ص790-791.

⁵ الخال: ضرب من ضروب اليمن وهو من رفيع الثياب، والسابق الفرس المتجرد: يتجرد من الخيل ويسبقها.

ثالثاً: صورة الصادق:

خصلة الصدق ارتبطت ارتباطاً كبيراً مع سيدنا محمد (ﷺ) قبل بعثته، كان يُطلق عليه الصادق الأمين، وقد عُرف عند قريش والعرب بهاتين الخصلتين متلازمتين على الدوام، فهل كان لصدق الرسول (ﷺ) صدق وحضور عند الشعراء بعد الإسلام؟ وهل تفاوت الشعراء في رسم صورة الصادق عليه السلام في أشعارهم؟

أما مظاهر الصدق في حياة الرسول (ﷺ) فنلخصها في عدة أمور منها: الصدق في الحديث، والصدق في العزم، والصدق في المعاملة والوعد، وجميع هذه الأمور تجلت في رسولنا الكريم، فلم يكن بالأمر الجديد على الشعراء أن يصفوا الرسول بالصادق في أشعارهم بعد الإسلام، وكانت قد تجلت هذه الخصلة في نفسه (ﷺ) قبل بعثته. لقد صَوَّرَ الشعراء الرسول الصادق في حياته وحتى بعد مماته بأبلغ الصور، وقد تباينت المفردات الدالة على الصدق بين الشعراء، فهذا أبو طالب عم الرسول (ﷺ) يشهد بصدق الرسول فيقول¹:

(الطويل)

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّا ابْنَانَا لَا مُكَدِّبٌ لَدَيْهِمْ وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

يُذَكِّرُ أبو طالب قريشاً بلقب الرسول (ﷺ) في الجاهلية الصادق وهم يعلمون ذلك ولم يجربوا عليه كذباً من قبل. وفي قصيدة أخرى يأتي أبو طالب على دعوة الرسول له للدخول في الإسلام، وبرغم عدم إسلامه ظلَّ يدافع ويُحامي عن محمد (ﷺ) من قريش والمشركين ويقول²:

(الكامل)

وَاللَّهِ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ حَتَّى أَوْسَدَ فِي الثُّرَابِ دَفِينَا
وَدَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحٌ وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينَا

¹ التتويجي، محمد: أبو طالب عم النبي (ﷺ)، ص73.

² المرجع السابق، ص91.

أبو طالب يمتدح الرسول ويذكر صدقه (ﷺ)، وهذه شهادة كبيرة للرسول (ﷺ) ليس لأن عمه قالها؛ بل لأن أبا طالب معروف بسيادته في قريش، وقوته، ودفاعه عن محمد. وهو أيضاً كما قريش يعرف صدقه ولكن دعوات الرسول بهداية الله له، لم تؤت ثمارها.

فقريش وأهل مكة يشهدون بصدق الرسول، لكن تكذيبهم له كان لأجل الدعوة والدخول في الدين الإسلامي ومما يرويه ابن عباس - رضي الله عنه - قول الرسول (ﷺ) حين دعا قريشاً للإسلام (أرأيتم لو أخبرتم أن خيلاً بالوادي تُغير عليكم أكنتم مصدّقي؟ قالوا نعم، ما جربنا عليك كذباً)¹.

وها هو الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بعد أن هداه الله للإسلام امتدح النبي فقال²:

(البسيط)

نَبِيٌّ صِدْقٍ أَتَى بِالْحَقِّ مِنْ ثِقَةٍ وَافَى الْأَمَانَةَ مَا فِي عُوْدِهِ خَوْرُ

هذه شهادة المؤمن الحق عبّر فيها ابن الخطاب عن النبي (ﷺ) بالصدق وقد جاء بالحق، وهو كلام رب العالمين وقد عرف النبي (ﷺ)، وشهد له بصدق الحديث.

وحسان بن ثابت لا يبتعد عن وصف عمر بن الخطاب للرسول بالصادق فيقول في مدح النبي (ﷺ)³:

(الوافر)

وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا يَقُولُ الْحَقُّ إِنَّ نَفْعَ الْبَلَاءِ⁴
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدَّقُوهُ فَقُلْتُمْ لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ⁵

¹ صحيح مسلم: ج1، ص109.

² ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص348.

³ حسان بن ثابت: الديوان، ص6.

⁴ عبداً: يعني رسول الله (ﷺ)، البلاء: الامتحان في الخير والشر.

⁵ شهدت: آمنت وصدقت.

حسان - رضي الله عنه - يروي عن الله سبحانه وتعالى حقيقة محمد، وما بُلِّغَ به وأُلقي عليه من أمر التكليف بقوله (أرسلت عبداً)¹، وحسان يشهد بالصدق لمحمد لكن قومه أبوا تصديقه ووقفوا للنبي بالمرصاد.

وفي قصيدة أخرى يذكر حسان تصديقهم للرسول وبما جاء به من الوحي فيقول²:

(المتقارب)

رَسُولُ نَصَدَّقُ مَا جَاءَهُ مِنْ الْوَحْيِ كَانَ سِرَاجًا مُنِيرًا

وهنا تصديق حسان والصحابه للوعد الذي جاء به الرسول هادياً ومنيراً لهم ظلمات الجهل والضلال.

وأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أول من صدق بدعوة الرسول وآمن بها، فُلِّقَ بالصدق، عبَّرَ عن الحال التي عايشها مع الرسول الصادق فقال³:

(الطويل)

مُحَمَّدُ الْمُخْتَارُ أَكْرَمَ مُرْسَلٍ وَأَصْدَقُ مَبْعُوثٍ لِأَكْرَمِ بَاعِثٍ
مُصَدِّقُ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ وَرَأَاهُ فَكَذَّبَهُ أَبْنَاءُ تِلْكَ الطَّوَامِثِ⁴

صورة الرسول الصادق عند أبي بكر يُعبر عنها باسم التفضيل (أصدق) من بُعث على هذا الكون ومحمد مصدق لما جاء به الأنبياء ممن سبقوه - لكن التكذيب جاء من قومه، مما حدا بأبي بكر لأن يطلق عليهم صفة النساء الطوامث تحقيراً واستهزاءً بهم.

وفي أبيات أخرى يكني عن الرسول (أحمد) ويصفه بالصادق فيقول⁵:

¹ الحنبلي، علي محمد: شخصية الرسول الكريم في شعر السيرة النبوية لابن هشام، آداب الرفادين، العراق، ع 13، 1981، ص 397.

² حسان بن ثابت: الديوان، ص 213.

³ أبو بكر الصديق: الديوان، ص 47.

⁴ الطوامث: مفردا طامث وهي المرأة الحائض وهي هنا كناية عن المشركين.

⁵ أبو بكر الصديق: الديوان، ص 47.

(الطويل)

بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَحْمَدَ صَادِقٌ لِأَرْسَلَهُ الرَّحْمَنُ أَكْرَمَ وَارِثُ

وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يشهد بصدق المصطفى، كيف لا؟ وقد عاش في بيت النبوة، وتشرب من أخلاق الرسول وصفاته الكثير، فيكفيه بوالدته آمنة - رضي الله عنها - فيقول¹:

(الكامل)

إِنَّ ابْنَ أَمِنَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا رَجُلٌ صَدُوقٌ قَالَ عَنْ جَبْرِيلَ

وعلي إذ يشهد بصدق القول للرسول، وصدق تبليغه الرسالة عن طريق الوحي جبريل عليه السلام؛ يتأثر بذلك، فمما يروى أنه عندما أراد الهجرة إلى المدينة المنورة، قال له العباس إن محمداً ما خرج إلا خفية وقد طلبته قريش أشد الطلب وأنت تخرج جهاراً؟ فقال علي هذا البيت ضمن قصيدة امتدح فيها الرسول (ﷺ) الصادق الذي لا يخشى إلا الله، لأنه على طريق الحق والعدل² وهو قدوة الصحابة ومثلهم الأعلى.

وكعب بن مالك يعبر عن منهج الرسول وطريقه فيقول³:

(البسيط)

الْحَقُّ مَنْطِقُهُ وَالْعَدْلُ سِيرَتُهُ فَمَنْ يُجِبْهُ إِلَيْهِ يَنْجُ مِنْ تَبٍّ⁴

هذا الرسول لا يقول إلا حقاً، وسيرته العطرة تشهد بذلك، وهو يجمع الصدق والعدل في آن واحد، ويقول إن من يجب دعوته ويصدق بها ينج بنفسه من الهلاك. كما يمتدح كعب صدق الرسول (ﷺ) في قصيدة يرد فيها على ضرار بن الخطاب يوم الخندق يقول⁵:

¹ علي بن أبي طالب: الديوان، ص146.

² كعب بن مالك: الديوان، ص25.

³ المصدر السابق، ص25.

⁴ تبب: الهلاك والخسارة.

⁵ كعب بن مالك: الديوان، ص105.

(الوافر)

وَكَانَ لَنَا النَّبِيُّ وَزِيرَ صِدْقٍ بِهِ نَعْلُو الْبَرِّيَّةَ أَجْمَعِينَ¹

صورة الرسول عند كعب، هي صورة الأخ المؤازر الصادق الذي يحمل مع الناس أثقالهم

وهموهم، وكعب يتأثر بالقرآن ولذلك يقتبس من الآية ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾².

ويفتخر كعب مرة أخرى بصدق الرسول، وأنهم صدقوا دعوته وهو قائدهم وإمامهم فيقول³:

(الطويل)

لَنَا حَوْمَةٌ لَا تُسْتَطَاعُ يَقُودُهَا نَبِيٌّ أَتَى بِالْحَقِّ عَفْ مُصَدِّقٍ

ويتابع في مدحه المصطفى (□) ويصوره بالبدر المنير الذي لا يعرف الكذب أبداً

ويقول⁴:

(البسيط)

يَمْضِي وَيَذْمُرُنَا عَنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ كَأَنَّهُ الْبَدْرُ لَمْ يُطْبَعْ عَلَى الْكَذِبِ⁵
بَدَا لَنَا فَاتَّبَعْنَاهُ نَصَدَّقُهُ وَكَذَّبُوهُ فَكُنَّا أَسْعَدَ الْعَرَبِ

لكن ما العلاقة التي ربطت بين تصوير كعب الرسول (□) والبدر؟ وهل البدر يكذب؟

لا بد أن الشاعر قد لفت نظره البدر كما سائر الشعراء الجاهليين فأثار دهشته، وسحره بنفسه وجماله، وهيمن على إحساسه ومشاعره، وفجر في نفسه مشاعر غامضة، وتعامل معه باعتباره جزءاً هاماً من الطبيعة ومكوناً أساسياً من مكوناتها، لهذا لم يجد كعب أقرب من صورة البدر حين يطلع في أوانه مكتملاً كما هو (□) الصادق في حديثه ووعوده⁶. فلم يُعرف عن الرسول (□) لا في الجاهلية ولا بعد الإسلام إلا قول الحق والصدق حتى مزاحه (□) كان حقاً، ومما ورد عنه في ذلك أن امرأةً جاءت له ليحملها على جمل فقال (□) احملك على ولد الناقة،

¹ الوزير: المؤازر والمساعد لأنه يحمل عن الناس أوزارهم وأثقالهم، البرية: الناس.

² سورة طه: آية 29.

³ كعب بن مالك: الديوان، ص 53.

⁴ السابق، ص 12.

⁵ يذمرنا: يحضنا ويذكرنا.

⁶ يُنظر: اشتية، فؤاد يوسف اسماعيل: القمر في الشعر الجاهلي، ص 57.

فَقَالَتْ لَا يَطِيقُنِي، فَأَصْرَّ الرَّسُولُ (ﷺ) عَلَى حَمْلِهَا عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ لَهَا: وَهَلِ الْجَمَلُ إِلَّا وَلَدُ النَّاقَةِ.

وفي روايةٍ، أَنَّ أَمْرَأَةً أُخْرَى جَاءَتْ إِلَيْهِ تَشْكُو أَنَّ زَوْجَهَا مَرِيضٌ، وَيَدْعُو الرَّسُولَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهَا لَعَلَّ زَوْجَهَا الَّذِي فِي عَيْنَيْهِ بَيَاضٌ، فَانْطَلَقَتْ تَبْحَثُ فِي عَيْنِي زَوْجَهَا حَتَّى قَالَ لَهَا الزَّوْجُ: وَهَلِ أَحَدٌ إِلَّا فِي عَيْنَيْهِ بَيَاضٌ. وَثَالِثَةٌ أَتَتْ الرَّسُولَ (ﷺ) تَطْلُبُ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَدْخُلَهَا الْجَنَّةَ فَقَالَ مَمَازِحًا لَهَا لَا تَدْخُلِ الْجَنَّةَ وَهِيَ عَجُوزٌ¹ فَانْطَلَقَتْ تَبْكِي حَتَّى أَخْبَرُوهَا أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً﴾² فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا³.

فقد جمع كمال الأخلاق ومحاسن الأفعال، وقد افتخرت عاتكة بنت المطلب بابن أخيها فقالت³:

(الطويل)

أَتَاكُمْ بِمَا جَاءَ النَّبِيُّونَ قَبْلَهُ وَمَا ابْنُ أَخِي الْبِرِّ الصَّدُوقُ بِشَاعِرٍ

وردت أبيات عاتكة التي منها هذا البيت بعد هزيمة قريش يوم بدر، وهي هنا تُصور الرسول الصدوق الذي لم يُعرف عنه الكذب قط، وتنفي أن يكون شاعراً كما اتهمه قومه، والشاعر كما هو معروف يستطيع أن يتحايل على اللغة ويكذب ليصل إلى غرضه والهدف الذي يطمح إليه. وفي سيرة ابن هشام يتحدث مالك بن نمط للرسول (ﷺ)، ويصفه بأنه مُصَدِّقٌ من رب العالمين ويقول⁴:

(الطويل)

ذَكَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ فِي فَحْمَةِ الدُّجَى وَنَحْنُ بِأَعْلَى رَحْرَحَانٍ وَصَلَدَدٍ⁵
بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ فِينَا مُصَدِّقٌ رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُهْتَدٍ

¹ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (209-279هـ): الشمائل المحمدية والخصائص المصطفوية، ط3، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ص233. والصفدي، صلاح الدين بن أبيك: الوافي بالوفيات، ج1، ص70.

² سورة الواقعة، آية 35-36.

³ ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص143. ومقابلة، زايد: عمات الرسول (ﷺ)، السيرة والشعر، ص163.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، ج5، ص299.

⁵ رحرحان، جبل قرب عكاظ، صلدد، جبل قرب ذي الحليفة.

وهذا ظبيان بن كدادة¹ الإيادي يشهد بصدق الرسول وفعله وصدق معاملته، ويقول²:

(الطويل)

فَأَشْهَدُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالْصَّفَا
بِأَنَّكَ مُحَمَّدٌ لَدَيْنَا مُبَارَكٌ
شَهَادَةً مِّنْ إِحْسَانِهِ مُتَقَبَّلٌ
وَفِيَّ أَمِينٌ صَادِقَ الْقَوْلِ مُرْسَلٌ

هذه الصفات خلَعها ظبيان على ممدوحه (□)، ويشهد فيها بالبيت العتيق وبمشعر الصفا وكلها أماكن مقدسة، جعلها دليل صدق على قوله في الرسول ويجمع صفاته بأنه محمود ومبارك ووفي وأمين وصادق في قوله، وهذا مما يُلاحظ على شعراء صدر الإسلام، إذ يكثر من إيراد الصفات في البيت الواحد أو القصيدة الواحدة، وينقلون الصفة عارية من التصوير متداخلة مع غيرها من الصفات في أغلب القصائد، غير مهتمين بتفصيل جزئياتها، لتشكل بعد ذلك كلاً متكاملًا³، وفي رثاء الرسول (□) تُبرز صفة بنت المطلب⁴ مقدار الأسى والتفجع بفقد الرسول (□) وتبرز صفاته التي ترد في المديح لنجدها في الرثاء وتقول⁵:

(الطويل)

أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنْتَ رَجَاءَنَا
وَكُنْتَ رَحِيمًا هَادِيًا وَمُعَلِّمًا
وَكُنْتَ بِنَا بَرًّا وَلَمْ تَكُ جَافِيًا
لِيَبْكُ عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيًا
وَمُتَّ صَلِيبَ الْعُودِ أَبْلَجَ صَافِيًا
صَدَقْتَ وَبَلَغْتَ الرِّسَالَةَ صَادِقًا

تشهد صفة بصدق الرسول وبصدق عزمه في تبليغ الأمانة التي حملها للناس كافة.

¹ صحابي قدم على رسول الله (□)، وأقطعه قطعة من بلاده، وله في ذلك شعر (د.ت). يُنظر: عبد الرحمن، عفيف: معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى العصر الأموي، ط1، بيروت، لبنان، 1996، ص20.

² ابن هشام: السيرة النبوية، ج5، ص167.

³ يُنظر: الحربي، منور بن محمد بن صالح: شخصية الرسول (□) في شعر صدر الإسلام، جامعة مؤتة، 2009م، ص147.

⁴ هي صفة بنت المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشية الهاشمية عممة الرسول (□) وهي أم الزبير بن العوام، كانت في الجاهلية تحت الحارث بن حرب بن عبد شمس ثم هلك وتزوجها العوام وعاشت طويلاً توفيت في خلافة عمر، يُنظر: مقابلة، زايد: عمات الرسول (□)، السيرة والشعر، ص24.

⁵ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص248، ومقابلة، زايد: عمات الرسول (□)، السيرة والشعر، ص94.

وحسان في رثائه للرسول (ﷺ) يصفه بالمعلم الصادق، فالذي يسير على هديه يسعد وينجو في الآخرة وتراه يقول¹:

(الطويل)

إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِدًا مُعَلِّمٌ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُوا يَسْعَدُوا

وفي الاعتذاريات تظهر صورة الرسول الصادق عند ابن الزبير²، بعد أن شهد بصدق الرسول وصدق ما جاء به فيقول³:

(الخفيف)

إِنَّ مَا جِئْتَنَا بِهِ حَقٌّ صِدْقٍ سَاطِعٌ نُورُهُ مُضِيٌّ مُنِيرٌ
جِئْتَنَا بِالْيَقِينِ وَالْبَرِّ وَالصِّدْقِ وَفِي الصِّدْقِ وَالْيَقِينِ سُرُورٌ

لقد برزت صورة الرسول الصادق عند معظم الشعراء ومهما اختلفت مفرداتها، إلا أنها عبرت عن قيمة هذه الفضيلة عند الرسول وقد برع الشعراء في إظهارها في مختلف الأغراض الشعرية، وأظهرت الأثر الذي تركته في نفوس المسلمين باقتنائهم بالرسول الصادق، وما صاحبه من تغيير على القيم الجاهلية.

رابعاً : صورة الأمين:

ارتبط هذا اللقب مع سيدنا محمد (ﷺ) قبل نبوته، وقد أوردت كتب السيرة والتاريخ عن أمانته قصصاً عدة. هذا الخلق الرفيع تحلى به سيد الأنبياء والمرسلين، وشهد بذلك عمه أبو طالب في أشعاره، وفي صغره، يذكر أبو طالب الرسول محمد الأمين وبه عُرف عند قومه فيقول⁴:

¹ حسان بن ثابت: الديوان، ص92.

² هو عبد الله بن الزبير، بكسر الزاء، بن قيس بن عدي بن سهم القرشي، وكان من أشد الناس على الرسول (ﷺ) وعلى أصحابه بلسانه ونفسه وكان من أشعرهم في الجاهلية، أسلم بعد الفتح وشهد ما بعدها من المشاهد، يُنظر: ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج4، ص353-354.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ج5، ص53.

⁴ التتويج، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي (ﷺ)، ص38.

(الكامل)

إِنَّ الْأَمِينَ مُحَمَّدًا فِي قَوْمِهِ
لَمَّا تَعَلَّقَ بِالزَّمَامِ ضَمَمْتُهُ
عَنْدِي يَفُوقُ مَنَازِلَ الْأَوْلَادِ
وَالْعَيْسِ قَدْ قَلَصْنَ بِالْأَزْوَادِ

تلك هي صورة محمد (الأمين) قبل الإسلام، امتدحه بها أبو طالب وذكر لنا أنه كان مضرب المثل في الأمانة عند قومه، وقصة الحجر الأسود خير شاهد على هذا الحديث، فحين نزل الجميع على تحكيم الرسول (ﷺ) في الخلاف الذي وقع إثر ذلك قالوا "رضينا هذا الأمين محمد"¹. أما بعد الإسلام فقد عبّر أبو طالب عن حبه لمحمد وذكر صدقه وأمانته فقال²:

(الكامل)

وَدَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحٌ
وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّهُ
وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينًا
مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا

هذه الشهادة من أبي طالب لم تتغير بالرغم من عدم إسلامه، فقد ذكر أمانة الرسول (ﷺ) وصدق لسانه، وهذا يؤكد صورة الأمين في قومه، فقد تعددت صورة الأمانة عند الرسول (ﷺ) فكان منها الأمانة على الذكر، والأمانة على حاجات الآخر، والأمانة على الأمة، وقد ذكرت المصادر أن الرسول (ﷺ) خلفاً علياً في مكة بعد هجرته إلى المدينة ليرد الودائع لأصحابها³، فمن المعروف أن كفار قريش، بالرغم من عدم إسلامهم، إلا أنهم كانوا يثقون بالرسول ويأتمنونه على حاجاتهم.

وشهادة السيدة خديجة - رضي الله عنها - بأمانة الرسول دليل آخر على مكارم الخلق التي تحلى بها المصطفى، فعندما جاءه الوحي هدأت من روعه وقالت له⁴: "إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث" وظبيان بن كدادة عرف أمانة الرسول (ﷺ) فامتدحه قائلاً⁵:

¹ ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص182، وينظر ص15 من البحث.

² التتويجي، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي (ﷺ)، ص91.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ص129، وينظر ص20 من البحث، الفصل الأول.

⁴ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص194، ص195.

⁵ ابن هشام: السيرة النبوية، ج5، ص167.

(الطويل)

فَأَشْهَدُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالْصَّفَا
بِأَنَّكَ مُحَمَّدٌ لَدَيْنَا مُبَارَكٌ
شَهَادَةً مِّنْ إِحْسَانِهِ مُتَقَبَّل
وَفِيَّ أَمِينٌ صَادِقَ الْقَوْلِ مُرْسَل

صورة الرسول الأمين على حاجات الآخر؛ رسمها ظبيان بعد أن أقطعه قطعه من بلاده، فكانت الصورة معبرة وصادقة من هذا الشاعر الذي تأثر بأمانة الرسول (□) فقال ما قال.

أما الصورة عند حسان بن ثابت فجاءت مغايرة تماماً، فحسان - رضي الله عنه - يعرف الرسول حق المعرفة ولكنه يفاجأ كيف أن الأنصار قد أقصوا عن المكانة التي يستحقونها حين يُقدم الرسول (□) بني سليم عليهم يوم فتح مكة فتثور شاعريته¹ ويقول²:

(البسيط)

وَأَتِ الرَّسُولَ فَقُلْ يَا خَيْرَ مُؤْتَمِنٍ
لِّلْمُؤْمِنِينَ إِذَا مَا عُدِّلَ الْبَشَرُ

فالرسول عند حسان بن ثابت هو خير مؤتمن على الأمة، وعلى حقوقها، ويدرك ذلك بعد أن يعرف مغزى الرسول (□) وهو يعرف فضل الأنصار وقدرهم عنده (□).
وحسان في رده على أبي سفيان قبل فتح مكة - وكان أبو سفيان هجا الرسول (□) - يقول في قصيدته الهمزية³:

(الوافر)

هَجَّوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا
أَمِينِ اللَّهِ شَيْمَتُهُ الْوَفَاءُ

الرسول (□) هو أمين الله على الأمة، والوفاء من الشيم التي اختصه الله بها. ويصور حسان الرسول المبارك الحنيف المائل عن الضلال، وكلها صفات لا يُجاريه فيها أحد.

أما أمانته على الذكر فيأتي العباس بن مرداس على ذلك ويقول⁴:

¹ حسان التائر لكرامة الأنصار: مجلة البحوث الإسلامية ع2، ج2، 1396هـ، ص232.

www.alifta.net/fatawa_details

² حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص199.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص66، حسان بن ثابت: الديوان، ص8.

⁴ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ط2، تح سميع جابر، بيروت، دار الفكر، ج14، ص297.

(الطويل)

مِنَ الْحَقِّ فِيهِ الْفَضْلُ مِنْهُ كَذَلِكَ
وَأَخِرَ مَبْعُوثٍ يُجِيبُ الْمَلَائِكَا

نَبِيٍّ أَتَانَا بَعْدَ عِيسَى بِنَاطِقٍ
أَمِينًا عَلَى الْفُرْقَانِ أَوَّلَ شَافِعٍ

هذه صورة النبي العظيم الذي اصطفاه الله للرسالة وهداية الأمة، وصورة الأمين على كل ما جاء في القرآن الكريم، الحريص على تبليغ أمر الله بكل دقة وتفصيل.

وعلي بن أبي طالب هو الآخر يؤكد قول العباس بن مرداس، ويأتي على أمانة الرسول في أداء الرسالة فيقول¹:

(الطويل)

وَإِنْ قَالَ قَوْلًا كَانَ فِيهِ مُسَدَّدًا

أَمِينٌ عَلَى مَا اسْتَوْدَعَ اللَّهُ قَلْبَهُ

فالرسول أمين على كلام الله، يبلغه للناس كما جاء به الوحي عليه السلام وكما أمره الله به، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾².

ويبدو أن العباس قد تأثر بالآية السابقة، فقول الرسول () هو كلام حق والله قد تكفل بعصمته ونزاهته عن كل ما هو باطل.

والفاروق عمر - رضي الله عنه - في شعره يشهد بأن الرسول أدى الأمانة على أكمل وجه، ولم يتوان للحظة أو يقصر في سبيل ذلك ويقول³:

(البسيط)

وَأَفَى الْأَمَانَةَ مَا فِي عُوْدِهِ خَوْرُ

نَبِيٍّ صَدَقَ أَتَى بِالْحَقِّ مِنْ ثِقَةٍ

¹ علي بن أبي طالب: الديوان، ص 40.

² سورة المائدة، آية 67.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ج 1، ص 348.

صورة الرسول الأمين عند الفاروق، صورة اكتملت محاسنها لهذا الأمين الذي شهد له الصحابة بأداء الأمانة العظمى وهي الرسالة السماوية، وتكبد المشاق في سبيل ذلك، وصبر وتحمل الأذى ولم يضعف ولم تُثنه أي وسيلة عن القيام بواجبه في الدعوة.

وها هو أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يذكر صفة الأمانة وينعت النبي بالأمين المصطفى الذي اختاره الله لخير الأمة ويقول¹:

(الوافر)

أَمِينٌ مُصْطَفَى بِالْخَيْرِ يَدْعُو كَضَوْعِ الْبَدْرِ زَايِلَهُ الظَّلَامِ

صورة الرسول الأمين جاء بالخير والهداية للعالمين وكان خير حافظ وأمين لهذه الرسالة، وقد انقضت ظلمات الجهل والضلال بنور وجهه العظيم، كما البدر حين يُزيل الظلام. أما كعب بن مالك فيرد على ابن الزبير عندما تناول وهجا الرسول (ﷺ) وذلك قبل إسلامه يقول²:

(المتقارب)

تَبَجَّسْتَ تَهْجُو رَسُولَ الْمَلِكِ قَاتَلَكُ اللَّهُ جَافًا لَعِينًا³
تَقُولُ الْخَنَا ثُمَّ تَرْمِي بِهِ نَقِي الثِّيَابِ تَقِيًا أَمِينًا⁴

صورة الرسول (ﷺ) يرسمها كعب بن مالك صورة النقي الطاهر الأمين على الأمة وعلى الرسالة، ليوضح لابن الزبير حقيقة هذا الرسول (ﷺ)، وهم يعلمون تمام العلم خلقه وأمانته قبل البعثة، ولكن العداوة اشتدت بهم على رسول الله ولهذا يأتي كعب على الصفات السلبية (كالجلف واللعين) وينعت ابن الزبير بها.

وفي مقابل ذلك يُظهر الصورة الإيجابية، الصورة المشرفة التي تحلى بها صلوات الله وسلامه عليه، من نقاء السريرة وأمانة الخلق، فقد كان (ﷺ) مستكملاً للصفات التي لا غنى عنها في إنجاح كل رسالة عظيمة وكان خير إنسان لبني الإنسان⁵.

¹ أبو بكر الصديق: الديوان، ص30، والصفدي: الوافي بالوفيات، ج1، ص64.

² ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص169، وكعب بن مالك، الديوان، ص277.

³ تبجست: نطقت وأكثرت كما يتبجس الماء إذا سال وانفجر، جلفا: الجافي.

⁴ الخنا: الكلام الذي فيه فحش.

⁵ ينظر: الحبوبى، علي محمد: شخصية الرسول الكريم في شعر السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، ص2.

ونلاحظ من كل ما سبق أن الرسول (ﷺ) كان يمتاز بالتكافؤ الخُلقي؛ ذلك أن أخلاقه (ﷺ) كلها تنبع من فطرته بنسبٍ مُتَّفقة، فشجاعته مثل صبره، وصبره مثل كرمه، وكرمه مثل أمانته ولا نجد له في خلق أو موضع يزيد أو ينقص على خُلُقٍ آخر. بل تجتمع متكافئة في شخصية الرسول (ﷺ) وهذا هو سر الإعجاز الإنساني في حياته (ﷺ)، فكان وجوده أعظم معجزة للإنسان في الحياة¹.

* الصورة الدينية للرسول (ﷺ):

اهتم شعراء صدر الإسلام بالناحية الدينية في تصوير الرسول (ﷺ) من خلال استخدامهم الألفاظ والأساليب والتشبيهات في أشعارهم، وبدا واضحاً الأثر الكبير الذي تركه القرآن الكريم في الشعر، وهذا يدل على الثقافة العربية الإسلامية التي سيطرت على تلك الفترة، فاقتبس الشعراء الكثير من المعاني والأفكار التي تضمنها كتاب الله عز وجل، وقد تراوحت صورة الرسول (ﷺ) الدينية عند الشعراء فمنهم، من وصفه بالمبارك، ومنهم من أكثر من إيراد صفة الرسول أو النبي في شعره ووصفه بالمصطفى، وقد اقتبس بعض الشعراء صفة الهادي والمهدي ونعت بها الرسول (ﷺ)، وكان بعض الشعراء قد وصف الرسول بذي الشفاعة وخاتم النبيين وغير ذلك. فنحن أمام صفات وعلاقات تأخذ نصيبها المفروض وحصتها المقررة من الحديث تبعاً لمواقف القائلين، وتكوينهم الثقافي وطبيعة ارتباطهم بالرسول (ﷺ)².

1- صورة المبارك:

هذه الصورة رسمتها وفتقت أبوابها رقيقة بنت أبي صيفي حين قالت³:

(البسيط)

مَبَارَكُ الْأَمْرِ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِهِ مَا فِي الْأَنَامِ لَهُ عَدْلٌ وَلَا خَطَرُ

¹ ينظر: عرجون، محمد الصادق: محمد رسول الله، ص211.

² ينظر: الحبوبي، علي محمد: شخصية الرسول الكريم في شعر السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، ص376.

³ ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح: عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، مصدر سابق، ص39، وينظر ص18، الفصل الأول من الدراسة.

كانت هذه صورة الرسول الطفل المبارك قبل أن يبعث رسولاً لهذه الأمة، لكننا نرى أن الصورة قد اتسعت أبعادها ووظفها الشعراء في صدر الإسلام كثيراً في أشعارهم، فهي حسان بن ثابت - رضي الله عنه - يذكر صورة الرسول المبارك في أكثر من موضع فيقول¹:

(الكامل)

يَا بَكْرَ أَمْنَةَ الْمُبَارَكُ بِكُرْهَا وَلَدَتْهُ مُحْصَنَةً بِسَعْدِ الْأَسْعَدِ

يمتدح حسان الرسول () عن طريق والدته أمنة الطاهرة وينعته بالمبارك الذي تحفه اليمن والبركة. ويتابع حسان في مدحه ويكتسب بُعداً دينياً، ليصف الرسول بأحمد المبارك حيث يقول²:

(الكامل)

صَلَّى إِلَهِ وَمَنْ يَحْفَ بِعَرْشِهِ وَالطَّيْبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدِ

يتأثر حسان بن ثابت بالآية القرآنية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾³، ونحن المسلمون حين نذكر الرسول () نُصلي عليه، نذكر في قولنا " اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد " هذه البركة عمت الوجود والخير الذي بدا لنا برسولنا الكريم؛ فقد أضاء لنا الكون، وقد عبّر عن ذلك حسان بقوله⁴:

(الكامل)

نُورًا أَضَاءَ عَلَى الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا مَنْ يَهْدِ لِلنُّورِ الْمُبَارَكِ يَهْتَدِي

صورة الرسول عند حسان هي صورة النور والضياء المبارك الذي جلا ظلمات الجهل وأنار سبيل الحق والعدل للبرية جمعاء عن طريق الهداية من هذا النبي الهادي.

¹ حسان بن ثابت: الديوان، ص 98.

² المصدر السابق، ص 99.

³ سورة الأحزاب، آية 56.

⁴ حسان بن ثابت: الديوان، ص 98.

وفي الرثاء لا تغيب صورة الرسول المبارك عن ذهن حسان فيقول¹:

(البسيط)

مَنْ الَّذِي كَانَ فِينَا يُسْتَضَاءُ بِهِ مُبَارَكُ الْأَمْرِ ذَا عَدْلٍ وَإِرْشَادٍ

هذا النور عبر حسان عن فقدّه وغيابه بالاستفهام في بداية البيت السابق ب (مَنْ)، ليأتي الجواب في الشطر الثاني مُبارك الأمر، وهو رسولنا (□).

وما كان بكاء حسان - رضي الله عنه - على فقد المصطفى سوى صورة مكملّة لمدائحه ومطابقة لما ورد فيها من حميد الصفات وجميلها² حيث قال في مرثيته الدالية³:

(الطويل)

فَبُورِكْتَ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكْتَ بِبِلَادِ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ

هذه البركة عمّت قبر الرسول (□)، وحتى البلاد المباركة التي دفن فيها هذا النبي الذي وفقه الله للصواب في القول والعمل، والبركة لم تنقطع بوفاته (□).

وفي الهجاء أيضاً نجد حسان بن ثابت في معرض رده على أبي سفيان، حين هجا الرسول (□) يذكر هذه الصفة ويقول⁴:

(الوافر)

هَجَّوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا أَمِينُ اللَّهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ

نجد الشاعر يوشح البيت بمجموعة من الصفات الدينية يكتفها في سياق واحد، معيارها مشهد المبارك والبر والحنيف⁵ والأمين والوفاء من طبعه، وكلها صفات تتبع من الفطرة ولا تملك

¹ حسان بن ثابت: الديوان، ص99.

² اخليف، مي يوسف: شخصية الرسول في شعر مدرسة المدينة المنورة، الدارة، السعودية، ع40، ج1، 2013، ص132.

³ حسان بن ثابت: الديوان، ص91.

⁴ المصدر السابق، ص8.

⁵ اخليف، مي يوسف: شخصية الرسول في شعر مدرسة المدينة المنورة، مرجع سابق، ص129.

أي مؤثرات طارئة على تغييره بل يتغلب هذا الخلق الأصيل على الظواهر الاجتماعية، ويوجهها نحو الفضيلة¹.

أما الصورة عند العباس بن مرداس فتظهر القوة الإيمانية التي تحلى بها الشاعر ويشهد على ذلك متابعتة لدين المبارك عليه السلام فيقول²:

(الطويل)

وَوَجَّهْتُ وَجْهِي نَحْوَ مَكَّةَ قَاصِدًا وَتَابَعْتُ بَيْنَ الْأَخْشَبَيْنِ الْمُبَارَكَا

وكذلك ظبيان بن كدادة الذي شهد بخلق الرسول الكريم وصدق قوله فجاء في شعره قائلاً³:

(الطويل)

بِأَنَّكَ مُحَمَّدٌ لَدَيْنَا مُبَارَكٌ وَفِي أَمِينٍ صَادِقٍ الْقَوْلِ مُرْسَلِ

هذه البركة عرفها الشعراء والصحابه ممن عايشوا الرسول (ﷺ)، وظهر لهم الكثير على يديه فمما يروى عن جابر - رضي الله عنه - أنهم كانوا مع الرسول (ﷺ) يوم الخندق وكانت عنده شويهة، فقال لامرأته لو صنعنا طعاماً لرسول الله (ﷺ)، وأمر زوجته وطحنت شيئاً من شعير، وصنعت خبزاً وذبح الشاة، فلما أمسى قال جابر لرسول الله (ﷺ) لقد صنعنا لك شاة وشيئاً من خبز الشعير وأحب أن تتصرف معي، فما كان من رسول الله (ﷺ) إلا أن أمر صارخاً بالناس أن انصرفوا مع رسول الله (ﷺ) إلى بيت جابر وأقبل رسول الله والناس معه وجلس وأخرجوا الشاة له فبرك وسما الله، ثم أكل وتواردها الناس حتى صدر عن أهل الخندق جميعاً⁴. وقد مرَّ سابقاً عظم البركة من سيد الخلق المبارك، الذي أعطى محمد بن بشر وجده أعزاً وبارك لهم فيها وفي ذلك يقول⁵:

¹ يُنظر: عرجون، محمد الصادق: محمد رسول الله، مصدر سابق، ج1، ص212.

² العباس بن مرداس: ديوانه، ص120، وأبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ط1، مصدر سابق، ص297.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ج5، ص167.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص218-219.

⁵ العسقلاني، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، مج6، ص146.

(الكامل)

عُفْرًا تُوَجِّلَ لِسَنَ بِالْجَبَاتِ¹
وَعَلَيْهِ مَنِّي مَا بَقِيَتْ صَلَاتِي

أَعْطَاهُ أَحْمَدُ إِذْ أَتَاهُ أَعْنَزًا
بُورِكَنَ مِنْ مَنَحٍ وَبُورِكَ مَانِحٌ

هذه البركة من المعطي ومن العطاء نفسه عبّر عنها الشاعر لما رأى أثرها ؛حيث كانت
ترد هذه الأعنز في المساء شباعاً لبناً ببركة هذا النبي المبارك.

ويشهد ببركة الرسول أبو أيوب الأنصاري ومما روي قوله " كنا نصنع لرسول الله العشاء ثم
نبعث به إليه، فإذا ردّ علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة"².
وعاتكة بنت المطلب في رثائها الرسول (ﷺ) تبكي المبارك وتأتي على صفاته وتقول³:

(الكامل)

حَامِي الْحَقِيقَةِ ذَا الرَّشَادِ الْمُرْشِدِ

فَابْكِي الْمُبَارَكَ وَالْمَوْفِقَ ذَا التَّقَى

2- صورة خاتم النبيين:

الرسول محمد (ﷺ) خاتم الأنبياء والمرسلين به ختم الله عز وجل الرسل والأنبياء وختم
بشريعته جميع الشرائع السماوية ولهذا جاء في محكم كتابه، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ
مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ⁴ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا⁵﴾، وتأثر شعراء
صدر الإسلام بصورة خاتم الرسل والأنبياء فمنهم من عبّر عن ذلك معنوياً كما جاء في شعر
العباس بن مرداس⁵:

¹ الثوادل: عظام البطون.

² ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص499.

³ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص842 _ ص942، ومقابلة، زاید: عمات الرسول (ﷺ) (السيرة والشعر، مرجع
سابق، ص162.

⁴ سورة الأحزاب، آية 40.

⁵ العباس بن مرداس: الديوان، ص 122.

(البسيط)

يَا خَاتَمَ النَّبَاءِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ
بِالْحَقِّ كُلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُدَاكَ
إِنَّ إِلَهَ بَنِي عَلِيٍّ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ
فِي خَلْقِهِ وَمَحَمَّدًا سَمَّاكَ

صورة الرسول عند العباس هو خاتم الأنبياء أرسله الله بالحق والهدى لخير البشرية. وكذلك الصورة عند فاطمة الزهراء في رثائها للرسول (□) كانت تحمل بُعداً معنوياً تجلت بالصلاة عليه من الله منزل الفرقان فقالت¹:

(البسيط)

يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ الْمُبَارِكِ ضَوْءُهُ
صَلَّى عَلَيْكَ مُنْزِلَ الْفُرْقَانِ

إن الصورة التي رسمتها فاطمة الزهراء للرسول (□) بمناداتها له (يا خاتم الرسل) جمعت فيها الأثر الديني بوصفها له بالمبارك، وبالصلاة عليه من الله الذي أنزل الكتاب على رسوله المصطفى وجاءت الصورة حية معبرة ببركة النور الذي ظلَّ منتشرًا على العالم حتى بعد وفاته (□). وقد تحمل الصورة التي رُسمت لخاتم الأنبياء والرسول بُعداً مادياً عبّر عنه ابن الزعري في اعتذاريته للرسول (□) بعد أن أسلم فقال²:

(الكامل)

وَعَلَيْكَ مِنْ سَمَةِ الْمَلِكِ عَلَامَةٌ
نُورٌ أَغْرُ وَخَاتَمٌ مَخْتُومٌ
أَعْطَاكَ بَعْدَ مَحَبَّةٍ بُرْهَانَهُ
شَرْفًا وَبُرْهَانَ إِلَهِ عَظِيمٍ

صورة خاتم النبوة عبارة عن كتلة كبيضة الحمامة بين كتفيه علامة على نبوته وصدقه (□)، وأنه رسول من عند الله، فهي برهان من رب العالمين، وشرف عظيم لهذا الرسول وقد جاءت صورته وأوصافه من قبل في الكتب السماوية السابقة وجاءت هذه العلامة (ختم النبوة) تصديقاً لمبعثه.

¹ السهيلي: الروض الأنف، ج4، ص183. وابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، ج1، ص340.
² ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص419، وابن الزعري: الديوان، مصدر سابق، ص45-46. والجمحي، ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ج1، ص243. ومسعود، فريد الدين: روائع من أشعار الصحابة، تح عريف الدين معروف، القاهرة، دار الحديث، 2005 م، ص168، ص169.

كما أن حسان بن ثابت عبّر هو الآخر عن صورة ختم النبوة، وأن كل من رآه عرف بنبوته وقال حسان¹:

(الطويل)

أَغْرُ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلُوحُ وَيَشْهَدُ

صورة الرسول الأغر الذي تلوح في وجهه بشائر النبوة، إضافة إلى الخاتم الذي هو عبارة عن شامة خضراء أو سوداء محتفزة في اللحم، وقيل كغدة عند غضروف كتفه الأيسر² يلوح ويُشاهد، كما روي عن سلمان الفارسي - رضي الله عنه - عندما كشف له الرسول رداءه وقال انظر إلى ما أمرت به، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه كبيضة الحمامة³.

3- صورة صاحب الشفاعة:

الرسول (ﷺ) أكرمه الله بشفاعته للناس يوم القيامة عند القضاء والحساب وليس لأحد إلا له صلوات الله وسلامه عليه. والشفاعة هي المقام المحمود كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾⁴.

فغاية مأمول المسلمين أن يحصلوا على شفاعته (ﷺ)، يبتغون رضوان الله، ولهذا كانت أشعارهم تحمل صورة النبي الشفيع الذي اختصه الله بهذه الخصلة، فقد روى أبو هريرة _ رضي الله عنه _ قال، قال رسول الله (ﷺ) لكل نبي دعوة وأردت إن شاء الله أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة⁵، لهذا عبّر حسان بن ثابت عن ذلك بقوله⁶:

¹ حسان بن ثابت: الديوان، ص78.

² المصدر السابق، ص78.

³ يُنظر: البيهقي: دلائل النبوة، ج2، ص529، ص531، وابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص220، ص221، وابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ج1، ص338.

⁴ سورة الإسراء، آية 79.

⁵ صحيح مسلم، ج1، ص106.

⁶ حسان بن ثابت: الديوان، ص254.

(الطويل)

لَأَنَّهُمْ يَرْجُونَ مِنْهُ شَفَاعَةً إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا النَّبِيُّ شَافِعٌ

فالرسول هو صاحب الشفاعة، وهو رجاء كل مسلم عند الله أن ينال من شفاعته ولا يحرم منها، ولهذا جاء في قول آخر لحسان بن ثابت تأكيد على هذه الشفاعة وأن الرسول هو ناصرهم بقدرة الله فيقول¹:

(الطويل)

أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ لَا يَخْذُ لُونَهُ لَهُمْ نَاصِرٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَشَفِيعٌ

عَبَّرَ حسان عن التفاف المسلمين يوم أحد حول الرسول (ﷺ) ودفاعهم عنه، لأنهم يرجون شفاعته يوم القيامة ولا ييغون أي مكسب دنيوي أو شهرة أو مال.

ولعلّ هذا ما نلاحظه في التغيير الذي طرأ على الشعر في صدر الإسلام، إذ بدا واضحاً بعد دراسة كم هائل من هذا الشعر، النزعة الدينية التي طغت في أشعارهم وصورهم، وتأثرهم بالقرآن الكريم والسنة النبوية العطرة؛ وما ذاك إلا ابتغاء مرضاة الله ودفاعاً عن رسوله المصطفى (ﷺ).

وهذا عبد الله بن رواحة² - رضي الله عنه - يشهد أنه النبي (ﷺ) وهو الذي بقدرة الله سيشفع للناس يوم القيامة فيقول³:

(البسيط)

أَنْتَ النَّبِيُّ وَمَنْ يُحَرِّمُ شَفَاعَتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ فَقَدْ أَزْرَى بِهِ الْقَدْرُ

¹ حسان بن ثابت: الديوان، ص258.

² عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس من بني الحارث في يثرب، كان يُكنى بأبي محمد أو أبي رواحة وكان يقرأ ويكتب، قرض الشعر صغيراً، هاجر مع الرسول (ﷺ) إلى يثرب وآخى الرسول بين المهاجرين والأنصار، وآخى بين عبد الله ابن رواحة والمقداد بن عمرو. استشهد يوم مؤتة. ينظر: العسقلاني، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج2، ص306-307.

³ عبد الله بن رواحة: الديوان، ص84.

يؤكد عبد الله على أنه النبي بمخاطبته بضمير الخطاب (أنت) هو صاحب الشفاعة،
بدليل قوله من يحرم شفاعته فقد خسر يوم القيامة. وكذلك يأتي العباس بن مرداس على شفاعة
الرسول يوم الدين فيقول¹:

(الطويل)

أَمِينًا عَلَى الْفُرْقَانِ أَوَّلُ شَافِعٍ وَآخِرُ مَبْعُوثٍ يُجِيبُ الْمَلَأَكَا

صورة الرسول () عند العباس بن مرداس هو الأمين على الكتاب، وهو أول شافع
للمؤمنين يوم الحساب، وتظهر صورة الرسول الدينية باختيار الشاعر المعاني الإسلامية بما يخدم
الإسلام ويوسع دائرته، ومعظم المفردات السابقة معانيها مأخوذة من كتاب الله الكريم، وبهذا يختلف
الشاعر الإسلامي في صوره عن الشاعر الجاهلي؛ فشعره مسخر لخدمة العقيدة الإسلامية والرسول
()، ويتضمن هذا الحديث قول مازن بن الغضوبة² في قوله³:

(الطويل)

إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ خَبَّتْ مَطِيَّتِي تَجُوبُ الْفَيَافِي مِنْ عَمَّانَ إِلَى الْعَرَجِ
لِتَشْفَعَ لِي يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَا فَيَغْفِرَ لِي ذَنْبِي وَأَرْجِعَ بِالْفَلَجِ⁴

فانظر إلى صورة الرسول عند مازن، هي صورة الشفيع للأمة الذي يتمنى كل إنسان مؤمن
أن يحظى بهذه الشفاعة من هذا النبي العظيم .

4- صورة الهادي:

الهادي هو اسم من أسماء الله الحسنى، وتغيّر مفهوم هذه المفردة بعد انتشار الدين
الإسلامي في الجزيرة العربية، فقد كانت تعني قديماً (الهادي) أي الدليل والمرشد في الطريق، لكنها

¹ العباس بن مرداس: الديوان، ص 120-122.

² مازن بن الغضوبة بن عراب بن بشر بن خطامه بن سعد بن ثعلبة بن طيء علي الطائي، ثم النبهاني ذكره البيهقي في
الدلائل وذكر حديثاً طويلاً فيه: ... فكسرت الأصنام وقدمت على رسول الله وأسلمت ينظر العسقلاني، ابن حجر: الإصابة
في تمييز الصحابة، ج 5، ص 704.

³ البيهقي: دلائل النبوة، ج 2، ص 257.

⁴ الفلج: الظفر.

اتخذت أبعاداً دينية وأصبحت تعني الرسول (ﷺ) بكل ما تعنيه المفردة من معانٍ وآثار إسلامية. وكان توظيف الشعراء في صدر الإسلام لها بارزاً في أشعارهم، فهذا حسان في رثائه يمتدح الرسول (ﷺ) ويوضح في شعره صورة الرسول (الهادي) الذي لم تحمل أو تتجب أي امرأة في هذا الكون كما رسولنا (ﷺ) فيقول¹:

(البسيط)

تَاللّهِ مَا حَمَلَتْ أَنْثَى وَلَا وَضَعَتْ مِثْلَ الرَّسُولِ نَبِيَّ الْأُمَّةِ الْهَادِي

يتضح من قسم حسان بن ثابت أنه أراد أن يبين صورة الرسول (ﷺ) الذي حمل الهداية للناس جميعاً، حيث اختصه الله بها، هذا الرسول هو نبي الأمة وهاديها إلى طريق الحق.

وفي قصيدة أخرى تتضح معاني الهداية عند حسان من خلال تصوير الرسول (الهادي)، والمقابلة بين حال الضالين والمهتدين فيقول²:

(الطويل)

هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رَبُّهُمْ وَأَرْشَدَهُمْ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْحَقَّ يَرْشُدْ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا عَمَى وَهْدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدٍ

يبين حسان صورة الرسول المنقذ والمخلص للناس بعد أن غرقوا في ظلمات الجهل والكفر، ويقابل في البيت الثاني بين من بقي على ضلاله وكفره وعناده ومن اهتدى بهدي الرسول (ﷺ) فلا مجال للمقارنة بينهما.

ويأتي العباس بن مرداس بعد دخوله في الإسلام، وانضمامه إلى طريق الرسول الهادي فيقول³:

(الطويل)

وَأَنَا مَعَ الْهَادِي دِينَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَفِينَا وَلَمْ يَسْتَوْفِهَا مَعْشَرُ أَلْفَا

¹ حسان بن ثابت: الديوان، ص99.

² السابق، ص88.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص112، والعباس بن مرداس: الديوان، ص115.

وقد تتنوع مفردات الهداية ومشتقاتها، ونجد تباين الشعراء في استخدامهم لها، فتارة يعبرون باسم الفاعل (الهادي) وأخرى باسم المفعول (المهدي)، وثالثة تأتي مضافة (نبي الهدى).

وهذا ضرار بن الخطاب الفهري¹ اعتذر للرسول (ﷺ) يوم فتح مكة وأقر بنبوته وقال²:

(الخفيف)

يَا نَبِيَّ الْهُدَى إِلَيْكَ لَجَا حَيُّ قُرَيْشٍ وَلَاتَ حِينَ لَجَاءَ
حِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ سَعَةُ الْأَرْضِ ضِ وَعَادَاهُمْ إِلَهُ السَّمَاءِ

صورة الرسول عند ضرار جاءت مقترنة بالنبوة (نبي الهدى) فهو النبي والهادي والمرشد للناس جميعاً، وتظهر صورة الرسول مؤثرة، حيث يستغيث ضرار بالرسول ويقول إِنَّ قُرَيْشًا قَدْ لَجأت إِلَيْهِ الْيَوْمَ وَلَا مَلْجَأَ لَهُمْ سِوَاهُ، بعد أن ضاقت الأرض بهم وتخوفوا عذاب الله.

هذا الخوف والندم جاء أيضاً على لسان أبي سفيان³، وقد كان هجا الرسول (ﷺ) قبل إسلامه فما هو يُعبر باعتذارية هو الآخر ويصف حالته قبل أن يتبع الهادي ويقول⁴:

(الطويل)

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ أَحْمَلُ رَايَةَ لَتَغْلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدٍ
لَكَالْمُدْلِجِ الْحَيْرَانَ أَظْلَمَ لَيْلُهُ بَعِيدًا أَرْجَى حِينَ أَهْدَى وَأَهْتَدِي
هَدَانِي هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَقَادَنِي إِلَى اللَّهِ مَنْ طَرَدْتُ كُلَّ مُطَرِدٍ

¹ ضرار بن الخطاب الفهري: فارس، وشاعر، صحابي من القادة، قاتل المسلمين يوم أحد والخندق أشد قتال وأسلم يوم فتح مكة لم يكن في قريش أشعر منه، وله أخبار في فتح الشام واستشهد يوم وقعة أجنادين (...-13 هـ = 643م)، ينظر، الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، مج3، ص215.

² ضرار بن الخطاب الفهري: الديوان، جمع وتح وشرح فاروق سليم بن أحمد، ط1، بيروت، دارصادر للطباعة والنشر، 1996م، ص43-45، والعسقلاني، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، مج3، ص485.

³ أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف واسمه المغيرة، وأسلم يوم الفتح وحسن إسلامه، وأتى النبي ينشده ويعتذر له عما كان منه، ينظر: المازني: معجم الشعراء، مج1، ص334.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ج2، ص401، والطبري: تاريخ الأمم والملوك ج2، ص329. والجمحي، ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ص96، وحسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص6.

صورة الرسول (ﷺ) الهادي والمرشد للطريق الذي انتشل أبا سفيان من ظلامه، صورة قريبة من المعنى القديم للهادي؛ ذلك أن أبا سفيان حديث العهد بالإسلام، لكنه يعبر أن هذا الهادي والمرشد هو من غير نفسه وقاده إلى بر الأمان، وعرفه طريق الله عز وجل.

وأُنتشد المرزباني في معجمه للطفيل بن عمرو¹ يخاطب قريشاً، وكانوا هددوه لما أسلم فقال²:

(الوافر)

بِأَنَّ اللَّهَ رَبَّ النَّاسِ فَردُّ تَعَالَى جَدَّهُ عَنْ كُلِّ نَدٍّ
وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدٌ رَسُولٌ دَلِيلٌ هُدًى وَمَوْضِحٌ كُلِّ رُشْدٍ

يصور الرسول محمد (ﷺ) هو عبد الله ورسوله دليل هدى أنار الطريق للمسلمين، ووضح لهم سبل النجاة من عذاب الله. وفي ذلك أيضاً يبين مالك بن نمط أن هذا الرسول مهتد، مرسل لهم من رب العرش جاءهم بالهداية فقال³:

(الطويل)

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مِنًى صَوَادِرَ بِالرُّكْبَانِ مِنْ هَضْبٍ قَرْدٍ⁴
بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ فِينَا مُصَدِّقٌ رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُهْتَدٍ

هذا الرسول الصادق أتى من رب العرش العظيم هداية للبشرية جمعاء، والحق وحده يحمله في نفسه دليل صدقه وهذا يرجح نوازع الهداية على غيره، وبرهان يعين على تصديق الحق ومجانبة الباطل⁵، وكثير من الشعراء من جاءت صورة الرسول (ﷺ) معبرة عن عاطفة صادقة، وتصور

¹ الطفيل بن عمرو بن طريف بن ثعلبة بن سليم بن دوس، كان سيداً من سادة العرب وسيد قبيلة دوس في الجاهلية، قدم إلى مكة للحج، واستقبلته قريش ولقي الرسول (ﷺ) وأسلم على يديه وشهد مع الرسول الخندق وفتح مكة. يُنظر: العسقلاني، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج12، ص215. والذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، ج1، ص344.

² ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، مج3، ص523. والصفدي، صلاح الدين بن خليل أيبك: الوافي بالوفيات، ج16، ص264.

³ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، مج5، ص754.

⁴ صوادر: رواجع، قردد: ما ارتفع من الأرض

⁵ يُنظر: أبو زهرة، محمد: خاتم النبیین (ﷺ)، تح عبد الله بن ابراهيم الأنصاري، (د.ط)، قطر، دار إحياء التراث الإسلامي، ج1، ص417.

هداية الله لهم على يد الرسول الهادي صلوات الله وسلامه عليه، كما جاء على لسان عمرو بن الجموح¹ حين أسلم وعرف من الله ما عرف فقال²:

(الرجز)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ ذِي الْمَنَنِ الْوَاهِبِ الرَّزَّاقِ دَيَّانِ الدِّينِ
هُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ قَبْلِ أَنْ أَكُونَ فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ مُرْتَهَنَ
بِأَحْمَدَ الْمَهْدِيِّ النَّبِيِّ الْمُرْتَهَنِ

الشاعر يشكر الله على أن أنقذه من الضلال والعمى الذي كان يتخبط فيه، ويتضح الصديق الفني الذي عبر به الشاعر عن صورته قبل أن يجتمع في قبر موحش مع ظلام الكفر، وظلام القبر، وتشتد الصورة وأثرها في نفسه حتى يأتي أحمد المهدي () فينقذه من هذه الظلمة الموحشة.

وهذا يُشير إلى إيمان صادق وعقيدة صحيحة مؤمنة بالله ومصدقته برسوله الهادي. ولا يبتعد النابغة الجعدي³ عن باقي الشعراء، سوى أنه يُصور الرسول ()، بمن جاء بالهدى وهو يُعرب عن متابعتة له وتأيينه، فيقول⁴:

(الطويل)

تَبِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَيَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نِيرًا

¹ عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزديد بن جشم بن آل الخزرج الأنصاري السلمي، كان سيد بني سلمة أسلم متأخراً ولم يشهد بدراً، وكان أعرج ولماً خرجوا يوم أحد منعه بنوه، فأتى الرسول () ورخص له الرسول لعل الله يرزقه الشهادة وقاتل حتى قتل. ينظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص253-255.

² ابن كثير: البداية والنهاية، ج4، ص413.

³ النابغة الجعدي: هو أبو ليلى عبد الله بن قيس بن عدس بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن قيس بن عيلان، صحابي شاعر، قصائده متميزة بالروح الإسلامية، أنشد النبي وقال له الرسول: "لايفضض الله فاك" ويقال عاش مائة وعشرين سنة وقيل ثمانين سنة وقيل أكثر ولقب بالنابغة لأنه سكت عن الشعر ثلاثين سنة ثم نبغ في قوله في الإسلام (670م-50هـ). ينظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج3، ص178.

⁴ النابغة الجعدي: شعره، ط1، دمشق، منشورات المكتب الإسلامي، ص36.

فالرسول (ﷺ) هو من حمل لواء الهداية، وهو من صَبَرَ وتحمل لأجل تبليغ الرسالة وقد عزَّزه الله بدليل ساقه في دعوته هو القرآن الكريم. وهو واضح وضوح الأجرام والكواكب النيرة في السماء الذي فاق بيانه كل بيان وعلا أن يتسامى إليه إنسان¹.

وفي رثاء الرسول (ﷺ) يَفْتَقِد الشعراء هذا النبي الهادي، وتختلط صفات الممدوح بالمرثي كما جاء على لسان صفة بنت المطلب في قولها²:

(الطويل)

أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنْتَ رَجَاءَنَا وَكُنْتَ بِنَا بَرًّا وَلَمْ تَكُ جَافِيَا
وَكُنْتَ رَحِيمًا هَادِيًا وَمُعَلِّمًا لِيَبْكُ عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيًا

من الصفات والصور التي رسمتها لابن أخيها محمد (ﷺ)، صورة المعلم الهادي، الذي استطاع بصبره ولين جانبه أن يجمع الأمة على كلمة الحق والإسلام، فالهداية والدعوة لا تكون إلا فيمن اجتمعت فيه صفات الرسول (ﷺ)، وكانت صفة مثال المرأة المؤمنة التي عبرت بشعرها ورسمت أنصع صورها وأصدقها من خلال وجودها الفاعل في المجتمع كامرأة مسلمة³.

ويُكرّر الزبيرقان بن بدر⁴ في رثائه الرسول، صورة الرسول الهادي أكثر من مرة في شعره فيقول⁵:

(السريع)

آلَيْتُ لَا أَبْكِي عَلَى هَالِكِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرَ الْأَنَامِ
بَعْدَ الَّذِي كَانَ لَنَا هَادِيًا مِنْ حَيْرَةٍ كَانَتْ وَبَدْرِ الظَّلَامِ

¹ يُنظر: أبو زهرة: محمد، خاتم النبيين (ﷺ)، تح عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، مرجع سابق، ص416.

² ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص248، ومقابلة، زايد: عمات الرسول (ﷺ) السيرة والشعر، ص94.

³ يُنظر: يعقوب، عبد الكريم، وأمين أحمد حميدوش: صورة الإنسان المؤمن في الشعر بين صدر الإسلام والعصر الأموي، مرجع سابق، ص13.

⁴ الزبيرقان بن بدر بن امرئ القيس بن خلف بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن تميم البهذلي التميمي السعدي، يكنى أبا عياش وقيل أبا شذرة وفد على الرسول (ﷺ) في قومه وكان أحد سادتهم فأسلموا سنة تسع وولاه رسول الله (ﷺ) صدقات قومه والزبيرقان لقب له والزبيرقان القمر وقيل اسمه بدر، يُنظر: العسقلاني، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، مج1، ص543، والصفدي: الوافي بالوفيات، ج14، ص173-174.

⁵ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج14، ص174.

يَا مُبْلَغِ الْأَخْبَارِ عَنْ رَبِّهِ
وَهَادِي النَّاسِ إِلَى رُشْدِهِمْ
أَنْتَ الَّذِي اسْتَنْقَذْتَنَا بَعْدَمَا
فِينَا وَيَا مُحْيِي لَيْلِ التَّمَامِ
وَشَارِعَ الْحِلِّ لَهُمْ وَالْحَرَامِ
كُنَّا عَلَى مَهْوَاةٍ جُرْفٍ قِيَامِ

يظهر من الأبيات تفجع الشاعر وتحسره على فقد الحبيب المصطفى (ﷺ)؛ فقد أقسم ألا يبكي على أحد بعد رسول الله (ﷺ) وهو خير الأنام، فهو الذي كان هاديهم ومرشدهم وهو الذي كالبدل في نوره عليهم، بدد ظلماتهم وأشرق بنور الإسلام والهدى وشرع لهم الحل والحرام ودخل نور الهدى نفوسهم وساروا على نهجه. والصورة عند الزبرقان تبلغ ذروتها في تصوير الهادي، المنقذ لهم في آخر بيت حيث أنقذهم من الهلاك بعدما كانوا على شفا حفرة منها. لذلك نراه يتأثر بالآية، قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾¹.

5- صورة النبي والرسول:

تردد ذكر النبي والرسول في أشعار صدر الإسلام كثيراً، وتحول الشعراء من الفخر بالأسماء والأنساب كما كانوا في الجاهلية إلى الفخر بالرسول العظيم، صاحب الرسالة السماوية، وبدا هذا التحول من خلال وصف الرسول وإحاطته بهالة من التقديس والإجلال؛ ذلك أنهم رأوا فيه المنقذ والمخلص من براثن الكفر والضلال. وكانت مفردة الرسول أخص من النبي، فالرسول هو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه والعمل به، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا²، ومما يجدر قوله هنا، إن الله سبحانه وتعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم فقال تعالى: يا نوح، يا آدم، يا موسى، يا عيسى ... ولم يخاطب محمد (ﷺ) إلا بقوله: " يا أيها النبي، يا أيها الرسول، يا أيها المدثر ... فكيف بدت صورة الرسول أو النبي الدينية عند شعراء تلك الفترة؟

¹ سورة آل عمران، آية 103.

² ينظر: ابن تيمية، أحمد بن العباس: النبوات، بيروت، دار الكتب العلمية، 1982، ص184. وينظر: مجموع فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين، مج 1، باب الرسل، 28 ذو الحجة 1427، (2007/10/18)

تراوح استخدام الشعراء لهاتين المفردتين، فبعضهم استخدم (النبي) كثيراً كما جاء في شعر العباس بن مرداس¹:

(الوافر)

فَهُنَاكَ إِذْ نُصِرَ النَّبِيُّ بِالْفَنَاءِ عَقَدَ النَّبِيُّ لَنَا لَوَاءً يَلْمَعُ
وَعَدَاةَ نَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ جَنَاحُهُ بِيَّطَاحِ مَكَّةَ وَالْقَنَاءِ يَتَهَزَّعُ²

يؤكد العباس على صورة (النبي) الدينية، فذكرها ثلاث مرات في البيتين السابقين، وأراد باستخدامه (النبي) أن يظهر صورة النبي صاحب الرسالة وتأييد المسلمين له والتفافهم حول جناح راية الإسلام.

وأما عبد الله بن الزبيري فقد عبّر عن إيمانه الصادق بهذا النبي العظيم فقال³:

(الكامل)

فَالْيَوْمَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ قَلْبِي وَمُخْطِئِي هَذِهِ مَحْرُومٍ

اختار عبد الله (النبي محمداً) ليعبر عن الندم العميق عما بدر منه في الأيام الماضية وهو إذ يعلن توبته أمام الرسول (ﷺ) يعرب عن إيمان قلبه وجوارحه بالنبي، والمحروم من حرم هذا ولم يهتد.

وبهذا المعنى يقول أبو طالب عم الرسول (ﷺ)⁴:

(الطويل)

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا نَبِيًّا كَمُوسَى خُطِّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ

¹ ابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص104، والعباس بن مرداس: ديوانه، ص77.

² القنا: جمع قناة وهو الرمح، يتهزج: من (هزج) اهترأ وتكسر.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص419، ومسعود، فريد الدين: روائع من أشعار الصحابة، مرجع سابق ص168، ص169، وابن الزبيري: الديوان، ص45، ص46. والجمحي، ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ج1، ص243.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص378. والتتوحي، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي (ﷺ)، ص27.

صورة محمد (النبي) عند أبي طالب كباقي الأنبياء السابقين من أمثال موسى عليه السلام وعيسى وغيرهما، هذا النبي ذُكر وكتب في كُتب الأنبياء السابقين ولهذا يُذكر أبو طالب قريشاً بعاقبة عدوانهم له وإنكارهم لنبوته.

وهو النبي صاحب الشفاعة، خصّه الله بها دون سائر الأنبياء في قول عبد الله بن رواحه¹:

(البسيط)

إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرِفُهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ مَا خَانَنِي الْبَصَرُ
أَنْتَ النَّبِيُّ وَمَنْ يُحَرِّمُ شَفَاعَتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ فَقَدْ أَرَى بِهِ الْقَدْرَ

وهو النبي المؤيد من رب العالمين في عُرف كعب بن مالك²:

(الوافر)

أَرَى اللَّهَ النَّبِيَّ بِرَأْيٍ صِدْقٍ وَكَانَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَا يَجُورُ

الصورة التي رسمها كعب للرسول (□) هي صورة النبي الموحى إليه من ربه، والمكلف بتنفيذ أوامره سبحانه، وهنا القصة تدور حول مقتل كعب بن الأشرف الذي كان يحرض على الرسول ويشبب بنساء المسلمين، حتى نزل حكم الله فيه، وقضى النبي بما أمره الله به³.

وهذا لا يعني عدم استخدام الشعراء لمفردة الرسول، بل وجدت الباحثة أن توظيف كلمة الرسول كان أكثر شيوعاً من النبي من خلال استقراء الشعر في صدر الإسلام في مختلف الأغراض الشعرية، فهذا أبو طالب في معرض مدحه الرسول (□) يقول⁴:

(البسيط)

أَنْتَ الرَّسُولُ رَسُولُ اللَّهِ نَعْلَمُهُ عَلَيْكَ نُزْلَ مَنْ ذِي الْعِزَّةِ الْكُتُبِ

¹ عبد الله بن رواحة: الديوان، ص84.

² ابن هشام: السيرة النبوية، ج 3، ص209، ص210، وكعب بن مالك: الديوان، ص45.

³ يُنظر: مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، ج2، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1977، ص106.

⁴ التتويجي، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي، ص21.

يخص أبو طالب محمداً بالرسالة، وبخاطبه ويؤكد بقوله له أنه الرسول المنزل عليه الكتاب من صاحب العزة والجلالة.

وحسان بن ثابت يوظف مفردة الرسول في أشعاره كثيراً ويقول¹:

(البسيط)

فِينَا الرَّسُولُ وَفِينَا الْحَقُّ نَتَّبِعُهُ حَتَّى الْمَمَاتِ وَنَصْرٌ غَيْرَ مَحْدُودٍ

صورة الرسول عند حسان صورة الحق والبرهان، اصطفاه الله من أوسطهم لحمل الأمانة، فهم يتبعونه حتى الممات وينصرونه على الدوام.

والصورة عند كعب بن مالك - رضي الله عنه - كما هي عند حسان، لكن الرسول هو شهاب مضيء له فضل على الشهب كما يقول²:

(البسيط)

فِينَا الرَّسُولُ شِهَابٌ ثُمَّ يَتَّبِعُهُ نُورٌ مُضِيءٌ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشُّهُبِ

يمتدح كعب بن مالك صورة الرسول ويصوره بالشهاب الذي يتبعه نور يغطي على باقي الكواكب، والصورة عند كعب شديدة التأثير بمعاني القرآن الكريم. وتعبر صفية بنت المطلب في رثائها ابن أخيها الرسول (ﷺ) عن حزنها الذي خلفه فقده وتقول³:

(الطويل)

لَفَقَدِ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ حَانَ يَوْمُهُ فَيَا عَيْنَ جُودِي بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ⁴

صورة غياب وفقد الرسول (ﷺ) عند صفية بنت المطلب، صورة حزينة إذ جاء الأجل وغيب الحبيب المصطفى.

¹ حسان بن ثابت: الديوان، ص81.

² كعب بن مالك: الديوان، ص25.

³ العسقلاني، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج8، ص215. ومقابلة، زايد: عمات الرسول (ﷺ) (السيرة والشعر، ص91.

⁴ الدموع السَّوَاجِم: سجمت العين الدمع: أسالته وصبته.

ودار اسم رسول الله في كثير من قصائد الشعراء، فهذا أنس بن زعيم يذكر رسول الله في اعتذاريته ويكررها فيقول¹:

(الطويل)

تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي	وَأَنَّ وَعَيْدًا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ
تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٌ	عَلَى كُلِّ صِرْمٍ مُتْهِمٍ وَمَنْجَدٍ ²

إنَّ أنس بن زعيم يخص الرسول، ويضيف إليه لفظ الجلالة تقديرًا وإجلالاً له، فالمقام يستوجب من أنس أن يستعطف الرسول ويؤكد له إقراره بحقيقة قدرته الوصول إليه أينما كان.

وفي ذات السياق يُعبر ابن الزبيري هو الآخر عن توبته الصادقة، ويُقر بما اقترف لسانه في حق الرسول (ﷺ) والمسلمين فيقول³:

(الخفيف)

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِسَانِي	رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُور
إِذْ أَبَارِي الشَّيْطَانَ فِي سُنَنِ الْغِي	وَمَنْ مَالٍ مِثْلَهُ مَثْبُور

فلماذا لم يقل الشاعر يا نبي الله؟ لقد اختار أن يبدأ اعتذاره باسم "رسول الله" لما لذلك وقع وتأثير في النفس خاصةً عند الرسول (ﷺ)، فسرعان ما يندمج عبد الله بن الزبيري في الحياة الإسلامية ويفهم الدين الجديد ومعانيه⁴، لذلك يختار أن يضمن أبياته المفردات والتعابير الإسلامية مثل (رسول الله).

¹ ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص424. والعسقلاني، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، مج3، ص4-5. والواقدي: المغازي، ج2، ص790-791.

² في المغازي ترد بصيغة أخرى: تعلم رسول الله أنك قادرٌ على كل سكن من تهام ومنجد. وصرم: بيوت مجتمعة، متهمن: ساكنين في التهام وهي المنخفض من الأرض، والمنجد: من يسكن النجد وهو المرتفع، يُنظر: الواقدي: المغازي، ج2، ص790-791.

³ العسقلاني، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، مج4، ص88. وابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص419. وابن الزبيري: الديوان، ص35-36. مع الاختلاف في هذين المصدرين: يارسول الملوك.

⁴ يُنظر، عبد الله بن الزبيري: الديوان، مصدر سابق، ص18.

وهذا كعب بن زهير بعد أن دخل الإسلام قلبه، نراه يتأثر بصورة الرسول ويظهر ذلك في شعره قائلاً¹:

(الطويل)

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ نَتَّبِعُ أَمْرَهُ إِذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلَ لَا نَتَطَّلَعُ
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا بَدَا لَنَا ذُرُوا عَنْكُمْ هَوْلَ الْمَنِيَّاتِ وَاجْمَعُوا

الصورة عند كعب بن زهير مرتبطة بلفظ الجلالة فالرسول هو "رسول الله" البشير والنذير من عند الله للأمة جمعاء، ونجد الكثير من الشعراء وظف هذا التركيب ليدل على ارتباط المسلمين بطاعته وامثالهم لأوامره خاصة أولئك الشعراء ممن وقفوا منه موقف العداء قبل أن يستقر الإيمان في قلوبهم.

وقد عبّر الشعراء عن صورة الرسول باقترانها بصورة (المليك) كما فعل حسان في قوله²:

(المتقارب)

فَلَمَّا أَتَانَا رَسُولَ الْمَلِكِ بِالنُّورِ وَالْحَقِّ بَعْدَ الظُّلُمِ
وَقُلْنَا صَدَقْتَ رَسُولَ الْمَلِكِ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَفِينَا أَقِم

اتسمت صورة الرسول (□) عند حسان بالطابع الديني إلى حد كبير، فهو رسول المليك وهو الله، المرسل بالحق والنور لهداية الناس. لهذا يكرر العبارة في البيت الثاني ويعرب عن تصديقهم للرسول (□) وترحيبهم بإقامته فيهم.

كذلك يتحدث كعب بن مالك ويوجه الحديث إلى ابن الزبعرى الذي هجا الرسول (□) ويقول³:

(المتقارب)

تَبَجَّسْتَ تَهْجُو رَسُولَ الْمَلِكِ قَاتَلَكَ اللَّهُ جَافًا لَعِينًا⁴

¹ كعب بن زهير: الديوان، مصدر سابق، ص224. ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص140-141.

² حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص375.

³ كعب بن مالك: الديوان، مصدر سابق، ص277. وابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص169.

⁴ تَبَجَّسْتَ: انفجرت، جلفاً: فظاً غليظاً قاسياً جافياً.

ففي هجاء كعب لابن الزبيري يُصور كعب الرسول (ﷺ) رسول الملك المنزه عن كل فحش وباطل، ويتوعد ابن الزبيري بعقاب شديد من الله.

إن النعوت التي نقع عليها لمحمد (ﷺ)، كثيرة وتختلف باختلاف القائلين والمواقف الداعية لهم، كما في أحمد والمصطفى والهادي والنبي المرسل ورسول الملك، لكن أحفل النعوت كما يؤكد الحنوبى بالرعاية والذكر هما نعتا الرسول ورسول الله، فهما من المأثور الذي لا مناص من ذكره، فضلاً عن شيوعهما لدى الشعراء، واجتماع كثير من الناس على توظيفهما لبيان صورة الرسول الدينية على أكمل وجه، كما أرادها الخالق جلّ وعلا¹.

* الصورة الشخصية للرسول (ﷺ):

كان الحديث عن صورة الرسول (ﷺ) عند المسلمين في السابق قد توقف عند الصورة الدينية للمصطفى (ﷺ)، ولاستكمال هذه الصورة وجب التوقف عند صورته (ﷺ) من ناحية مادية، فصورة الرسول الشخصية عند المسلمين لم تظهر في الشعر كما بدت الصورة المعنوية، ولعل ذلك مرده أسباب منها أن الله سبحانه وتعالى أراد لنا أن نبقى على هيبة واحترام وإجلال لهذا النبي الكريم، فلا تقترب من ملامحه الخاصة إلا بمقدار، بل إن القرآن الكريم لم يتطرق لهذه الملامح الشكلية في آياته، واكتفى أن أرشدنا إلى كثير من صفاته المعنوية كالصدق والأمانة وغيرها، لكن هذا لا يعني أنه لم تكن هناك صورة رسمها الشعراء ممن عاصروا الرسول (ﷺ) لملامحه وهيئته بشكل عام، فقد ظهرت صورة الرسول (ﷺ) الشخصية من خلال وصفه بالأغرّ، والأزهر، والأبيض، وكذلك صورة البدر التي استرعت انتباه الباحثة، فكان لزاماً أن يكون لها نصيب من الدراسة والبحث في الصفحات القادمة. إن الصورة الجمالية التي وصلتنا عن طريق كتب السيرة والتاريخ، وما رواه الصحابة، تعرض في أكثرها لصورة وجه الرسول (ﷺ) من خلال وصفه بالوضاء والنور وغيرها، وهذا الطفيل - رضي الله عنه - يقول: "كان رسول الله (ﷺ) أبيض مليح الوجه"²، وكذلك ما رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه -: "كان رسول الله (ﷺ)

¹ ينظر: الحنوبى، علي محمد: شخصية الرسول الكريم في شعر السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، ص378.

² صحيح مسلم، ج2، مصدر سابق، ص331.

ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، وليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم، ولا بالجعد القطط ولا بالسبط¹. ولعل النساء أكثر دقة وبراعة في تصوير الشكل، ونقل الصورة بشفافية عالية؛ كما نقلتها أم معبد لنا حين سألتها زوجها أن تصف الرجل الذي بارك في عنزته وحلب وشرب وأسقاهاهم ولم يكن إذ ذاك موجوداً قالت: "رأيت رجلاً ظاهر الوضاعة، حسن الخلق، مليح الوجه، لم تُعبه تجلة² ولم تُزر به صعلة³، قسيم وسيم⁴، في عينيه دعج وفي أشفاره وطف⁵، أكحل أزج أقرن⁶، إذا صمت عليه الوقار، وإذا تكلم سما، وعلاه البهاء، حلو المنطق، فصل لا نزر، ولا هذر⁷ منطق خرزات نظم يتحدثون، أبهى الناس وأجملهم من بعيد، وأحسنهم من قريب، له رفقاء يحفون به، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره، فقال بعلها: هذا والله صاحب قريش الذي تطلب⁸.

أ- صورة الأغر، الأزهر، الأبيض:

الصورة التي رسمت للرسول (ﷺ) تتحصر في صفات ثلاث، وكلها تدور في فلك واحد يؤدي معنى الإشراق والوضوح، فكان تصوير الرسول (ﷺ) بالضياء والنور هو المحور الرئيس الذي دارت معظم قصائد الشعراء حوله، حيث كان الضوء والصوت هو أهم ما لفت نظر الإنسان قديماً وحظياً باهتمامه⁹، لقد فتح أبو طالب باب الحديث عن محمد (ﷺ) وصفاته وطبيعته العلاقة به، فصوره بالأبيض المبارك في قوله¹⁰:

¹ صحيح مسلم، ج2، مصدر سابق، ص333.

² الوضاعة: الحسن والنظافة والبهجة التجلة: ضخامة البطن.

³ الصعلة: صغر الرأس.

⁴ قسيم وسيم: القسامة والحسن.

⁵ دعج: شدة سواد العين وشدة بياضه. الأشفار: منبت شعر الأُفجان. الوطف: الطول، أي في شعر أُفجانه طول.

⁶ أزج: تقوس في الحاجب مع طول في طرفه. أقرن: مقرون الحاجبين.

⁷ المنطق: الكلام. فصل: يفصل بين كلامه، وكلامه ظاهر بين. نزر: قليل. هذر: كثير رديء.

⁸ صحيح مسلم، ج2، مصدر سابق، ص331-333. وأبو زهرة، محمد: خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، مصدر سابق، ص630.

⁹ البغدادي، مريم: ظاهرة الضوء جمالياً في الشعر الجاهلي، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (الآداب والعلوم الإنسانية)، ع9، 1414هـ، ص364.

¹⁰ الهيثمي، محمد: المنح المكية في شرح الهمزية، ج1، ص286. والتتويجي، محمد: ديوان أبي طالب عم الرسول (ﷺ)، ص67.

(الطويل)

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ
ثَمَالَ الْيَتَامُضَى عَصْمَةً لِلْأَرَامِلِ

كانت الصورة قد رُسمت للرسول (ﷺ) قبل الإسلام، وها هو أبو طالب يصوره بالأغر مخاطباً علياً ابنه الذي كان يبيت في فراش الرسول خوفاً على حياته ويقول¹:

(الخفيف)

لِفِدَاءِ الْأَغَرِّ ذِي الْحَسَبِ
الثَّقِيبِ وَالْبَاعِ وَالْفَنَاءِ الرَّجِيبِ

وظهرت الصورة أيضاً عند قطن بن حارثة الذي صوره بالبدر الأغر فقال²:

(الطويل)

أَغَرُّ كَأَنَّ الْبَدْرَ سِنَّةً وَجْهِهِ
إِذَا مَا بَدَا لِلنَّاسِ فِي حُلِّ الْعَصَبِ

حيث ارتبطت صورة البدر الأغر مع صورة الكريم الذي يحتاجه الناس وقت الشدائد كما البدر في الليالي المظلمة³.

ويأتي عبد الله بن الزبير على علامات نبوة الرسول (ﷺ) فيصوره بالنور الأغر فيقول⁴:

(الكامل)

وَعَلَيْكَ مِنْ سِمَةِ الْمَلِكِ عِلَامَةٌ
نُورٌ أَغَرُّ وَخَاتَمٌ مَخْتُومٌ

يلاحظ على الشعراء السابقين رصدتهم درجة نور القمر ولونه ووصفه بالأغر، كذلك وصفوا الرسول (ﷺ) بالأزهر، جاء ذلك على لسان كعب بن مالك في قوله⁵:

¹ علي بن أبي طالب: الديوان، ص125-126.

² المرزباني: معجم الشعراء، ص189. وابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج4، ص389.

³ وقفت الباحثة على شرح هذا البيت في عرضها لصورة الرسول (ﷺ) الكريم، يُنظر الفصل الثاني من الدراسة، ص56.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص420. ومسعود، فريد الدين: روائع من أشعار الصحابة، مصدر سابق، ص169. وابن

الزبير: الديوان، مصدر سابق، ص45-46، والجمحي ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ج1، ص243.

⁵ كعب بن مالك: الديوان، مصدر سابق، ص28.

(الكامل)

وَمَوَاعِظٌ مِنْ رَبِّنا تَهْدِي بِهَا بِلِسَانِ أَزْهَرَ طَيِّبِ الْأَثْوَابِ¹

يصف كعب الرسول (ﷺ) بالأزهر أي الأبيض، وقد ذكرنا سابقاً كيف رسم أبو طالب هذه الصورة للرسول وسار على نهجه الشعراء باستخدامهم المعنى نفسه، وإن كان هناك اختلاف في اللفظ أحياناً وكل ذلك دلالة على بياض بشرة الرسول (ﷺ) وهذا يؤكد الطفيل - رضي الله عنه - بقوله " كان رسول الله (ﷺ) أبيض مليح الوجه"².

حتى عاتكة بنت المطلب في رثائها النبي (ﷺ) تصوّره بالأزهر، المنزه عن كل عيب أو نقص فنقول³:

(البسيط)

مِنْ فَقْدِ أَزْهَرِ صَافِي الْخَلْقِ ذِي فَخْرٍ صَافٍ مِنَ الْعَيْبِ وَالْعَاهَاتِ وَالزُّورِ

فهي تُسبغ عليه جملة من الصفات التي منها الأزهر صافي الخلق، هذا البياض عبرت عنه الشاعرة بعد وفاة الرسول (ﷺ)؛ كناية عن طهارة ابن أخيها الرسول العظيم ونقاؤه، ولجأت إلى استخدام صورة الأزهر لما تُوحيه المفردة من الكمال والوضوح والبياض وكأنّها بغيابه وفقده فقدت الضوء والنور.

وورد وصف النبي (ﷺ) بالأبلج (مُشرق الوجه) في قول عمرو بن مرة الجهني⁴ عندما وفد إليه مع قومه يريدون الإسلام فقال⁵:

¹ الأزهر: الأبيض اللون، طيب الأثواب: كناية عن عفة لسان النبي (ﷺ).

² صحيح مسلم، ج2، ص331.

³ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص 842، وزايد، مقابلة: عمات الرسول (ﷺ)، السيرة والشعر، ص164.

⁴ عمرو بن مرة الجهني، بن عباس بن مالك بن الحارث بن رفاعة بن قيس بن جهنة، وكنيته أبا مريم صاحب الرسول (ﷺ) ومات بالشام يُنظر: المزي، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف: تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، تح عبد الصمد شرف الدين، المكتبة الإسلامية والدار القيمة، ط2، 1982 م، ج10، ص22.

⁵ ابن كثير: البداية والنهاية، ج2، ص353.

(الطويل)

تَبَلَّجَ مِنْهُ اللَّوْنُ وَازْدَادَ وَجْهُهُ
كَمَثَلِ ضِيَاءِ الْبَدْرِ بَيْنَ الزُّوَاهِرِ

صورة وجه الرسول (ﷺ) مشرق منير على الكون، وشبهه الشاعر بالبدر بين الكواكب الذي غطى نوره ضوءها.

هذه الصورة نقودنا إلى القسم الثاني وهو صورة البدر التي ظهرت عند كثير من الشعراء كما سيأتي.

ب- صورة البدر:

تعددت وتنوعت دون أن تخرج من طبيعة القصيدة ونطاقها؛ ذلك أن الشاعر يرسم صورة للقمر من خلال عناصر الطبيعة المحيطة وواقع حياته اليومية والبيئية، لذلك نرى القمر مصدراً لكثير من الصور الشعرية التي تتطوي على دلالات حملت مكنونات الشاعر النفسية وأحاسيسه الداخلية وعبر عنها بشعره في شتى المجالات¹. فهذا العباس بن عبد المطلب² يفتخر بنصرهم الرسول (ﷺ) في غزوة حنين، ويشبهه بالبدر وهم من حوله يحيطون به كالنجوم ويقول³:

(الطويل)

نَصَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ كَالْبَدْرِ تَسْعَةً
وَقَدْ فَرَّ مَنْ قَدْ فَرَّ عَنْهُ وَأَقْشَعُوا⁴
حَنُوتُ إِلَيْهِ حِينَ لَا يَحْنَأُ أَمْرُ
عَلَى بَكْرِهِ وَالْمَوْتُ فِي الْقَوْمِ مُقْتَعٌ

ونجد كثيراً من التقارب ما بين صورة العباس وصورة علي بن أبي طالب الذي صوّر فيها الرسول بينهم بالبدر فقال⁵:

¹ ينظر: اشتية، فؤاد يوسف اسماعيل: القمر في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص144.

² العباس بن عبد المطلب، أبو الفضل عم الرسول (ﷺ) من معدوي خطباء قريش وبلغائهم، وذوي الفضل منهم، وقد ولد قبل ولادة الرسول (ﷺ) بسنتين ومات في أواخر خلافة عثمان - رضي الله عنه - وله يوم حنين حيث أبلى بلاءً حسناً مع رسول الله (ﷺ) (ت: 32هـ). ينظر، المرزباني: معجم الشعراء، مج1، ص146.

³ المرزباني: معجم الشعراء، مج1، ص146.

⁴ أقشعوا: تفرقوا عن المكان.

⁵ علي بن أبي طالب: الديوان، مصدر سابق، ص114.

(الطويل)

وَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ كَالْبَدْرِ بَيْنَنَا بِهِ كَشَفَ اللَّهُ الْعِدَى بِالتَّاسِ

ومن يقرأ ديوان الصديق - رضي الله عنه - يجد صورة للرسول (□) أشد وضوحاً
وجملاً من سابقه فيقول¹:

(الكامل)

وَاللَّهُ يَنْصُرُنَا وَأَحْمَدُ وَسْطُنَا كَالْبَدْرِ أَنْصَفَ وَهُوَ لَيْسَ بِكَاسِفٍ

إنَّ صورة الرسول عند أبي بكر الصديق كصورة البدر مكتملاً وسط السماء وبين النجوم
والكواكب، لا يعتريه الكسوف ولا يصيبه. وهكذا كانت صورته ما بين المسلمين وقت المعارك
والحروب، فكان النصر حليفهم بإذن الله وهو معهم.

وهذا عمرو بن سالم الخزاعي² يعبر عن شجاعة الرسول (□) ونصره لهم ويصفه
قائلاً³:

(الرجز)

فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا أَبْيَضَ مِثْلَ الْبَدْرِ يَنْمِي صُعْدَا

صورة الرسول عند عمرو الخزاعي أبيض لامع كالبدر وسط السماء، وقد ارتبطت صورة
البدر في فكر الشاعر - لعلها - ببعض ما ترسبت في أذهان القدماء من معتقدات وأساطير
وخرافات أفرزها العقل البدائي حول قدرة القمر القيام بأعمال خارقة⁴، لهذا لم يجد الشاعر أمامه من
وصف أدق من القمر ويصف الرسول (□) به، بعد أن لبى نداءهم ونصرهم على بني بكر.

¹ أبو بكر الصديق: الديوان، مصدر سابق، ص20.

² عمرو بن سالم: ذكره ابن منده، قال وقيل عمرو بن سالم وهو وافد خزاعة، ثم ذكر النبي (□) فأشده الأبيات "اللهم إني
ناشد محمداً"، قال أبو نعيم كذا أخرجه ولم يختلف في أنه عمرو يعني بفتح العين وقال ابن الأثير: قول أبي نعيم صحيح.
وقول ابن منده وهم وتصحيح (د.ت) ينظر: العسقلاني، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، مج 5، ص285.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص325.

⁴ اشتية، فؤاد يوسف اسماعيل: القمر في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص157.

أما صورة الرسول (ﷺ) عند حسان بن ثابت فقد تعددت التشبيهات، فتارة يصوره بالبدر وأخرى بالقمر وثالثة بالهلال، لكنها في نهاية المطاف تؤكد على صورة الحُسْن والهِئَةِ التي كان عليها الرسول (ﷺ) فيقول حسان¹:

(البسيط)

وَأَفِ وَمَاضٍ شِهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ بَدْرٌ أَنْارَ عَلَى كُلِّ أَمَاجِيدِ

الصورة اكتملت عند حسان بروعتها إذ جعل من الرسول (ﷺ) النور الذي يُسْتَضَاءُ به، وهو كما البدر الذي أضاء الحياة وكشف الظلام، فما بالك بسيد المرسلين الذي تأثيره عمّ الكون وأحدث فاعلية كبرى في الحياة جميعاً لا تقل عن أهمية البدر وفاعليته².

حسان بن ثابت لا يكتفي بهذه الصورة، بل يبارك في صورته وفي الضياء الذي ينبعث منها ويقول³:

(البسيط)

مُبَارَكُ كَضِيَاءِ الْبَدْرِ صُورَتُهُ مَا قَالَ كَانَ قَضَاءً غَيْرَ مَرْدُودِ

وفي صورة أخرى يرسمها للرسول (ﷺ)، يذكر فيها غزوة بني قريظة، وكيف أتاها الرسول (ﷺ) بجيشه المغوار فيقول⁴:

(الوافر)

غَدَاةَ أَتَاهُمْ يَهْوِي إِلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ كَالْقَمَرِ الْمُنِيرِ

هنا الصورة فيها من العظمة والرفعة التي أراد أن يبرزها حسان - رضي الله عنه - للرسول (ﷺ) عن طريق تشبيهه بالقمر المنير، وهذا التشابه ينطلق من تصور قديم يرى في العظيم صفات علوية تؤهله لأنه يحظى بمنزلة الأجرام العلوية السماوية سواء بسواء، ويقرن

¹ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص81.

² ينظر: البغدادي، مريم: ظاهرة الضوء جمالياً في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص401

³ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص82.

⁴ المصدر السابق، ص223.

الإضاءة والنور بذكر شيم هذا الرسول الممدوح مع التركيز على صفاته، التي منها السيادة والشجاعة والنخوة وغيرها مما تؤهله لأن يكون شمساً أو قمراً ينعكس سناؤه على غيره¹.

وقد يأتي الشعراء برديف القمر أو البدر كالهلال مثلاً، الذي يُسمى به القمر أول ما يُرى وكذلك يكون لثلاث ليالٍ ثم يسمى قمراً إلى أن يبهر ضوءه سواد الليل² كما فعل حسان في وصف الرسول بقوله³:

(الكامل)

مِثْلَ الْهَلَالِ مُبَارَكًا ذَا رَحْمَةٍ سَمِحَ الْخَلِيقَةَ طَيِّبَ الْأَعْوَادِ

يُلاحظ الفرق في أبيات حسان في وصفه الرسول (□) بالبدر والقمر، ووصفه بالهلال حيث جعل سماحته وطيب أصله مع صورة الهلال الذي يكون أول ما يطلع، بينما جعل قوله الحق وشجاعته مع صورة القمر والبدر حين يكون مكتملاً وفيه اكتمال عطائه ومكانته بين المسلمين.

وفي وصف أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ما يكشف صورة البدر المضيء فيقول⁴:

(الوافر)

أَمِينٌ مُصْطَفَى بِالْخَيْرِ يَدْعُو كَضَوْءِ الْبَدْرِ زَايِلُهُ الظُّلَامَ

صورة الرسول (□) وهو يدعو إلى الحق وإلى ترك عبادة الأصنام؛ كصورة البدر المضيء الذي يكشف الظلام المخيم على المكان، هكذا إذن كانت صورة الرسول (□) عند أبي بكر حيث استحوذت ظاهرة الضوء على جزء كبير من الانبهار والتعجب لدى الشعراء، وهذا ما وُجد عند كثير من شعراء الجاهلية⁵، فشدة عشقهم للضوء الأبيض جعلهم مشدودين على الدوام إلى وجه ممدوحهم، ومن هنا كان تصويرهم بالقمر أو البدر لما فيه من تميز وجمال واستمرارية.

¹ يُنظر: البغدادي، مريم: ظاهرة الضوء جمالاً في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص401.

² المرجع السابق، ص395.

³ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص82.

⁴ أبو بكر الصديق: الديوان، مصدر سابق، ص30.

⁵ يُنظر: البغدادي، مريم: ظاهرة الضوء جمالاً في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص381.

وكعب بن مالك يأتي على صورة الرسول (ﷺ) ويصفه بالبدر الذي لا يعرف الكذب
أبداً فيقول¹:

(البسيط)

يَمْضِي وَيَذْمُرُنَا عَنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ كَأَنَّهُ الْبَدْرُ لَمْ يُطْبَعْ عَلَى الْكَذِبِ

صورة مثالية رسمها كعب بتشبيه الرسول (ﷺ) بالبدر الصادق الذي لا يكذب في
طلعته ووقته، وهذا يؤكد كما يذكر "السواح" سيطرته على الزمن، فقد كانوا ينظرون إلى القمر
كخالق وسيد للزمن أو رب للفصول التي هي نتاج دورته الشهرية². ولم يبقَ في النهاية إلا أن نذكر
قدوم الرسول (ﷺ) على المدينة المنورة وكيف خرج أهلها لاستقباله منشدین³:

(مجزوء الرمل)

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا	مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ
وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا	مَا دَعَا اللَّهُ دَاعٍ
أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا	جُنْتُ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعِ
جُنْتُ شَرَفَتِ الْمَدِينَةُ	مَرْحَبًا يَا خَيْرَ دَاعٍ

صورة البدر عند المسلمين أيضاً صورة لها أثرها في النفس، تجعل القارئ يُثير تساؤلات
عدة، لماذا البدر مثلاً؟ وهل هناك آثار قديمة بقيت في نفوس المسلمين حتى بعد الإسلام لصورة
القمر الجاهلية؟

الكل يعرف كيف هيمن القمر على مجمع الآلهة الجاهلي، وقد تفوقت عبادته على عبادة
أشهر الآلهة في الجاهلية " مناة واللات والعزى " لكن هل بقيت آثار عبادة القمر على قلة انتشارها
بعد الإسلام قائمة؟ هناك بعض الآثار مثل الهلال حيث اتخذ شعاراً للمسلمين على المآذن، وهو

¹ كعب بن مالك: الديوان، مصدر سابق، ص25. وابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص161.

² السواح، فراس: لغز عشتار، الألوهة الموثقة وأصل الدين والأسطورة، ط6، دمشق، دار علاء الدين، 1996، ص82.

³ ابن كثير: البداية والنهاية، ج5، ص29. ويختلف أين أنشئت هذه الأنشودة ويعتقد أنها عند قدومه من غزوة تبوك كما قال
الحافظ بن حجر، يُنظر: فتح الباري، ج7، ص262، ولكن الرواية الأكثر شيوعاً كما قال الإمام البيهقي حدثت عند استكمال
الهجرة قادماً من مكة 622 م، يُنظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج5، ص29.

رمز جاهلي إسلامي¹ حتى القرآن الكريم أتى على عبادة القمر في الجاهلية قال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾².

وكانت عبادة الإنسان للقمر منذ القدم قد بلغت درجة من التعظيم، لأنه لا يستمر على حال، يبدأ هلالاً ثم يأخذ بالامتلاء والاكتمال، ويتوسط السماء بديراً جميلاً إلى أن يختفي في نهاية الشهر³ وقد قاد تفكير الإنسان في القديم أن تتابع الفصول نتيجة دورة القمر يؤدي إلى اكتمال الدورة الزراعية، حيث تتوج بحركتها فصل الربيع الذي يحيي الأرض بعد موتها⁴، فهل كانت صورته (□) امتداداً لهذه الصورة، فالرسول جاء لإحياء العقول والقلوب وإنارتها.

أرى أن تأثير وحضور صورة القمر في الشعر الإسلامي كان واسعاً وجديراً بالدراسة والبحث ولا يتسع المجال لطرح ومناقشة ذلك، لكن ما يمكن قوله، والوصول إليه في النهاية أن الضوء اللافت والنور هما أكثر ما شدد الشعراء لرسم صورة البدر للمصطفى (□)، ولعل البدر أقرب عنصر بيئي إلى أذهانهم في تلك الفترة من الزمن استوحى الشعراء منه الصور ولوّنوا به لوحاتهم.

¹ ينظر: اشتية، فؤاد يوسف اسماعيل: القمر في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص52- ص53.

² سورة فصلت، آية 37.

³ السواح، فراس: لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، ص64.

⁴ الديك، إحسان: الوعل صدى تموز، مجلة جامعة القدس المفتوحة، 2002 م، ص37.

المبحث الثاني

صورته عند الأعداء

أ- عند قريش وما حولها:

بعد أن صدع الرسول (ﷺ) بدعوته، ودعا قومه للدخول في الإسلام، صدّقه عدد منهم ودخلوا في دينه، وقام فريق آخر بتكذيبه وصدّ من يحاول الدخول في الإسلام والإيمان بالبعث والحساب، وعند دراسة موضوع الأعداء زمن الرسول (ﷺ)؛ يواجه الباحث صعوبة في قلة أخبار هؤلاء الأعداء؛ حيث إن المصادر لا تتقل صورة الأعداء ووجهة نظرهم الخاصة¹ بالإضافة إلى أن الإسلام نهى عن رواية أشعارهم في هجاء الرسول (ﷺ) والمسلمين، فكثير منهم قد دخل في الإسلام، وتغلغل الإيمان في قلوبهم، وعملوا على إزالة كل ما بدا منهم قبل إسلامهم².

فمن هم أولئك الذين وقفوا ضد الرسول (ﷺ) والإسلام؟ وكيف برزت صورة الرسول (ﷺ) في أشعارهم؟ كانت مجموعة من الشعراء الذين رثوا قتلى المشركين وهجّوا النبي (ﷺ) والمهاجرين والأنصار أكثرهم من أهل مكة ولهذا نجد أسماءهم مروية في سيرة ابن هشام والمصنفات القديمة ومنهم عبد الله بن الزبيري وضرار بن الخطاب والحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب³ غير أننا لا نجد أشعارهم تلك؛ ذلك أنهم أسلموا، وعبروا عن ندمهم على ما فرطوا في سابق عهدهم، وهذا لا يمنع أن نجد ردّ الشعراء المسلمين لنكشف عن صورة الرسول (ﷺ) المقابلة لأشعار الكفار وإبراز تلك الصورة من شعراء نافحوا عن الرسول والدين ابتغاء مرضاة الله، فهذا حسان بن ثابت يرد على أبي سفيان بعد أن هجا الرسول (ﷺ) ويقول⁴:

¹ كرعاني، رضا بن علي: أعداء محمد زمن النبوة، ط1، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 2010 م، ص6.

² الصمد، واضح: أدب صدر الإسلام، مرجع سابق، ص137.

³ نالينو، كارلو: تاريخ الأدب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية، تقديم طه حسين، ط2، مصر، دار المعارف، ص108.

⁴ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص7-8. وابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ج4، ص95. والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ص153.

(الوافر)

وَعَنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ
أَمِينُ اللَّهِ شَيْمَتُهُ الْوَفَاءُ
وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ
هَجَوْتُ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ

يتضح من الصورة التي يرد فيها حسان على أبي سفيان إظهار صورة الرسول المبارك البر الحنيف، ويجيء بأكثر من صفة في البيت الواحد غير مهتم بتفصيل كل منها¹ لتشكل بمجموعها صورة المتكامل الذي لا يعتريه نقص أو شائبة.

لكن الصورة تختلف بعد إسلام أبي سفيان واعتذاره للرسول (□) في قوله²:

(الطويل)

لَتَغْلِبَ خَيْلَ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدٍ³
فَهَذَا أَوَانِي حِينَ أَهْدَى وَأَهْتَدِي⁴
إِلَى اللَّهِ مَنْ طَرَدْتُ كُلَّ مُطَرِدٍ
وَأَدْعَى (وَإِنْ لَمْ أُنْتَسِبْ) مِنْ مُحَمَّدٍ⁵

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ أَحْمِلُ رَايَةً
لَكَالْمُدْلِجِ الْحِيرَانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ
هَدَانِي هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَدَلَّتْنِي
أَصْدُ وَأُنْأَى جَاهِدًا عَنْ مُحَمَّدٍ

إنَّ الصورة التي رسمها أبو سفيان لمحمد (□) بعد إسلامه جديرة بالتوقف أمام صورة الهادي الذي كشف ظلام الجهل والكفر لهذا الشاعر، فنحن أمام صورة رسمها أبو سفيان أيام شركه وضلاله كالمتهبط في ظلمة الليل الذي لا يهتدي طريقه، لكن لماذا يذكر الليل في تصويره هنا؟ إنَّ إحساسنا بالليل شيء طبيعي، ومن ثم يكون إدراكنا له، وتصورنا لما قد يتركه في نفوسنا، فالليل يُقبل على الأشياء جميعاً؛ لكن قيمته ليس في ذلك، بل في وجدانيته وترنمه بالتعبير عن

¹ الحربي، منور: شخصية الرسول (□) في شعر صدر الإسلام، مرجع سابق، ص 147.

² ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص 401. والطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 329. والجمحي، ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ص 96. وحسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص 6.

³ أحمل راية: أقود الناس للحرب، خيل اللات: جيوش الكفر، اللات: صنم من أصنام العرب.

⁴ المدلج: الذي يسير بالليل.

⁵ أنأى: ابتعد.

واقع النفس¹ لذلك يستطرد بقوله (هداني هاد) وهو هنا رسول الله (ﷺ)، هذه صورة للرسول قبل إسلام أبي سفيان وبعده، لكننا لم نعثر على شعر له في هجاء الرسول (ﷺ)، بل كانت صورة معاكسة، صورة إيجابية، رسمها حسان بن ثابت في رده عليه وكثير من شعراء قريش ممن هجوا الرسول (ﷺ) أسلموا بعد فتح مكة ومدحوا الرسول (ﷺ).

وهذا يؤكد ما قاله السهيلي عن عدم رواية أشعار الكفار وممن هجوا الرسول ثم أسلموا "وقد شرطنا الإضراب عن شرح شعر الكفرة والمفاخرين بقتال النبي (ﷺ) إلا من آمن منهم"².

وفي تتبعنا للمصادر وكتب التاريخ نجد أن معظم أعداء محمد من أهل مكة ينتمي إلى قبيلة قريش التي ينحدر منها (ﷺ)³ وإذا كان الأعداء هم الأقارب فماذا يمكن لنا أن نجد من الغرياء. ومن جهة الانتماء العشائري فقريش من أقوى العشائر وأكثرها ثراء⁴ وكان هؤلاء الأعداء من سادة مكة الذين يجمعون بين الوجاهة الاجتماعية والثراء المادي⁵.

وكان لمحمد (ﷺ) ببعض أعدائه علاقة قرابة قوية، وأقربهم له على الإطلاق عمه أبو لهب، فعندما كان الرسول (ﷺ) يدعو للإسلام، كان خلفه رجل له غديرتان فإذا فرغ رسول الله (ﷺ) من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرجل : يابني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائكم..."⁶.

والقرآن الكريم جاء على ذكر أبي لهب وزوجته، قال تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ ۝٤﴾

¹ الزووي، خالد محمد، أحمد: الصورة الفنية عند النابغة، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، 1991 م، ص 521.

² السهيلي: الروض الأنف، مصدر سابق، ج 6، ص 132.

³ ينظر: البلاذري: جمل من أنساب الأشراف، ج 6، ص 140.

⁴ البلاذري: جمل من أنساب الأشراف، ج 1، ص 150.

⁵ كرعاني، رضا بن علي: أعداء محمد زمن النبوة، ص 18.

⁶ ابن هشام: السيرة النبوية، ج 2، ص 33.

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥٩﴾¹ نزلت الآيات في عمه أبي لهب وزوجته أم جميل² التي كانت تحمل الشوك وتطرحه في طريق الرسول حيث يمر³. وقد ردَّ الله كيدها عن الرسول حين جاءت إليه وهو جالس عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها فهر⁴ من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن الرسول فلا ترى إلا أبا بكر فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك فقد بلغني أنه يهجونى والله لو وجدتته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إنى لشاعرة وقالت⁵:

(مجزوء الرجز)

مُذَمَّمًا عَصَيْنَا وَأَمْرُهُ أَبَيْنَا
وَدِينُهُ قَلَيْنَا

وانصرفت، فقال أبو بكر للرسول (□) : أما تراها رأيتك؟ فقال الرسول ما رأيتي لقد أخذ الله ببصرها عني، وكان ابن اسحق يقول: إنَّ قريشاً كانت تسمي الرسول (□) مذمماً ثم يسبونه وكان الرسول يقول ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريش، يسبؤون ويهجون مذمماً وأنا محمد⁶.

إنَّ الصورة التي تظهر لنا من الشعر السابق، تكشف الوجه الحقيقي لعداء أقارب الرسول (□) لشخصه الكريم ولدعوته السماوية، فالرسول (□) نَزَّهُهُ اللهُ واصطفاه دون سائر البشر وسماه محمداً ليكون محموداً في السماء والأرض، فهذه الصورة مردودة عليهم لأنها بطبيعتها هي إنعكاس لأخلاقهم ومبادئهم، ولهذا رأوا في آيات القرآن التي تعرضت لهم ولآلهم هجاء كما يعلق محمد حسين "نحن لا نأتي بجديد ولا ندعي شيئاً خطيراً حين نقول إن في القرآن هجاء"⁷ كذلك أمية

¹ سورة المسد، آية 1-5.

² أم جميل بنت حرب، هي العوراء بنت حرب أخت سفيان بن حرب وزوج أبي لهب بن عبد المطلب، وكانت أشد الناس عداوة ومعارضة للدعوة الإسلامية وأكثرهم إيذاءً للرسول (□) حتى لعنها الله في كتابه هي وزوجها (د.ت) يُنظر، الوائلي، عبد الحكيم: موسوعة شاعرات العرب، مرجع سابق، ص103.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ج1، ص355، ص356.

⁴ الفهر: حجر على مقدار ملء الكف.

⁵ ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص355، ص356.

⁶ يُنظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص356.

⁷ حسين، محمد: الهجاء والهاجؤون في الجاهلية، ط9، بيروت، دار النهضة العربية، 1917م، ص193.

بن خلف كان يؤذي الرسول (ﷺ) وإذا رآه همزه ولمزه فأنزل الله فيه، قال تعالى: ﴿ وَيَلْلُ كُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۚ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۚ ﴾¹.

إن القرشيين ظلموا الرسول (ﷺ) في يوم الخندق عندما ساروا بجمعهم إليه وألبوا أهل البوادي والحوضر عليه، كانت هذه الصورة حاضرة في ذهن حسان الذي نقلها لنا في قوله²:

(الكامل)

وَأَشْكُ الْهُمُومَ إِلَى الْإِلَهِ وَمَا تَرَى مِنْ مَعْشَرٍ مُتَأَلِّبِينَ غَضَابَ³
أُمُومًا بِغَزْوِهِمُ الرَّسُولَ وَالْأَبُومَا أَهْلَ الْقُرَى وَبَوَادِي الْأَعْرَابِ⁴

وكعب بن مالك ينقل هو الآخر ما نزل بالنبي (ﷺ) من قريش من بذىء الكلام والجهر بالعداوة له بقوله⁵:

(المتقارب)

رَمَتْهُ مَعْدُ بَعُورِ الْكَلَامِ وَنَبَلِ الْعَدَاوَةِ لَا تَأْتَلِي⁶

ليس فقط الكلام الفاحش سلطته قريش على الرسول (ﷺ) وأصحابه، وإنما كانت سهامها وسيوفها مسلطة أيضاً على رقاب كل من آمن بمحمد ودعوته، لهذا انبرى شعراء الرسول ومنهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ينصرونه بألسنتهم كما هو الحال بأسلحتهم⁷ وقد اعتبر الرسول (ﷺ) أن الشاعر حين يُناجز المشركين ويحامي عن الدين، إنما يكون مجاهداً في سبيل الله لأن الكلمة الشعرية أنفذ وأمضى وأبلغ وقعاً من السهام الجارحة⁸ وهو

¹ سورة الهمزة، آية 1-2.

² ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص270. وحسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص11.

³ متألبيين: مجتمعين يُقال ألب عليك القوم: أتوك من كل جانب، وألبت الجيش عليه: إذا جمعته وتألّبوا: تجمعوا.

⁴ أُمُومًا: قصدوا، وألبسوا: أي خلطوا وشبهوا.

⁵ ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص172، وكعب بن مالك: الديوان، مصدر سابق، ص254.

⁶ تَأْتَلِي: تُقَصِّرُ.

⁷ يُنَظَرُ: العاني، سامي مكّي: الإسلام والشعر، الكويت، عالم المعرفة، 1996 م، ص54.

⁸ مغنية، حبيب يوسف: الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، دراسة وصفية نقدية، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 1995، ص82.

أسرع فيهم من نضح النبل¹. وقد مرَّ سابقاً رد كعب بن مالك على ابن الزبيري قبل أن يسلم وذلك في معرض هجائه الرسول (ﷺ) وتوبيخه له بقوله²:

(المتقارب)

تَبَجَّسْتَ تَهْجُو رَسُولَ الْمَلِكِ قَاتَلَكَ اللَّهُ جَافًا لَعِينًا
تَقُولُ الْخَنَا ثُمَّ تَرْمِي بِهِ نَقِي الثِّيَابِ تَقِيًا أَمِينًا

هذا يدل على فاحش الكلام الذي أكثر منه هؤلاء الشعراء في هجاء الرسول الكريم مع أنَّ الإسلام حرَّم الهجاء وها نحن لا نجد أشعار عبد الله بن الزبيري، لكن ردَّ كعب بن مالك يؤكد من خلال مفرداته على العداوة الصريحة التي قامت بين قريش والرسول (ﷺ) ولم تكن هناك هuada أو لين ولا مراعاة لقربى أو دماء.

فصورة الرسول (ﷺ) النقي التقي الأمين كلها تعكس نظرية الأعداء والمشركين ومحاولوا اتهام الرسول به، بل تُعطي أكبر صورة معنوية للرسول (ﷺ)، القدوة للمسلمين وغيرهم، باتصافه بهذه الصفات وما نهى عنه الإسلام من الهجاء المقذع، حيث عمل على تحويل مجرى أفكار المسلمين عن هذه الأغراض الشعرية المنحرفة عن الحق والشرف³. والصورة بعد الإسلام لعبد الله بن الزبيري يرسمها للنبي (ﷺ) تختلف كلياً عما كانت في جاهليته، حيث ظهر الإقرار والتسليم والتصديق بالنبي المرسل وعبر عنه باعتذاره للرسول في قوله⁴:

(الكامل)

مَنْعَ الرُّقَادِ بَلَابِلَ وَهْمُومٍ وَاللَّيْلُ مُعْتَلِجُ الرِّوَاكِ بِهِيمٍ⁵
مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لَأَمْنِي فِيهِ فَبِتُّ كَأَنِّي مَحْمُومٌ
يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلَتْ عَلَى أَوْصَالِهَا عَيْرَانَةَ سُرْحِ الْيَدَيْنِ غَشُومٌ

¹ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج 13، ص 151.

² ابن هشام: السيرة النبوية، ج 3، ص 169، وكعب بن مالك: الديوان، مصدر سابق، ص 277.

³ الصمد، واضح: أدب صدر الإسلام، مرجع سابق، ص 111.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، ج 2، ص 419، ومسعود، فريد الدين: روائع من أشعار الصحابة، مرجع سابق، ص 168، ص

169، وابن الزبيري: الديوان، مصدر سابق، ص 45، والجمحي، ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ج 1، ص 243.

⁵ البلايل: الوسواس .معتلج: مضطرب.

إِنِّي لَمُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِي أَسَدَيْتُ إِذْ أَنَا فِي الضَّلَالِ أَهِيمِ
فَالْيَوْمَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ قَلْبِي وَمُخْطِئِ هَذِهِ مَحْرُومِ

الصورة تُعبر عن إيمان كلي بالنبي محمد، وشهادة صادقة من طالبٍ للعفو من الرسول (ﷺ) بعدما جافى النوم عينيه فقد كان عبد الله بن الزبير وأبو سفيان بن الحارث ممن تعرضا للرسول (ﷺ) ووقعوا فيه حتى تصدى لهما من ردّ كيدهما وأفحمهما¹. وقد ظهر لرسول الله (ﷺ) البغي والحسد من قريش وما حولها، فبادروه وأصحابه العداوة، وحاولوا منعه (ﷺ) من نشر دعوته، وكثير من هؤلاء الأعداء استخدموا الكثير من الوسائل للتخلص من الرسول (ﷺ) كما فعل عقبة بن أبي معيط² عند الكعبة حيث لوى ثوبه على عنقه وخنقه خنقاً شديداً؛ لولا أن جاء أبو بكر الصديق ودفعه عن الرسول (ﷺ)³.

وأبي بن خلف جاء الرسول (ﷺ) بعظمٍ بال وقال: أتزعّم أن ربك يُحيي الموتى، فمن يُحيي هذا؟ ثم فنه فقال حسان في ذلك⁴:

(الوافر)
لَقَدْ وَرِثَ الضَّلَالَةَ عَنْ أَبِيهِ أَبِي يَوْمَ فَارَقَهُ الرَّسُولُ
أَجْنُتَ مُحَمَّدًا عَظْمًا رَمِيمًا لَتَكْذِبُهُ وَأَنْتَ بِهِ جَهُولُ
وَقَدْ نَالَتْ بَنُو النَّجَارِ مِنْكُمْ أُمِّيَّةٌ إِذْ يَغُوثُ يَا عَقِيلُ
وَتَبَّ ابْنَا رَبِيعَةَ إِذْ أَطَاعَا أَبَا جَهْلٍ لِأُمَمِهِمَا الْهَبُولُ

امتاز الهجاء بشدته وذمه المشركين والاستهزاء بهم، وقد تأثر شعراء صدر الإسلام بالقرآن وحديث الرسول (ﷺ)، ولهذا نرى المعاني الإسلامية والمفردات تظهر في أشعارهم كما في شعر حسان السابق، فكلمة (تَبَّ) مفردة قرآنية ذكرها القرآن في سورة المسد في تصويره لأبي لهب

¹ الحنبل، علي محمد: شخصية الرسول الكريم في شعر السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، ص390.

² عقبة بن أبي معيط واسم أبي معيط أبان بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس ويكنى أبا الوليد وكان من أشد الناس عداوة للرسول والمسلمين، يُنظر، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص140.

³ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج1، ص243-244.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص84، ص85.

وزوجته، وكانوا ممن آذوا الرسول (ﷺ) وحسان هنا يسخر من أبي وفعلته ويُظهر صورة الرسول الصادق الذي يعرفه الجميع، ويشهدون بصدقه وأمانته.

أما كعب بن زهير¹ فقد علم بإسلام أخيه بجير وجرت بين الأخوين رسائل شعرية وكان كعب لا يزال على كفره وعدائه الرسول (ﷺ) فبعث إلى أخيه قائلاً²:

(الطويل)

فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتَ بِالْخِيفِ هَلْ لَكَ	أَلَا أَبْلَغَا عَنِّي بُجَيْرًا رِسَالَةً
فَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَا	شَرِبْتَ مَعَ الْمَأْمُونِ كَأَسَا رَوِيَّةً
عَلَى أَيِّ شَيْءٍ وَيَبَ غَيْرَكَ دَلَا	وَخَالَفْتَ أَسْبَابَ الْهُدَى وَتَبِعْتَهُ
عَلَيْهِ وَلَمْ تُدْرِكْ عَلَيْهِ أَحَا لَكَ	عَلَى خُلُقٍ لَمْ تُلَفِ أَمَّا وَلَا أَبَا

هنا صورة الرسول (ﷺ) عند كعب هو (المأمون) ويقصد به محمد (ﷺ) الذي آمن كل من أسلم ودخل في دينه، وبعاتب كعب أخاه بجيراً لدخوله الإسلام ومتابعته دين محمد وتركه دين آبائه وأجداده، ونصحه بجير أن يُسلم وينجو بنفسه بعدما أهدر الرسول دمه، وضافت به الأرض إلى أن جاء تائباً معترداً للرسول (ﷺ) ومدحه بلاميته المشهورة التي منها الأبيات³:

(البسيط)

الْقُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ	مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً
أَذْنِبَ وَلَوْ كَثُرَتْ عَنِّي الْأَقَاوِيلُ	لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ
مُهَنْدٌ مِنْ سَيْوِفِ اللَّهِ مَسْلُوكُ	إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ

وبالنظر إلى الصورة بعد إسلام كعب بن زهير، نجد تغيراً ملحوظاً على لغته ومفرداته، لكنه صوّر الرسول بالسيف، والجديد في هذه الصورة أنها لم تكن لأحد من قبل حيث أنه صور الرسول بالسيف الذي هو من سيوف الله؛ مشعر دائماً في وجه الأعداء والمشركين.

¹ هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، شاعر مخضرم من أهل نجد عالي الطبقة أنشد الرسول (ﷺ) لاميته المشهورة ومطلعها "بانت سعاد" ودافع عن الرسول (ﷺ) بشعره وله ديوان شعر ولا يعرف له تاريخ ميلاد توفي عام 26هـ / 645م. وينظر، الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج5، ص266.

² كعب بن زهير: الديوان، رواية أبي سعيد السكري، بيروت، دار الفكر للجميع، 1968، ص10.

³ كعب بن زهير: الديوان، مصدر سابق، ص22.

وما يجدر قوله هنا أن الأعداء تتبدل عداوتهم وتتغير مواقفهم بفضل الدين الجديد وبما يظهر لهم من أخلاق وسيرة المصطفى (ﷺ)، وعندما تتذوق نفوسهم حلاوة الإيمان يظهر ذلك في أشعارهم وفي اعتذارياتهم عما كانوا قد أفرطوا في ماضيهم مع الرسول وأصحابه، حتى وهذه الصورة الإيجابية نجدها عند شعراء مثل الأعشى¹، فهو لم يسلم لكنه مدح الرسول (ﷺ) بعد ما رأى أخلاقه وكرمه وسمع عنها فقال²:

(الطويل)

أَغَارَ لِعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدًا ³	نَبِيٍّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذَكَرُهُ
وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانِعُهُ غَدًا	لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تُغِبُّ وَنَائِلٌ
نَبِيٍّ إِلَهِ حِينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا	أَجْدُكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ

صورة الرسول عند الأعشى قد بلغت منتهاها، فسيرته عمّت مشارق الأرض ومغاربها فهو، صاحب الصيت الذائع والشهرة الكريمة، وما ذاك إلا لهذا النبي الكريم الذي عطاؤه لا ينضب أبداً، هكذا إذن كانت صورة الرسول الكريم عند الأعشى وهو لم يدخل في دين الله، لكن المعاملة والسيرة الحسنة والأخلاق التي تحلى بها المصطفى هي التي جعلت كل من يراه ويعايشه يمدحه حتى وإن كان كافراً .

وهذا الحديث ينقلنا أيضاً للصورة التي وضحها سراقه بن مالك⁴ قبل أن يسلم هو الآخر، فيصور صدق الرسول ويشهد له بذلك أمام أبي جهل فيقول⁵:

¹ الأعشى: هو ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن بكر بن وائل لُقّب بالأعشى لأنه كان ضعيف البصر، والأعشى في اللغة الذي لا يرى ليلاً، أدرك الإسلام ولم يسلم، يُنظر: المرزباني، معجم الشعراء، مج1، ص395.

² ديوان الأعشى، تح فوزي عطوي، ط1، بيروت، لبنان، الشركة اللبنانية للكتاب، ص106. وابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص378.

³ أغار: بلغ الغور وهو ما انخفض من الأرض، أنجدا: بلغ النجد وهو ما ارتفع من الأرض.

⁴ سراقه بن مالك: المدلجي الكناني سيد بني مدلج وأحد أشرف قبيلته كنانة، صحابي جليل، قائف يقتص الأثر، لحق بالرسول وأبو بكر في الهجرة طمعاً في جائزة قريش انغرست قدما فرسه في الوحل وطلب من الرسول أن يدعو الله لينجيه على أن يرجع ويعمي عنهم، ينظر: الطبراني: المعجم الكبير، ج7، ص119، والصفدي: الوافي بالوفيات، ج15، ص130.

⁵ البيهقي: دلائل النبوة، ج2، ص489، وابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص490، والصفدي: الوافي بالوفيات، ج15، ص130.

(الطويل)

لَأْمُرِ جَوَادِي إِذْ تَسُوخُ قَوَائِمُهُ
رَسُولٌ بِبُرْهَانٍ فَمَنْ ذَا يُقَاوِمُهُ
أَرَى أَمْرَهُ يَوْمًا سَتَبَدُّو مَعَالِمُهُ
بِأَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ طُرًّا يَسْأَلُمُهُ

أَبَاحَكُمُ وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ شَاهِدًا
عَلِمْتُ وَلَمْ تَشْكُكْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا
عَلَيْكَ بِكَفِّ الْقَوْمِ عَنْهُ فَإِنِّي
لَأْمُرُ يَوْمَ النَّاسِ فِيهِ بِأَسْرِهِمْ

صورة الرسول الصادق ينقلها سراقه بن مالك بعد أن رأى بأمر عينيه صدق نبوة الرسول () وذلك بعد أن تبع أثره إلى المدينة المنورة، وكيف غاصت أقدام راحلته بعد أن دعا عليه الرسول، وبالرغم من أن الإسلام ضمن الحقوق والمشاركة السياسية حتى للمرأة إذا لم تشكل خطراً على الدين أو الدولة، نجد أن الأمر يختلف تماماً مع عصماء بنت مروان¹، التي أظهرت نقمة على الإسلام والرسول () وراحت تخرض على اغتياله فنقول²:

(المقارب)

وَعَوَفَ بِأَسْتِ بَنِي الْخَزَجِ
فَلَا مَنْ مُرَادٍ وَلَا مُنْجِحٍ³
كَمَا يَرْتَجِي مَرْقَ الْمُنْضَجِ
فَيَقْطَعُ مِنْ أَمَلِ الْمُرْتَجِي

فَبَاسَتْ بَنِي مَالِكٍ وَالنَّبِيتِ
أَطْعَمْتُمْ أَتَاوَى مَنْ غَيْرِكُمْ
تَرْجُونَهُ بَعْدَ قَتْلِ الرُّؤُوسِ
أَلَا أَنْفٌ يَبْتَغِي عِزَّةً

تظهر روح النقمة والعداء في أبياتها، وحسدها بعثة الرسول () في قريش؛ حيث تلوم قومها ومن دخل في الإسلام لمتابعته دين محمد () وتصفه بالغريب، وتصب جام غضبها في نهاية الأبيات عليهم لخوفهم وخضوعهم لهذا الدين الجديد، ولا نستغرب إن أمر الرسول () بقتلها، فقد انضمت إلى موكب المنافقين وأثارت الفتنة، ويخشى من خطر لسانها على الدولة وعلى العقيدة والرسول ()، فكانها مثلت بشعرها الخطر الذي يمثله الرجل في السياسة⁴.

¹ عصماء بنت مروان، من شعراء صدر الإسلام كانت تعيب الإسلام وتؤذي الرسول () وتخرض عليه وقالت في ذلك شعراً يُنظر: الوائلي، عبد الحكيم: موسوعة شاعرات العرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين، مرجع سابق، ج2، ص404، والواقدي: كتاب المغازي، ج1، ص172.

² ابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص151، والواقدي: كتاب المغازي، ج1، ص172.

³ الأتأوى: الغريب.

⁴ يُنظر: خليف، مي يوسف: الشعر النسائي في أدبنا القديم، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر، ص65.

ب- عند اليهود:

بدأت أنشطة اليهود المعادية لمحمد (ﷺ) مع بداية انتشار دعوته في يثرب، واشتدت بعد هجرته (ﷺ) إليها، لكننا نجد ضعفاً في حضور اليهود في المصادر العربية، وقلة رصيدهم في الشعر الجاهلي، وكذلك قلة مشاركتهم في أيام العرب¹.

لكن دعوة محمد وجدت قبولاً من بعض غلمان مكة من اليهود كما تذكرها المصادر² وأما توزيع يهود يثرب زمن النبوة فيمكن تقسيم تلك القبائل إلى قسمين كبيرين هما:

(1) القبائل اليهودية الكبرى (قينقاع، النضير، قريظة) وما لحق بهم من مجموعات صغيرة من أصول مختلفة.

(2) قبائل تمتلكها يهود الأوس ويهود الخزرج أو كانت عشائر هاتين القبيلتين بالأصل أو بالحلف مجموعات صغيرة تدعى باليهودية³.

وقد اتخذ محمد (ﷺ) من اليهودية باعتبارها ديانة سماوية موقفاً إيجابياً، وقدم رسالته على أنها مواصلة لما جاء به موسى وغيره من الأنبياء من بني إسرائيل⁴ لذلك سعى لإقامة علاقات جيدة معهم، فأمنهم على دينهم وأموالهم وعاملهم بالحسنى، لكنهم اتخذوا موقفاً عدائياً من الرسالة المحمدية وتآمروا عليها مثلهم في ذلك مثل المشركين⁵ واستغلوا عدة حوادث لحث أتباع محمد عن الارتداد عن الدين خاصة سادتهم، فحاولوا تكذيب الرسول (ﷺ) وإظهار عدم صدقه وطالبوه بالمعجزات مثل إنزال كتاب من السماء أو قرباناً، ليظهروا أن الرسول (ﷺ) عاجز عن

¹ کرعانی، رضا بن علی: **أعداء محمد زمن النبوة**، مرجع سابق، ص 95.

² الواقدي: كتاب المغازي، ج2، ص685.

³ ينظر: كرعاني، رضا بن علي: أعداء محمد زمن النبوة، مرجع سابق، ص 95.

.96، □□□□□□□□⁴

⁵ أفايه، محمد نور الدين: الغرب المتخيل صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، ط1، المركز الثقافي العربي، 2000م، ص63.

الإتيان بدليل لهم، كما سعوا لإثارة الشبهات حول الدين والرسول (□) ومما قالوه عن النبي (□) "لو كان نبياً ما رغب في النساء"¹.

إنَّ اليهود لم يبقوا في نطاق جحود النبوة والمكائدات والمحاجبات والدسائس الكلامية؛ بل تجاوزوه إلى نقض العهد وإلى الغدر والخيانة والعداء الصريح للرسول والمسلمين.

فبعد معركة بدر الكبرى، اشتدَّ حقد أبناء قريش على محمد قاتل الأُحبة، وتوافد الشعراء على مكة ليكون قتلى بدر، وانتشرت بين أهلها أغانٍ فاحشة في هجاء الرسول (□) رددتها الإماء والجواري، وكان كعب بن الأشرف² أحد أسياد بني النضير من الشعراء الوافدين على مكة بكى القتلى، ودعا قريشاً للثأر لقتلهم من محمد وأتباعه³. وحرّض ابن الأشرف على رسول الله (□) وبكى قتلى قليب بدر فقال⁴:

(الوافر)

وَلَمْثَلِ بَدْرٍ تُسْتَهْلُ الْأَدْمُعُ⁵
لَا تَبْعُدُوا إِنَّ الْمُلُوكَ تُصْرَعُ⁶
ذِي بَهْجَةٍ يَأْوِي إِلَيْهِ الضُّعِيعُ

طَحَنَتْ رَحَى بَدْرٍ لَمَهْلِكِ أَهْلَهُ
قَتَلَتْ سُرَاةَ الْقَوْمِ حِيَاضُهُمْ
كَمْ قَدْ أُصِيبَ بِهِ مِنْ أَبْيَضٍ مَاجِدٍ

يُلاحظ من شعر ابن الأشرف رائحة الغدر والخيانة، وينبعث منه نتنُ التحريض والفتنة على المسلمين، كل ذلك ليس حباً في قريش ونصرتها؛ إنما هو الميل الغريب الذي تميز به اليهود نحو بث الفوضى وخلق الفتن وإشعال الحروب⁷.

¹ ابن سعد: الطبقات الكبرى، مج8، ص202.

² كعب بن الأشرف الطائي اليهودي أمه من بني النضير، وكان سيداً فيهم، ويكنى أبا ليلى، بكى أهل بدر من المشركين، وشبّب بنساء النبي (□) وأزواجه ونساء المسلمين؛ فأمر الرسول (□) محمد بن سلمه ورهطاً معه من الأنصار بقتله وقتلوه عام 3هـ/623م، ينظر: المرزباني، معجم الشعراء، ص153، والمسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت: 346هـ)، التنبيه والإشراف، بيروت، دار مكتبة الهلال، 1981م، ص90.

³ كرعاني، رضا بن علي: أعداء محمد زمن النبوة، ص68.

⁴ الواقدي: المغازي، مصدر سابق، ج1، ص185. وينظر: كرعاني، رضا بن علي: أعداء محمد زمن النبوة، ص105.

⁵ تُسْتَهْل: انهلّت، وتساقط دمعها.

⁶ سُرَاة القوم: أشرفهم.

⁷ ينظر: أفاية، محمد نور الدين: الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، مرجع سابق، ص61.

ولم يكتف ابن الأشرف بذلك بل شَبَّب بنساء المسلمين، ومنها أنه شَبَّب بأُم الفضل زوج العباس ابن عبد المطلب، فأهدر الرسول (ﷺ) دمه، وأمر بقتله، وكان مما قال ابن الأشرف¹:

(البسيط)

أَرَا حِلَّ أَنْتَ لَمْ تَحِلِّ بِمَنْقَبَةٍ وَتَارِكُ أَنْتَ أُمَّ الْفَضْلِ بِالْحَرَمِ
صَفَاءَ رَادِعَةٍ لَوْ تُعْصَرُ انْعَصَرَتْ مِنْ ذِي الْقَوَارِيرِ وَالْحَنَاءِ وَالْكَتَمِ²

هنا كعب بن الأشرف لم يكتف بالهجاء المعنوي القائم على طلب الفضائل، بل تعداه إلى الهجاء الفاحش بالسباب ونيل الأعراض والهجاء الجسدي³. وهذا ما نهى عنه الإسلام والرسول (ﷺ) حيث روى أبو هريرة عنه (ﷺ) أنه قال "المؤمن يغار والله أشد غيراً" وفي رواية أخرى "إن الله يغار وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله"⁴ فهذه صورة الرسول العظيم الذي يغار لله ولدينه، ولا ينتقم لنفسه فقط بل للإسلام ولحرماته أن تنتهك.

ولهذا فقد حرم الهجاء لما فيه من التعرض للأعراض، وإثارة النزاعات والفتن، فأمر بقتل هذا اليهودي الذي تمادى في الأذى للرسول والمسلمين؛ بأن أرسل له محمد بن مسلمة ورهطاً من الأنصار فقتلوه ليلاً، وبعد قتله حذرت اليهود وذلت⁵.

أما أبو عفك اليهودي⁶ فقد أخذ يسيل في كلامه في هجاء الرسول حقداً وحسداً على هذا النبي الكريم، وبالغ في التحريض عليه وقال⁷:

¹ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن بن علي: الكامل في التاريخ، مج2، ص142. وابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ج2، ص54.

² الْكَتَمُ: نبات قريب من الآس، ينبت في المناطق الجبلية، ثمرته تشبه الفلفل يخضب به الشعر ويصنع منه مداد الكتابة.

³ النخال، منال سليم سالم: الشعر العربي في القرن التاسع عشر الميلادي والثالث عشر الهجري، أغراضه، ظواهره، اتجاهاته، قضاياها، (رسالة ماجستير غير منشورة) الجامعة الإسلامية، غزة، 2013، ص156.

⁴ صحيح مسلم، ج2، ص497.

⁵ ينظر: الواقدي: المغازي، ج1، ص192. وابن الأثير: الكامل في التاريخ مج2، ص142.

⁶ أبو عفك اليهودي، شاعر يهودي من بني عمرو بن عوف من بني عبيدة، وكان أبو عفك شيخاً كبيراً قد بلغ مئة وعشرين سنة، وكان يحرض على رسول الله ويقول الشعر في ذمه، ينظر: الواقدي: كتاب المغازي، ج1، ص174-175. وينظر: ابن تيمية: تقي الدين أبي العباس: الصارم المسلول على شاتم الرسول، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، لبنان، 1978، ص104-105.

⁷ الواقدي: كتاب المغازي، ج1، ص174-175.

(المتقارب)

مِنَ النَّاسِ دَارًا وَلَا مَجْمَعًا
مَبِيتٍ سُرَّاهَا إِذَا مَا دَعَا
حَرَامًا حَلَالًا بِشَتَّى مَعَا
وَبِالنَّصْرِ تَابِعْتُمْ تَبَعًا

لَقَدْ عَشْتُ حِينًا وَمَا أَنْ أَرَى
أَجْمَ عَقُولًا وَأَوَى إِلَيَّ
فَسَأَلْتُهُمْ أَمْرَهُمْ رَاكِبٌ
فَلَوْ كَانَ بِالْمُلْكِ صَدَقْتُمْ

الأبيات السابقة تشرح الصورة السلبية التي عليها اليهود، إذ لا يمكن أن يؤتمن لصداقتهم ولا إلى وعودهم وأقوالهم، بل يتعاملون مع الآخرين بغطرسة وتبجح كبيرين، ومع ذلك فهم يتميزون بجبن لا مثيل له، يُغطيه سلوكهم المتستر بالغدر والخيانة والتآمر على المسلمين¹، لهذا عمل الرسول (ﷺ) على التخلص منهم وإجلائهم عن المدينة، وقد جاء القرآن الكريم على فضح أساليبهم ووصفهم بأشد الناس عداوة قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ﴾².

ومع ذلك نجد هناك أشخاصاً آمنوا وصدقوا بدعوة محمد (ﷺ) من أمثال "مخيريق" الذي قاتل يوم أحد مع الرسول والصحابة وكان حبراً عالماً ورجلاً غنياً، كثيرة أمواله من النخل³ أوصى بها جميعاً لمحمد (ﷺ) يفعل بها ما يشاء وثبت عن الرسول (ﷺ) أن امتدحه قائلاً "مخيريق خير يهود"⁴ وكذلك زواجه (ﷺ) من صفية بنت حيي بن أخطب من بني النضير واختيارها الله ورسوله بعد أن خيرها الرسول وأكرمها (ﷺ) وعوضها خيراً عن أهلها، كل ذلك فعله الرسول لأجل أن يُبقي على علاقات طيبة مع اليهود، والإلحاح على مبدأ التسامح مع أهل الكتاب؛ مع هذا فإن ذلك لم يمنع من حصول حالات الخلاف والنقمة على الإسلام.

إن الصورة التي نخرج بها من تصوير اليهود للرسول (ﷺ)، صورة تحمل كل معاني الحقد والحسد لهذا النبي العظيم، ومع جحودهم وعنادهم لدعوة الرسول (ﷺ)، لم نجد فيما

¹ ينظر، أفايه، محمد نور الدين: الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، مرجع سابق، ص 60-62.

² سورة المائدة، آية 82.

³ الواقدي: المغازي، ج 1، ص 215.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، ج 1، ص 518.

وصل إلينا من شعرهم هجاءً صريحاً للرسول (ﷺ) فریما (ضاح مع غيره)¹، مع أنهم كانوا ضدًا عليه وأعداءً له ولدعوته الشريفة، وبرغم علم أحبارهم كثيراً عن الأمم السابقة من الكتب السماوية، إلا أنهم ظلوا على موقفهم العدائي مع الرسول (ﷺ) والإسلام إلى يومنا هذا.

ج- عند المنافقين:

كانت الفئة الثالثة المعادية للرسول (ﷺ) فئة المنافقين، حيث إنها لم تشكل زمن نبوته مجموعة مستقلة. ولم يكن هناك اتفاق بعد على تحديد هوية المنافقين. وقد جاء النص القرآني ليكشفهم أمام الملأ، ويظهر خطر هذه الفئة المحيط بالإسلام والمسلمين، وجاءت سورة المنافقين كاملة في القرآن الكريم تتحدث عنهم، وتُحذر من الوثوق بهم، وكان زعيم المنافقين آنذاك يدعى عبد الله ابن أبي بن سلول الأزدي². وتجمع المصادر وكتب التاريخ على أنه لم يدخل في دين محمد عن اقتناع، بل مجارة لقومه³، ومما يجب التنبيه إليه هنا ومن خلال الوقوف على أشعار الذين عادوا الإسلام والرسول (ﷺ)، لم نعثر على أي شعر ورد على لسان أحد من هؤلاء المنافقين، وهذا طبيعي؛ حيث أن المنافق بطبعه يبطن الكفر والعداوة ويظهر الإسلام، وبهذا يخادع الناس. وكثير منهم كان على زمن الرسول (ﷺ) ممن اتبع هذا النهج حتى كشفه الله ورسوله للملأ. وقد يكون هناك سبب آخر هو أن الرسول والصحابة كانوا يتخرجون من ذكر أسماء هؤلاء؛ ذلك أن أبناءهم وأقرباءهم دخلوا في الإسلام عن رضا وقناعة، وأراد الرسول (ﷺ) أن يمهلهم لعل الله يزيل ما بهم من أضغان ويشفي صدورهم، وهذا ما حصل مع عبد الله الابن لعبد الله بن أبي عندما أراد عمر بن الخطاب أن يضرب عنق الأب ويقتله، أباي الرسول وقال "إني أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه"⁴. لأن هذا الرجل كان يظهر الإيمان ويبطن الكفر والعداوة

¹ مقداد، عبد الله جبريل: شعر يهود في الجاهلية وصدر الإسلام، مرجع سابق، ص167.

² عبد الله بن أبي بن سلول: من قبيلة الخزرج القحطانية من أهل يثرب، كان يلقب بكبير المنافقين، وقيل إنه كان على وشك أن يكون سيد المدينة قبل أن يصلها الرسول (ﷺ)، وقد أرخ له المسلمون الكثير من المواقف المعادية للإسلام ولما توفي جاء ابنه عبد الله إلى الرسول ليعطيه قميصه يكفن به. يُنظر: ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تفسير

القرآن العظيم، تح سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، ج2، 2002م، ص193-194.

³ كرعاني، رضا بن علي: أعداء محمد زمن النبوة، مرجع سابق، ص121.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ج3، ص248.

للرسول والمسلمين .ولما علم الابن طلب من الرسول أن يقتل والده لإستهزائه بالرسول وقوله "ليخرجن الأعز منها الأذل" ويقصد بذلك الرسول (ﷺ) عند عودته للمدينة. لكن الرسول صبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة. فانظر لهذا الابن وكيف منعه الرسول من قتل والده المنافق واحتمل ذلك. فأى صورة رآها عبد الله الابن لهذا الرسول العظيم. لقد علم عبد الله بصنيع والده واحتمال النبي وصبره عليه حتى يأخذ كل مسلم صورة وأ نموذجاً حياً للقائد الذي جمع الأمة بحكمته ومكارم خلقه من عفو وتسامح وحلم.

ولم يقتصر أذى المنافقين على شخصية الرسول (ﷺ)، بل امتد إلى زوجاته ، وكانت حادثة الإفك سبباً للنيل من الرسول (ﷺ)، كما كان زواجه من السيدة زينب بنت جحش، التي كانت تحت دعيه زيد بن حارثة سبباً في نشر الإشاعات المغرضة بالرسول (ﷺ)، وكيف أنه نكح زوجة ابنه، ولكن القرآن العظيم جاء ليدحض كلام هذه الفئة فنزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝١ ﴾¹، وكان استهزاء المنافقين في كل وقت وحين، فهم يتحينون الفرصة للتشكيك في صدق نبوته (ﷺ)، ولما ضلّت ناقة رسول الله (ﷺ) قالوا يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء، وهو لا يعرف أين ناقلته؟² لقد أذى المنافقون محمداً (ﷺ) إنساناً ونبياً، ولم يشاركوا في تأسيس دينه، وفي جانبه السياسي لم يشاركوا في الأنشطة الحربية ولا الإنفاق على شؤون المسلمين العامة، وفي زمن واقعة تبوك حاول المنافقون بناء مسجد خاص بهم وقد عُرف في الكتب والمصادر بمسجد الضرار³ قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾⁴ وأدت هزيمة المسلمين في أحد إلى تنامي ظاهرة النفاق واستغلوها لعدم المشاركة مع الرسول وأصحابه في الحروب، بالإضافة إلى دعوتهم إلى خذلان الرسول والتفرق عنه⁵. وبعد تراجع عبدالله بن أبي بن سلول عن ذهابه إلى غزوة تبوك لم يعد له النفوذ والسيطرة التي كان عليها من

¹ سورة الأحزاب، آية 40.

² ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص125.

³ كرعاني، رضا بن علي: أعداء محمد زمن النبوة، مرجع سابق، ص135.

⁴ سورة التوبة، آية 107.

⁵ الواقدي: كتاب المغازي، ج1، ص229.

قبل. وتظهر حكمة الرسول (ﷺ) في قوله لعمر بن الخطاب كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت له أنوف لو أرادته اليوم لقتلته؟¹ وهذا يدل على صبر الرسول وحكمته وحرصه على نشر الدين الإسلامي، ولهذا لما مات هذا المنافق وقف الرسول على قبره وصلى عليه وأعطى قميصه أهله يكفن به². حتى نزلت آيات الرحمن بعدم ذلك بعد الاستغفار أو الصلاة عليهم قال تعالى: ﴿ أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾³.

إن ما يمكن قوله بعد هذا العداء للرسول من المنافقين يكشف صورة الرسول (ﷺ)، الذي وادعهم بكثير من التسامح والصبر وعض الطرف عن ممارساتهم، لكن في النهاية جاء القرآن بتحريم الصلاة عليهم أو الاستغفار لهم؛ لما تمثله هذه الحركة من الخطر الكبير على الدين والشريعة الإسلامية.

¹ ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص248.

² ينظر: كرعاني، رضا بن علي: أعداء محمد زمن النبوة، ص132.

³ سورة التوبة، آية 80.

الفصل الثالث

أثر التشكيل الفني في صورة الرسول (ﷺ)

أولاً: اللغة والأسلوب.

ثانياً: المحسنات البديعية.

ثالثاً: الصورة الفنية.

المبحث الأول

اللغة والأسلوب

- اللغة:

اللغة هي الأداة التي يتواصل بها الشاعر مع الآخرين عن طريق الألفاظ والمعاني، واللفظ جسم وروحه المعنى، فلا تقوى الروح دون الجسد، ولا يقوى الجسد دون روح¹. فكل موضوع تتناسبه ألفاظ محددة تأتي بدورها على بيان المعنى وتوضيحه، وإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه، وكذلك إن ضَعُفَ المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ².

والشاعر في صدر الإسلام لا بد أن تتأثر لغته بعناصر متعددة منها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والظروف والبيئة التي تحيط به، لكن من يتأمل ويدرس شعر تلك الفترة من الزمن؛ يجد ملائمة بين الألفاظ والمعاني، فالألفاظ كما تحدث عنها ابن الأثير "تقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيفة، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه، فالجزلة تستعمل في مواقف الحرب وقوارع التهديد والخوف، أما الرقيق منها يُستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام الصبا واستجلاب المودات"³. فمثلاً لقصيدة الرثاء وقع كبير على النفس الإنسانية، لهذا نجد الشاعر يتخير الألفاظ والمعاني التي تُعبر عن الحدث، وعن مشاعره دون أي مبالغة أو رياء في ذلك. فهذا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يرثي الرسول (ﷺ) فيقول⁴:

(الطويل)

فَوَ اللَّهُ لَا أَنْسَاكَ أَحْمَدَ مَا مَشَتْ بِي الْعَيْسُ فِي أَرْضٍ وَجَاوَزَتْ وَادِيَا⁵
وَكُنْتُ مَتَى أَهْبَطَ الْأَرْضَ تَلْعَةً أَجِدُ أَثَرًا مِنْهُ جَدِيدًا وَعَافِيَا⁶

¹ القيرواني، ابن رشيقي: العمدة في محاسن الشعر ونقده، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل، ج1، 1981، ص124.

² القيرواني، ابن رشيقي: العمدة في محاسن الشعر ونقده، ج 1، مصدر سابق، ص124.

³ ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله محمد بن عبد الكريم: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج1، ص186.

⁴ علي بن أبي طالب: الديوان، ص107.

⁵ العيس: الإبل البيض التي يخالط بياضها شيء من الشقرة.

⁶ تلعة: ما ارتفع من الأرض وأشرف.

عَبَّرَ علي عن أثر غياب صورة الرسول وفقده بألفاظ جزلة قوية، لكنها مألوفة وسهلة، يظهر من معانيها البكاء والتحسر على غيابه، فاختياره الألفاظ (لا أنساك، وجاوزت وادياً) تبرز مقدار الحزن الذي ألمَّ به لفراق المصطفى، لكنه مهما ابتعد سيجد له أثراً في كل مكان يذكره به.

أما ألفاظ المديح تكون قوية معبرة، والمديح كما قال الرافعي "المديح في فطرة الإنسان"¹ فمنه ما كان يصدر عن عاطفة صادقة قوية²، والآخر الذي يبتغي الشاعر من ورائه التكسب والعيش الرغيد، لكننا نجد أن شعراء صدر الإسلام مدحوا الرسول (ﷺ) بعد أن دخلوا في الإسلام وتذوقوا حلاوته، لهذا نجد أشعار الكثيرين قد صُبغت بطابع إسلامي. ونرى العباس بن مرداس³ يمتدح الرسول (ﷺ) ويؤكد على صفته (المبارك) بقوله⁴:

(الطويل)

وَوَجَّهْتُ وَجْهِي نَحْوَ مَكَّةَ قَاصِدًا وَتَابَعْتُ بَيْنَ الْأَخْشَبَيْنِ الْمُبَارَكَا⁵

هذا المديح يمثل جانباً عقائدياً، جاء به الإسلام ليهذب النفوس، وكان لا بد للشعراء من أن يتأثروا ويتغيروا تبعاً لذلك بما يتناسب والرسالة الجديدة للشعر من حيث المعاني والأغراض، ومما يلاحظ على البيت السابق تصديره بمفردات دينية (وجهت وجهي) وهي من دعاء الاستفتاح فيما ورد عن الرسول (ﷺ) قوله "وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين"⁶ وقد يكون الشاعر متأثر بالآية القرآنية "إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين"⁷.

¹ الرافعي، مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب، ط 2، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 2009م، ص 72.

² النخال، منال سليم سالم: الشعر العربي في القرن التاسع عشر الميلادي والثالث عشر الهجري، ص 78.

³ هو العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي، من مضر، أبو الهيثم، شاعر وفارس من زعماء قومه، أدرك الإسلام وأمه الخنساء الشاعرة، (ت: 18هـ). ينظر: الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج 3، ص 267.

⁴ العباس بن مرداس: الديوان، تح يحيى الجيوري، ط 1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1991 م، ص 20.

⁵ الأخشبين: جبلا مكة يحيطان بها.

⁶ صحيح مسلم: ص 771.

⁷ سورة الأنعام: آية 79.

وفي البيت الشعري بُعد ديني آخر حين وصف الرسول (ﷺ) بـ " المبارك "، وجاءت ألفاظه سهلة مناسبة مع الغرض الذي وضعت لأجله.

وفي الفخر تبدو الألفاظ مرة أخرى قوية معبرة كما هي في المديح تماماً وربما تكون عبارة عن مقطوعات قصيرة كما جاء على لسان علي بن أبي طالب¹:

(الوافر)

وَحَمَزَةُ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ عَمِّي	مُحَمَّدُ النَّبِيِّ أَخِي وَصَهْرِي
مُشَوَّبٌ لَحْمَهَا بِدَمِي وَلَحْمِي	وَبِنْتُ مُحَمَّدٍ سَكْنِي وَعَرْسِي

فلهذه المقطوعة أثر كبير في النفس؛ لأنها كما يقول العسكري "إلى الحفظ أسرع، وبالألسن أعلق، وللمعاني أجمع، وصاحبها أبلغ وأوجز"²، وقد بدأها علي - رضي الله عنه - بلفظة (محمد) عليه أفضل الصلاة والسلام، وافتتاحه بها كان حسناً بديعاً، ويكون بذلك مدعاة للاستماع لما يأتي من كلام بعدها ...

وحسن الافتتاح داعية الانشراح ومطية النجاح ... فإن الشعر قُفْلُ أوله مفتاحه³.

وفي الاعتذاريات تبدو الألفاظ أكثر رقة و استعطافاً وليناً من الأغراض الشعرية الأخرى، ففي الوقت الذي يحاول فيه الشاعر أن يبقى بمنأى عن التهمة ومما اقترفت يدها ولسانه، يحاول من خلال ألفاظه الوصول إلى العفو والنجاة، وهذا ما حصل مع أنس بن زعيم الذي أهدر الرسول (ﷺ) دمه، فجاء إليه معتذراً تائباً معلناً إسلامه في قصيدة اعتذارية مطولة منها هذه الأبيات⁴:

(الطويل)

أَنْتَ الَّذِي تُهْدِي مَعَدُّ بِأَمْرِهِ	بَلِ اللَّهِ يَهْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ اشْهَدِ
---	---

¹ علي بن أبي طالب: الديوان، مصدر سابق، ص188.

² ينظر: العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: الصناعتين، تج: علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1952، ص174.

³ ينظر: القيرواني، ابن رشيقي: العمدة في محاسن الشعر ونقده، ج 1، ص217-219.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، ج 2، ص 424. وابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، مج 3، ص4-5. والواقدي: المغازي، ج 2، ص790-791.

فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا أَبَرَ وَأَوْفَى نِمْمَةً مِنْ مُحَمَّدٍ
أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلًا إِذَا رَاحَ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهَيَّئِ

إذاً لقد أعلن توبته أنس، وجاءت ألفاظه فصيحة سليمة، فيها أرجع الهداية إلى الله، وهذا دليل على ضعفه وانكساره أمام الرسول (ﷺ)، وامتدح الرسول (ﷺ) بصفات البر والوفاء بالعهد والكرم، ونقل صورة عظيمة للرسول (ﷺ) من خلال عرضه لهذه الصفات. لكن الأمر يختلف مع ألفاظ الهجاء التي تبدو أكثر شدة وإيلاماً، والغرض منها التشهير بالمهجو وإحداث أكبر ألم في نفسه، وقد عرفنا موقف الرسول (ﷺ) من الهجاء، وكيف تعامل مع الشعراء المشركين ممن نالوا من أعراض المسلمين، وألبوا عليه وعلى أصحابه.

ولم يتوان في ردعهم ومعاقبة كل من تسول له نفسه بذلك، ورأينا عصماء بنت مروان كيف حرضت عليه (ﷺ) وعلى الإسلام بقولها¹:

(المتقارب)
فَبَاسَتْ بَنِي مَالِكٍ وَالنَّبِيتِ وَعَوَفٌ وَبَاسَتْ بَنِي الْخَزَرِجِ
أَطْعَمْتُمْ أَتَاوَى مَنْ غَيْرِكُمْ فَلَا مَنْ مُرَادٍ وَلَا مُنْجِحِ
تَرْجُونَهُ بَعْدَ قَتْلِ الرَّؤُوسِ كَمَا يَرْتَجَى مَرْقُ الْمُنْضِجِ

استخدمت هذه الشاعرة الألفاظ التي تُثير الفتنة على الإسلام والمسلمين، ومنها مفردة (أتاوى) بمعنى الغريب، كان مصيرها أن أمر الرسول (ﷺ) بقتلها حتى تكون عبرة لمن حاول أن يسير على خطاها².

نلاحظ أن اللغة الشعرية المستخدمة في الأشعار السابقة اختلفت ألفاظها تبعاً للموضوع الذي ظهرت فيه، وقد تراوحت هذه الألفاظ بين السهلة والجزلة القوية والمؤثرة وقد أحسن شعراء صدر الإسلام في ملائمتهم الألفاظ والمعاني مع الأغراض الشعرية التي تناولت صورته (ﷺ).

¹ ابن هشام: السيرة النبوية، ج 4، ص151. والواقدي: المغازي، مصدر سابق، ج 1، ص172.

² يُنظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي، (661-728هـ): الصارم المسلول على شاتم الرسول، بيروت، لبنان، 1978م، ص95.

الأسلوب: ن يستعمل الشاعر أو الأديب استعمالاً لغوياً خاصاً يقوم على مجموعة من الاختيارات والبدائل بهدف التأثير على القارئ أو السامع وجعله أكثر عرضه لتقبل النص الأدبي¹.

لذلك نجد لكل كاتب أو شاعر أسلوبه الخاص الذي يمتاز به عن غيره ؛ بالاعتماد على اللغة بحروفها وكلماتها وعلاقاتها واستخدامها للحقيقة أو المجاز، ويرى ابن سنان أن الأسلوب يقوم إذا توفرت فيه ركيزتان هما: الجمع بين الفصاحة والبيان²، وقد استخدم الشعراء في صدر الإسلام أساليب متنوعة منها:

1- **أسلوب القسم:** القسم أسلوب يراد به تأكيد المعنى باستخدام ألفاظ دالة على القسم أو اليمين، ومنها لفظ الجلالة (تالله، والله)³ كما جاء على لسان أبي طالب⁴:

(الكامل)

وَاللّٰهُ لَنْ يَصِلُوْا اِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ حَتّٰى اَوْسَدَ فِي التُّرَابِ دَفِيْناً

يقسم أبو طالب عن طريق استخدام لفظ الجلالة (الله) عدم مقدرة الكفار من قريش وأعداء الرسول بالوصول إليه، ما دام على قيد الحياة، ويستخدم الواو أداة القسم ويتبعها بجملة النفي (لن يصلوا) حتى يزيل أي شك في ذهن السامع حول مقدرتهم على الوصول إلى الرسول (□) .

وحسان إذ يمتدح الرسول (□) يستخدم لفظ الجلالة (تالله) فيقول⁵:

(البسيط)

تَاللّٰهِ مَا حَمَلْتُ اُنْثٰى وَلَا وَضَعْتُ مِثْلَ الرُّسُوْلِ نَبِيِّ اَلْاُمَّةِ الْهَادِي

¹ يُنظر: الشايب، أحمد: الأسلوب، ط6، القاهرة، مصر، المكتبة العصرية، 1996م، ص44.

² يُنظر: الخفاجي، ابن سنان (ت: 466هـ): سر الفصاحة، تح عبد المتعال الصعيدي، القاهرة، مكتبة علي صبيح، 1968، ص51.

³ لاشين، عبد الفتاح: المعاني في ضوء أساليب القرآن، مصر، دار المعارف، 1976، ص138.

⁴ التنوحي، محمد: أبو طالب عم النبي (□)، ص 73.

⁵ حسان بن ثابت: الديوان، ص99.

يُعبّر الشاعر باستخدامه القسم في البيت السابق عن عاطفة صادقة قوية تجاه ممدوحه الرسول (ﷺ)، وكان استخدام الطباق (حملت، وضعت) مع القسم عاملاً مساعداً على تحقيق الغرض وهو مدح الرسول وإظهار صفاته نبي الأمة الهادي.

2- أسلوب النداء: النداء هو الأسلوب الذي يُطلب فيه انتباه المخاطب والتفاتة عن طريق ذكر اسمه أو صفته بعد حرف من أحرف النداء¹. وقد وظف الشعراء في صدر الإسلام النداء في مواطن مختلفة من أشعارهم.

وقد يرد النداء في المديح كما هو عند زهير الجشمي في قوله²:

(البسيط)

يَا خَيْرَ مَنْ مَرَحْتُ كُفْدُ الْجِيَادِ بِهِ عِنْدَ الْهِجَاكِ إِذَا مَا اسْتَوْقَدَ الشَّرْرُ

فقد خرج معنى النداء إلى الاختصاص، وأحسن الشاعر باستعماله حرف النداء (يا) مع اسم التفضيل (خير)، وأراد الشاعر بمدحه شجاعة الرسول (ﷺ) عن طريق توظيف النداء هنا علو منزلته ومكانته بين البشر. وكما استخدم النداء سابقاً في المديح، وقد استخدمت صفة بنت المطلب أسلوب النداء في رثاء الرسول فقالت³:

(الطويل)

أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنْتُ رَجَاءَنَا وَكُنْتُ رَحِيماً هَادِياً وَمُعَلِّماً
وَكُنْتُ بَنًا بَرًّا وَلَمْ تَكُ جَافِيَا لِيَبْكِ عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِياً

أدى أسلوب النداء وظيفية نفسية كانت بمثابة زفرة ألم وحزن على غياب الرسول (ﷺ)، وقد كان الغرض واضحاً من النداء وهو التحسر على هذا الفقد وذكر صفاته وتعدادها.

¹ سيبويه، عمرو بن عثمان (180هـ): الكتاب، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1966، ص325

² الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد: معرفة الصحابة، ج3، 1988، ص222

³ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص248. ومقابلة، زايد: عمات الرسول (ﷺ) السيرة والشعر، مرجع سابق، ص94.

3- أسلوب الأمر: الأمر هو طلب الفعل على جهة الاستعلاء، وقد يحمل الأمر كثيراً من المعاني المجازية، منها الدعاء والاباحة والتهديد والتعجيز¹.

ورد كثيرٌ من صيغ الأمر في الأشعار السابقة، واختلفت المعاني التي خرج إليها الأمر، وتعددت الصيغ التي ظهر فيها، فمثلاً جاء الأمر (قوموا) في بيت حسان بن ثابت²:

(الوافر)

شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدَّقُوهُ فَقُلْتُ لَمْ لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ

يحمل معنى الحقيقة، أراد بذلك تأكيد صدق بعثة الرسول (ﷺ)، وأنه الصادق المرسل من رب العالمين، وهو يدعو قومه لأن يصدقوا دعوته ويؤمنوا بها، لكن ردهم جاء في الشطر الثاني بالرفض مطلقاً.

وللأمر عند كعب بن مالك في الرثاء معنى آخر يقول³:

(المتقارب)

يَا عَيْنُ فَايْكِي بِدَمْعِ ذَرَى لَخَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَالْمُصْطَفَى⁴
وَيَكِي الرَّسُولَ وَحَقَّ الْبُكَاءُ عَلَيْهِ لَدَى الْحَرْبِ عِنْدَ اللَّقَا

استخدم كعب فعل الأمر (فايكي) مرتين، مرةً في البيت الأول وأخرى في البيت الثاني، وقد خرج معنى الأمر إلى الندب والبكاء على رسول الله (ﷺ)، وأفاد من تكرار فعل الأمر حقيقة غياب الرسول وفاجعة المسلمين به.

4- أسلوب النهي: هو خلاف الأمر تحديداً، وقد ذكره السيوطي بقوله "هو من أنواع الإنشاء، وهو طلب الكف عن الفعل تحريماً أو كراهةً على وجه الاستعلاء"⁵ وتتعدد صيغ النهي فمنها: الدعاء

¹ السيوطي، عبد الرحمن (911هـ): شرح عقود الجمان، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1953، ص55.

² حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص6.

³ كعب بن مالك: الديوان، ص111.

⁴ ذرى: انصبَّ بغزارة.

⁵ السيوطي، عبد الرحمن (ت: 911هـ): شرح عقود الجمان، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1953م، ص56.

والتمني والنصح والإرشاد وغيرها، وقد جاء على لسان أبي بكر الصديق عندما كان مع رسول الله (ﷺ) في الغار قوله¹:

(البسيط)

قَالَ النَّبِيُّ وَلَمْ أَجْزَعْ يُوقِّرُنِي وَنَحْنُ فِي سُدْفَةٍ مِنْ ظُلْمَةِ الْغَارِ²
لَا تَخْشُ شَيْئًا (فَإِنَّ اللَّهَ ثَالِثُنَا) وَقَدْ تَوَكَّلْنَا مِنْهُ بِإِظْهَارِ

أفاد النهي معنى النصح والارشاد، والرسول (ﷺ) يوجه أبا بكر الصديق إلى الصبر وعدم الخوف وهم في الغار يختبئون من قريش، ويعزز حديثه لأبي بكر، قوله: (فإن الله ثالثنا) فلم الخوف والجزع، وهو سبحانه متوكل بحفظهم وحمايتهم.

وكذلك كان للاعتذاريات نصيب في استخدام النهي وتوظيفه من خلال قول كعب بن زهير³:

(البسيط)

لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ عَنِّي الْأَقَاوِيلُ

هذا النهي في قول كعب (لَا تَأْخُذْنِي) أفاد الطلب، به يطلب كعب بن زهير من الرسول (ﷺ) بعدم لومه وعقابه، وقد وشى الوشاة به من قبل للرسول (ﷺ)، ويبدو كعب مدافعاً عن نفسه في الشطر الثاني ومستعطفاً الرسول بالعفو عنه.

5- أسلوب الاستفهام: هذا الأسلوب هو أحد الأساليب الإنشائية الطلبية، ويراد به طلب العلم عن شيء لم يكن معلوماً من قبل، وأدواته منها الهمزة وهل، وهناك أسماء الاستفهام منها: "من، أين، كيف، متى"⁴، والاستفهام كما في الأمر والنهي يخرج إلى أغراض منها: التعجب و الوعيد والتحقير والإنكار وغيرها، وقد ورد الاستفهام في أغراض الشعر في صدر الاسلام عند شعراء مثل حسان بن ثابت في قوله⁵:

¹ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 3، ص183. وأبو بكر الصديق: الديوان، ص53، ص54.

² سدفة: ظلمة الليل وسواده.

³ كعب بن زهير: الديوان، مصدر سابق، ص20.

⁴ القزويني، محمد بن عبد الرحمن (ت: 739هـ): الإيضاح، القاهرة، مطبعة محمد علي صبيح، 1996م، ص81.

⁵ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص88.

(الطويل)

وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالُ قَوْمٍ تَسْقَهُوا عَمَى وَهْدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدٍ

يستفهم حسان بأداة الاستفهام (هل) التي تفيد الإنكار، إذ لا يُعقل أن يكون من هم في ضلالة وغَيٍّ من أمرهم بمنزلة من اهتدى وسار على درب النبي محمد (ﷺ) المهتدي، وساعده على تحقيق غرض الاستفهام الحالة في الشطر الثاني المقابلة لحالة من هم في ضلال في شطر البيت الأول. ونرى حسان بن ثابت يستخدم الاستفهام بالهمزة وذلك في قوله¹:

(الوافر)

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفٍّ فَشَرَكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

لقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر يفيد التحقير، وهذا ما أراده حسان بن ثابت عند هجاء أبي سفيان للرسول (ﷺ)؛ أن يضعه في المكانة التي يستحقها، فأين هو من رسول الله (ﷺ)؟ وساعده اختياره لمفردة (كفء)، حيث وضحت المعنى البلاغي الذي أراده.

6- أسلوب الشرط: استخدم شعراء صدر الإسلام هذا الأسلوب قديماً، حتى إن الباحثة وقفت على بعض الأشعار قبل الإسلام ممن وظف الشعراء فيها أسلوب الشرط، وقد عبّر هبيرة بن أبي وهب المخزومي عن حكمة الرسول (ﷺ) ورجاحة عقله عندما اختلفوا في حادثة الحجر الأسود فقال²:

(الطويل)

فَلَمَّا رَأَيْنَا الْأَمْرَ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ غَيْرَ سَلِّ الْمُهْتَدِ
رَضِينَا وَقُلْنَا الْعَدْلُ أَوَّلُ طَالِعٍ يَجِيءُ مِنَ الْبَطْحَاءِ مِنْ غَيْرِ مَوْعِدِ

يشير الشاعر إلى اختلافهم في وضع الحجر الأسود مكانه، وقد تخالفوا واستعدوا للقتال، ولكنه وظف أسلوب الشرط (فعل الشرط والأداة لما رأينا) في البيت الأول وجاء بجوابه في بداية البيت الثاني (رضينا)، وقد نجح الشاعر في هذا التوظيف فجاء بالجواب بعد طول انتظار، وهكذا

¹ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص7-8. وصحيح البخاري، ج2، ص395-396. والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ص153.

² ابن هشام: السيرة النبوية، ص197. وينظر الفصل الأول من الدراسة، ص16.

كانت صورة الرسول (ﷺ)، الحكيم ذو الرأي السديد بعد أن طلع عليهم وحقق الدماء من أن تراق. ويأتي الشرط في موضع آخر على لسان أبي طالب عم النبي (ﷺ) بعد رحلته إلى الشام، ورؤية الراهب بحيرا للرسول (ﷺ) وهو طفل صغير، فيصف الحادثة ويقول¹:

(الطويل)

فَلَمَّا هَبَطْنَا أَرْضَ بُصْرَى تَشَوَّفُوا لَنَا فَوْقَ دُورٍ يَنْظُرُونَ عِظَامَ
فَجَاءَ بِحِيرًا عِنْدَ ذَلِكَ حَاشِدًا لَنَا بِشَرَابٍ طَيِّبٍ وَطَعَامَ

وظف الشاعر أسلوب الشرط في البيت الأول (لَمَّا هَبَطْنَا) وجاء بالجواب في قوله (تَشَوَّفُوا) ليؤكد على أهمية الحدث من رؤية بحيرا للرسول (ﷺ) وتوسمه فيه ملامح النبوة.

وفي القصيدة نفسها يستخدم الشاعر الشرط مرة أخرى فيقول²:

(الطويل)

فَلَوْلَا الَّذِي خَبَرْتُمُو عَنْ مُحَمَّدٍ لَكُنْتُمْ لَدَيْنَا الْيَوْمَ غَيْرَ كِرَامَ

يتحدث أبو طالب على لسان بحيرا الراهب ويقول مستخدماً الشرط: لولا ما عرفتم وخبرتم عن محمد لكنتم لدينا (أي عند بحيرا) لا تتعمون بحسن الكرم والضيافة، فكل ذلك لأجل هذا الغلام المبارك.

وقد أحسن الشاعر باستخدام أداة الشرط (لولا) وجاء الجواب مقترباً باللام في الشطر الثاني (لكنتم) معبراً عن أهمية نبوءة بحيرا وما عرفه من أمر الغلام.

7- أسلوب التكرار: التكرار ظاهرة واضحة في شعر صدر الإسلام استعان بها الشاعر على نقل مشاعره والتعبير عن آرائه، وله مواضع يحسن فيها ومواضع لا يحسن فيها، وأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فهذا

¹ التتويجي، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي (ﷺ)، مصدر سابق، ص88. والسهيلي: الروض الأنف، ج1، ص208، ويُنظر الفصل الأول من الدراسة، ص25.

² المصدر السابق.

هو الخذلان بعينه¹ أما إذا تمكن الشاعر من توظيفه فنياً في مكانه المناسب في القصيدة ؛ أضفى على الشعر جمالاً بما يُضفيه على الموسيقى من جرسٍ جذاب يُحرك مشاعر القارئ والسامع ويُثيرها؛ لأنه يُساهم في تجلية الأفكار وتوضيحها، ورسم صورة جمالية تُعبر عن قدرة الشاعر وإبداعه².

وكان شعراء صدر الإسلام قد أفادوا من التكرار في قصائدهم، وراوحوا في تكرار الألفاظ والمفردات والأساليب، فكان التكرار بالفعل كما جاء في قول عبد الله بن رواحة³:

(الرجز)

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ خَلُّوا فُكُلَ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ

جاء التكرار من خلال فعل الأمر (خلُّوا) وعبد الله بن رواحة أخذ بزمام ناقة الرسول ()، ويُوخِّع الكفار والمشركين، ويأمرهم بالابتعاد عن طريق الرسول ()، وقد أفاد معنى التكرار التوبيخ لهم . وأما زهير الجشمي فيكرر الفعل هو الآخر ليستعطف بذلك الرسول () ويقول⁴:

(البسيط)

أَمْنُنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي كَرَمٍ فَأَيْتُكَ الْمَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَنْتَظِرُ
أَمْنُنْ عَلَى بَيْضَةِ قَدْ عَافَهَا قَدْرٌ مُشَتَّتٌ شَمْلُهَا فِي دَهْرِهَا عِبْرُ
أَمْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا إِذْ فُوكَ عَلَاهُ مِنْ مَحْضِهَا الدَّرْرُ⁵

جاء التكرار (تكرار الصدارة أو الأنافورا) في فعل الأمر (امنن) مع حرف الجر (على) ثلاث مرات؛ ليؤكد الشاعر على الغرض الذي أتى لأجله؛ وهو العفو من الرسول () ويستعطف الرسول () عن طريق صيغة الأمر الحقيقي، ويدلل على صدقه في كلامه.

¹ ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج1، ص 25.

² يُنظر، النخال، منال سليم سالم: الشعر العربي في القرن التاسع عشر الميلادي والثالث عشر الهجري، أغراضه، ظواهره، اتجاهاته، قضاياها، مرجع سابق، ص399.

³ عبد الله بن رواحة: الديوان، مصدر سابق، ص101، ص 102، وابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص13.

⁴ الصفي: الوافي بالوفيات، مرجع سابق، ج14، ص229.

⁵ الدَّرْر: مفردها الدَّرَّة وهي اللبن أو كثرة اللبن.

ويكرر حسان بن ثابت - رضي الله عنه - الفعل (يغدر) في أثناء هجائه الحارث بن عوف فيقول¹:

(الكامل)

يَا حَارِ مَنْ يَغْدِرُ بِذِمَّةِ قَوْمِهِ فَإِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَغْدِرْ²

أسهم تكرار الفعل المضارع (يغدر) مرتين في صدر البيت وعجزه؛ في إظهار صورة المشركين السلبية - أصحاب النوايا المبطنة والغادرة - وفي إظهار وفاء الرسول (ﷺ) وحفظه للعهود والمواثيق.

ونجد الشعراء قد كرروا الأسماء كما فعل العباس بن مرداس³:

(الوافر)

فَهَنَّاكَ إِذْ نَصَرَ النَّبِيَّ بِالْفَنَاءِ عَقَدَ النَّبِيُّ لَنَا لَوَاءً يَلْمَعُ
وَعَدَاةَ نَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ جَنَاحَهُ بِيْطَاحِ مَكَّةَ وَالْقَتَا يَتَهَزُّعُ

كرر الشاعر اسم (النبي) ثلاث مرات، وقد أسهم هذا التكرار في جذب انتباه السامع وتشويقه لمعرفة الأحداث التي عاشها المسلمون والرسول (ﷺ) ببطاح مكة إبَّان الفتح، غزوة حنين.

كما جاء تكرار اسم التفضيل على لسان أبي بكر الصديق في قوله⁴:

(الطويل)

مُحَمَّدُ الْمُخْتَارُ أَكْرَمُ مُرْسَلٍ وَأَصْدَقُ مَبْعُوثٍ لِأَكْرَمِ بَاعِثٍ

الشاعر كرر اسم التفضيل (أكرم) مرتين ليؤكد على صفات الرسول (ﷺ) الصادق المرسل من رب العالمين، وهذا مايسمى بالترديد وهو نوع من أنواع التكرار؛ واختلف المضاف إليه

¹ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص210، ص211.

² ياحار: منادى مُرْخَم حُدِفَتْ آخره للتخفيف الأصل (يا حارث).

³ العباس بن مرداس: الديوان، مصدر سابق، ص 74، وابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص104.

⁴ أبو بكر الصديق: الديوان، مصدر سابق، ص47.

في كليهما، فالكلمة الأولى للرسول، والثانية لله تعالى، وقد جاء الشاعر به طبيعياً لا تكلف به أوتصنع، حيث لا يجوز للشاعر أن يكرر إلا لأغراض محدودة وضحاها القيرواني بقوله "لا يجوز أن يكرر الشاعر إلا للتشويق أو التتويه أو التفخيم أو التوبيخ والإنذار والوعيد"¹. وكان تكرار الحروف بارزاً في أشعار شعراء تلك الفترة ومنهم عاتكة بنت المطلب بقولها²:

(الكامل)

يَا عَيْنُ جُودِي مَا بَقِيتَ بِعَبْرَةٍ سَحَا عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ أَحْمَدُ³
يَا عَيْنُ فَاحْتَفَلِي وَسِحِّي وَاسْجُمِي وابكي على خير البلاد مُحَمَّد

أسهم تكرار حرف النداء (يا) مع المنادى (عين) مرتين، في التعبير عن الصورة التي خلفها الرسول (ﷺ) برحيله وغيابه، وأفاد هذا التكرار التوجع والتحسر، والاستعانة بالدموع للتعبير عن هذا المصاب الجلل. وكان لتكرار الحرف (أَنَّ) عند كعب بن مالك، وقع خاص على النفس في قوله⁴:

(الطويل)

شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ ظَاهِر

كرر الشاعر حرف التوكيد (أَنَّ) مرتين ليؤكد على حقيقة التفرد بالعبودية لله سبحانه وتعالى وَأَنَّ الرسول (ﷺ) جاء بالحق المنتصر، وكان التكرار عاكساً لشخصية هذا الشاعر المؤمن بالله، والمصدق لرسوله فكعب لا يفخر بنفسه ولا قبيلته إنما بنبيه الكريم، ودينه القويم⁵.

وقد يأتي التكرار عند الشعراء لجملة بكاملها كما فعل أنس بن زعيم مع الرسول (ﷺ) بقوله⁶:

¹ ينظر: ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج2، ص73-75.
² ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص842-942. ومقابلة، زايد: عمات الرسول (ﷺ) السيرة والشعر، مرجع سابق، ص162.
³ سحاً: انصبَّ الدمع متتابعاً.
⁴ كعب بن مالك: الديوان، مصدر سابق، ص47.
⁵ المصدر السابق، ص12.
⁶ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج9، ص417، ص418.

(الطويل)

وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ
عَلَى كُلِّ سَكَنٍ مِنْ تِهَامٍ وَمُنْجِدٍ

تَعْلَمُ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي
تَعْلَمُ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٌ

جاء التكرار هنا في جملة (تعلم رسول الله أنك) تكرار في الصدارة، من الشاعر لإظهار قدرة الرسول () على الوصول إليه أينما حلّ، وليستعطفه من خلال هذا التكرار والتأكيد على هذه الحقيقة، فأثبت الشاعر قدرة ومهارة من خلال هذا التكرار وتوزيعه، ويرى إبراهيم أنيس " أن المهارة هنا تكون في حسن توزيع الحروف عندما تتكرر كما يُوزع الموسيقى الماهر النغمات في النوتة، ولا يكون قبيحاً إلا عندما يبالغ فيه أو عندما يكون النطق بهذه الحروف والألفاظ عسيراً¹.

8- أسلوب التناص: يُعرّف التناص بأنه تشكيل نص جديد من نصوص سابقة، وخلاصة لنصوص تماهت فيما بينها فلم يبق منها إلا الأثر²، وفيها يتحول المبدع الثاني منتجاً للنص الأول.

وأكثر شعراء صدر الإسلام من التناص القرآني في أشعارهم؛ لأن المعاني الدينية والإسلامية قد سادت تلك الفترة، وكان معينهم القرآن الكريم بما احتواه من الآيات والألفاظ والقصص الدينية التي تأثروا بها وظهر ذلك في أشعارهم.

وقد يأتي التناص كلياً، كما في الآيات القرآنية، أو جزئياً كجزء من هذه الآيات، أو عن طريق التناص مع لفظة قرآنية أو أسماء الأنبياء وغيرها، وهذا ما أكدّه صاحب المثل السائر بقوله "يُطلق على الاقتباس كلياً إذا كانت الآية كاملة، والاقتباس الجزئي إذا أدرج جزء من الآية"³.

وجاء التناص الكلي الذي استخدمه حسان بن ثابت، و ظهر تأثره بالقرآن في قوله⁴:

¹ ينظر: أنيس، إبراهيم: موسيقى الشعر، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1952 م، ص41.

² عزام، محمد: النقد والدلالة، نحو تحليل سيميائي للأدب، منشورات وزارة الثقافة، ط1، 1996، ص148.

³ ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2، ص341.

⁴ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص99.

(الكامل)

صَلَّى إِلَهِهُ وَمَنْ يَحْفُ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدُ

وهذا تناسل لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾¹.

وقد جاء هذا البيت في قصيدة الرثاء التي نظمها حسان له صلوات الله عليه وسلامه.

وأما التناص الجزئي فكان له مكان عند حسان شاعر الرسول (ﷺ) في قوله²:

(الطويل)

لَكَ الْخَلْقُ وَالنَّعْمَاءُ وَالْأَمْرُ كُلُّهُ فَإِيَّاكَ نَسْتَهْدِي وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ

وظف الشاعر مفردات من سورة الفاتحة الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾³.

وهو يُقر بالعبودية لله وحده ويرجع الأمر كله لله، ولهذا جعل من تناسله دلالة على صدقه وإيمانه وتوحيده.

أما العباس بن مرداس فإنه يُوظف جزءاً من آيات القرآن الكريم في قوله⁴:

(الطويل)

وَوَجَّهْتُ وَجْهِي نَحْوَ مَكَّةَ قَاصِدًا وَتَابَعْتُ بَيْنَ الْأَخْشَبَيْنِ الْمُبَارَكَا

يستحضر الشاعر الآية: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁵.

¹ سورة الأحزاب، آية 56.

² حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص79.

³ سورة الفاتحة، آية5.

⁴ العباس بن مرداس: الديوان، مصدر سابق، ص220. وأبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ط1، مصدر سابق، ص297.

⁵ سورة الأنعام، آية 79.

ويظهر الشاعر تأثره بالقرآن الكريم وتعاليمه، ويختار الألفاظ الدالة على المعنى. ويوظف كعب بن مالك هذا الأسلوب، ويظهر من التناص هنا تأثره الشديد بالقرآن الكريم وتعاليمه المفعمة بالروح الدينية فيقول¹:

(الطويل)

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ قَالَ أَقْبِلُوا فَوَلُّوا وَقَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ سَاحِرٌ

وهذا التوظيف الجزئي في قوله "إنما أنت ساحر" إنما هو صدى للآية القرآنية ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾² وقال الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ³.

وهو بذلك يشير لدعوة الرسول (ﷺ) واتهامه من قبل المشركين بالسحر، وقد جاء الاقتباس موفقاً في توضيح صورة المشركين وإظهارهم على حقيقتهم في تكذيب الرسل.

وأما فاطمة الزهراء فكانت هي الأخرى ممن أخذت من معاني القرآن ووظفتها في رثائها للرسول الحبيب فقالت³:

(الكامل)

اغْبَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ وَكُورَتْ شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمَ الْعَصْرَانِ⁴

تستلهم الشاعرة معانيها من سورة التكويد، من قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾⁵.

ولكنها تحور في التناص فلم يكن حرفياً، وتستخدم هذا التناص دلالةً على عظم مصابها بفقداء النبي الكريم، وكأنها بالشمس قد كسفت لرحيله وغيابه.

¹ كعب بن مالك: الديوان، مصدر سابق، ص 47.

² سورة ص، آية 4.

³ ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ج 1، ص 340.

⁴ العصران: الليل والنهار.

⁵ سورة التكويد، آية 1.

ويُلاحظ على شعراء صدر الإسلام تأثرهم الشديد بالقرآن الكريم ومعانيه، فعاطفة المسلم الصادقة وخوفه من الله جعلاه يتخير الألفاظ السهلة الرقيقة التي تخدم المعنى وتصب في صالح الإسلام والمسلمين. وكان لتوظيف أسماء الأنبياء والرسل وقع في النفوس كما في قول عبد الله بن رواحة¹:

(البسيط)

فَتَبَّتَ اللَّهُ مَا أَتَاكَ مِنْ حُسْنٍ تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا

استخدم الشاعر في البيت السابق التناص من خلال الألفاظ (فَتَبَّتَ اللَّهُ) في إشارة منه إلى الآية ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧) ².

واستلهم الشاعر قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه وتثبيت الله له؛ ليشد بها أزر النبي (ﷺ) أمام المشركين.

وكان للفظ الفرقان عند علي بن أبي طالب صدًى آخر في قوله³:

(الطويل)

فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ مِنَ اللَّهِ مُنْزَلٍ مُبَيِّنَةٍ آيَاتِهِ لِذَوِي الْعَقْلِ

يبدو تأثر علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بسورة الفرقان واضحاً، مما جعله يقوم بصياغة هذا المعنى شعراً؛ وذلك بالتناص مع الآية ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) ⁴.

¹ عبد الله بن رواحة: الديوان، مصدر سابق، ص 84.

² سورة إبراهيم، آية 27.

³ علي بن أبي طالب: الديوان، مصدر سابق، ص 152. وابن هشام: السيرة النبوية، ج 2، ص 11.

⁴ سورة الفرقان، آية 1.

وما دام الحديث هنا قد وصل إلى تناسل السور القرآنية فيها هو أبو طالب يتأثر بأسماء السور ويُعيد صياغتها شعراً بقوله¹:

(البسيط)

وَقَدْ أَتَانَا بِحَقِّ غَيْرِ ذِي عَوْجٍ مُنْزَّلٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَعْلُومٌ
فِيهِ عَجَائِبُ يَرْتَاحُ الْفُؤَادُ لَهَا مِمَّا تَنْزَلُ فِي صَادٍ وَحَا مِيمٍ

تناسل الشاعر مع أسماء السور القرآنية وهي (ص) وبعض السور التي تبدأ بـ (حم) وهي غافر وفصلت والشورى والزخرف والأحقاف والجاثية والدخان، وجاء حديثه في قصيدة يحض فيها على نصرته الرسول (ﷺ)، والعجيب بالأمر أن هذا العم لم يدخل الإسلام؛ لكنه يتأثر بمعاني القرآن في شعره، ولهذا نجده في موضع آخر يوظف أسماء الأنبياء السابقين ويقول²:

(البسيط)

أَوْ يُؤْمِنُوا بِكِتَابٍ مُنْزَلٍ عَجَبٍ عَلَى نَبِيِّ كَمُوسَى أَوْ كَذِي النُّونِ

تأثر الشاعر بقصص الأنبياء السابقين ومعاناتهم مع أقوامهم، فجاء بموسى وبذي النون ليدلل على صدق الرسول وما جاء به من الكتاب السماوي كباقي الأنبياء، ويظهر تعلق الشاعر مع سورة القصص وسيدنا موسى عليه السلام وكذلك إشارته إلى الآية "﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكَاذَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾"  ³.

وكذلك فعل أبو قيس صرمة بن أبي أنس عندما أشار إلى الأنبياء السابقين فقال⁴:

(الطويل)

يَقُصُّ لَنَا مَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ وَمَا قَالَ مُوسَى إِذْ أَجَابَ الْمُنَادِيَا

¹ التتويجي، محمد: ديوان أبي طالب عم الرسول (ﷺ)، مصدر سابق، ص95.

² المصدر السابق، ص95.

³ سورة الأنبياء، آية 87.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص158-159.

الشاعر في إشارته إلى أنبياء الله السابقين ومنهم نوح وموسى عليهما السلام، يُذَكِّر بدعوتهم وما تعرضوا له من الأذى في سبيل ذلك، ويوظف كلمة (المناديا) في إشارة منه "﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾" ¹.

وهو يمتدح الرسول (ﷺ) ويشيد بدور الرسول في الدعوة، واكتفى بالتناص مع كلمة (المناديا) لتأكيد المعاني وتعزيزها في الذهن والنفس ولدلالة ارتباط الكلام أوله بآخره ².

¹ سورة آل عمران، آية 193.

² ينظر: الهاشمي، أحمد السيد: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، مرجع سابق، ص 319-320.

المبحث الثاني

المحسنات البديعية

البديع من الفنون البلاغية التي يُحسّن بها الشاعر أو الكاتب عباراته، لما له من أثر في الكلام؛ فهو يُضفي عليه رونقاً وجمالاً، ويُحسن موضعه في نفس السامع، لكن النقاد والأدباء وضعوا شروطاً لذلك، منها أن يُقتصد في استعمال هذه المحسنات البديعية وعدم الإكثار منها، ولا تكون متكلفة أو متصنعة، بل تأتي عفواً من الخاطر قريبة وسهلة على من يتناولها، وهذا ما أراده العسكري بقوله "إذا أردت أن تضع كلاماً فأخطر معانيه ببالك، وتتوقّ له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكرٍ منك ليقرّب عليك تناولها"¹.

وهذه المحسنات تأتي على نوعين هما: لفظية ومعنوية، والمحسنات اللفظية ما كان الاعتبار فيها للفظ ومن الأمثلة عليها الجناس، ورد العجز على الصدر، والسجع، والتصريع. فالجناس: هو تشابه كلمتين في لفظهما، مع اختلاف معانيهما²، وقد يأتي تاماً أو غير تام، وهذه بعض الأشعار التي وُظف الجناس فيها في الشعر قبل الإسلام.

جاء على لسان عبد الله والد الرسول (ﷺ) عندما دعت المرأة الخثعمية لنفسها وأبى، أن قال³:

(الرجز)

أَمَّا الْحَرَامُ فَالْحِمَامُ دُونَهُ وَالْحِلُّ لَا حِلَّ فَاسْتَبِينَهُ

أفاد الشاعر من لفظتي (الحرام، الحمام) فجانس بينهما، فالحرام الأولى: هي ضد الحلال

¹ العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: الصناعتين، تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مصدر سابق، ص133.

² الخفاجي، ابن سنان: سر الفصاحة، مصدر سابق، ص13.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ج1، ص156. والسهيلي: الروض الأنف، مصدر سابق، ج1، ص180، وينظر: الفصل الأول من الدراسة، ص7.

والحِمام هو الموت، وقد عبّر الشاعر عن رفضه لنداء المرأة، وجاء الجناس غير تام مؤدياً الغرض، حتى ولو أن الشاعر جاء به عفو الخاطر، وهذا يعني أن عبد الله قرن فعل الحرام بالموت إن هو أقدم على فعله.

أما آمنة بنت وهب فقد عوذت الرسول (ﷺ) وهو طفل صغير قبل أن تخرج به مرضعته حليلة إلى ديارها وقالت¹:

(الرجز)

أُعِيذُهُ بِاللَّهِ ذِي الْجَلَالِ مِنْ شَرِّ مَا قَدْ مَرَّ عَلَى الْجِبَالِ

جاء الجناس غير تام بين لفظتي (الجلال، الجبال) لاختلاف الحرف الثاني، وقد أعطى جرساً موسيقياً أثار به انتباه السامع وجذبه لسماع باقي الأشعار، وربما في اختيارها لهذه المفردة (الجلال) تعبير عن قوة خارقة تحتمي بها وطفلها المبارك من أي مخلوق أو كائن يمر على الجبال. وكعب بن مالك الأنصاري مدح الرسول (ﷺ) واستخدم الجناس قائلاً²:

(البسيط)

فِينَا الرَّسُولُ شِهَابٌ ثُمَّ يَتَّبَعُهُ نُورٌ مُضِيٌّ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشُّهُبِ

إن الجناس في كلمتي (شهاب، والشهب) هو جناس غير تام، (تجنيس حرفي)؛ فكلمة شهاب الأولى تعني النور وكلمة الشهب في نهاية البيت تعني الكواكب، وهنا أراد الشاعر باستخدامه الجناس، أن يبين منزلة الرسول (ﷺ) ويشبّهه بالنور الذي غطى على سائر الكواكب.

وحسان بن ثابت من الشعراء الذين كان للجناس نصيب في أشعارهم، فيقول في قصيده له يمدح الرسول (ﷺ)³:

¹ ابن سعد: الطبقات الكبرى، مصدر سابق، ص90. وينظر: الفصل الأول من الدراسة، ص9.

² كعب بن مالك الأنصاري: الديوان، مصدر سابق، ص25.

³ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص78.

(الطويل)

أَغَرَّ عَلَيْهِ مِنَ النَّبُوءَةِ خَاتَمٌ مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلُوحُ وَيَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَهُ فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ

ورد الجناس في البيت الأول في (مشهود، يشهد) كما جاء أيضاً في البيت الثاني بين (محمود، محمد)، جناس حرفي، وبذلك أفاد الشاعر في تحقيق النغمة الموسيقية التي أثارت انتباه السامع بسبب التقارب الصوتي بين كلمتين متجانستين.

إذاً فقد كان الجناس من المحسنات اللفظية التي استخدمها الشعراء سابقاً، وأضافت رونقاً وحسناً، وساهمت في تحقيق توازن في الموسيقى الداخلية للشعر.

رد العجز على الصدر: هو أن يأتي أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو اللذين يجمع الاشتقاق بينهما، أو شبه الاشتقاق في آخر البيت. وأن يأتي اللفظ الآخر في أول الصدر، أو وسطه أو آخره أو أول العجز.

وبعد دراسة مطولة في الشعر الذي قيل في الرسول (ﷺ) في صدر الاسلام، وجد كثير من الأمثلة التي تناول فيها الشعراء هذا المحسن في أشعارهم.

ونجد حسان بن ثابت كان لرد العجز على الصدر محل في أشعاره، وفي الرثاء تحديداً حيث قال¹:

(الطويل)

وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ

رد الشاعر مفردة (فقد) في الصدر على (يفقد) في عجز البيت في نهايته، واستخدم هذا المحسن البديعي ليدلل على أن الماضيين في الخلق لم يفقدوا رجلاً بمكانة الرسول (ﷺ) إلى يوم الدين. وأدى ذلك إلى شد انتباه السامع، وتحقيق التوازن الموسيقي، وبذلك كان لها الموقع الجليل من البلاغة، والمحل الخطير في المنظوم كما أكده العسكري في كتابه².

¹ حسان بن ثابت: الديوان، ص95.

² العسكري، أبو هلال: الصناعتين، ص429-433.

وهذا الضرب من الفن البلاغي، استخدمه ضرار بن الخطاب - رضي الله عنه - عندما اعتذر للرسول (ﷺ) وشكا له سعد بن عبادَةَ وقال¹:

(الخفيف)

يَا نَبِيَّ الْهُدَى إِلَيْكَ لَجَا حَيٌّ فُرَيْشٌ وَلَاتَ حِينَ لَجَاءَ

استغاث ضرار بالرسول (ﷺ) واستخدم كلمة (لجا) في صدر البيت بعد أن ردَّ عليها المفردة (لجاء) في عجز البيت، ويشير بذلك إلى ضعفهم أمام الرسول وجيشه العظيم فلا ملجأ اليوم إلا الرسول (ﷺ)، وجاءت المفردة متوافقة أكدت على الحدث وأثرت في السامع.

أما السجع فموضعه دائماً في النثر، ولكن هناك من البلاغيين من يجعله مقصوراً على النثر، مقابلاً للقافية في الشعر². أما ابن الأثير فيجعل السجع في النثر أيضاً لكنه بإزاء التصريح³، وقد عُرف السجع في الأدب العربي، واشتهر به كُهان العرب في الجاهلية، ولا نود التفصيل بعد ذلك، لأن الدراسة هي في الشعر، ولا ينبغي إلا أن تكون على هذه المحسنات التي تناولها الشعراء وكانت مدار البحث.

وهذا يحدو بنا للانتقال للغرض الأخير في المحسنات اللفظية، وهو التصريح.

التصريح: هو أن تكون العروض مقفاة تقفية الضرب، وبلغه أخرى، أن تكون القافية في صدر البيت موافقة للقافية في العجز، وقد جرى أكثر الشعراء على استخدام التصريح في مطالع قصائدهم، وها هو حسان بن ثابت - رضي الله عنه - يستخدم التصريح في أول بيت من قصيدته التي رثى بها الرسول (ﷺ) فيقول⁴:

(الطويل)

بَطِيْبَةٌ رَسَمَ لِلرَّسُولِ وَمَعَهْدُ مُنِيرٌ وَقَدْ تَعَفُّو الرُّسُومَ وَتَهَمَدُ

¹ ضرار بن الخطاب الفهري: الديوان، ص43. والعسقلاني، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، مج 3، ص485.

² السكاكي، أبو يعقوب: مفتاح العلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، 1983، ص43.

³ ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مصدر سابق، ج 1، ص242.

⁴ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص 89.

لعلّ الدلالة الصوتية التي أحدثها صوت (الـ) في البيت السابق، جعلت الشاعر يستخدمه مرتين في الصدر والعجز. ليعبر عن شدة ألمه وشكواه بفقد الرسول (ﷺ)، وتذكره للأماكن التي كان يرتادها، وهذا التناغم الموسيقي يجعل القارئ أو السامع يتعاطف مع الشاعر ويشعر معه بعظم الفقد والمصائب.

وفي ذات السياق، يستخدم عبد الله بن الزبيري التصريع في اعتذاريته أمام الرسول (ﷺ) وتخلط مشاعر الخوف والرغبة والرجاء في نفسه ويقول¹:

(الكامل)

مَنَعَ الرَّقَادَ بَلَابِلَ وَهَمُومٍ وَاللَّيْلَ مُعْتَلِجَ الرَّوَاقِ بِهِيمٍ

جاء التصريع هنا، ليس لمجرد إعطاء رنين أو جرس موسيقي؛ بل جاء لينقل صورة عبد الله بن الزبيري الذي جافى النوم عينيه، وأصيب بالخوف والهلع بعد أن سمع بإهدار دمه، وجاء صوت الميم الساكنة معبراً عن الألم والندم الذي يشعر به عبد الله.

إن الأمثلة على التصريع تكاد تكون قليلة، فإذا أخذنا برأي البلاغيين من عدم استحسانهم للإكثار من التصريع في القصيدة الواحدة، نجد أن شعراء صدر الإسلام، لعلمهم التزاموا بذلك - لما فيه من التكلف والتصنع - وهذا قد نأى عنه الشعراء تلك الفترة من الزمن.

والمحسنات المعنوية هي التي يُقصد بها تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال وتهدف لتحسين المعنى أولاً، ويأتي البعض لتحسين اللفظ² وهي على أنواع منها الطباق والمقابلة والتورية والتقسيم.

الطباق: هو أن تجمع بين الضدين في الكلام أو بيت الشعر، فكل نقيض يلتفت إلى نقيضه، فيظهر كل منهما الآخر، إذ الأشياء بضدها تتميز والضد يظهر حسنه الضد³.

¹ ابن هشام: السيرة النبوية، ج 2، ص 419.

² عتيق، عبد العزيز: علم البديع، (د.ط)، بيروت، دار النهضة العربية، 1985م، ص 76.

³ ينظر: القيرواني، ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر ونقده، ج 2، ص 5. والخفاجي، ابن سنان: سر الفصاحة، ص 14. وعتيق، عبد العزيز: علم البديع، ص 77.

ونجد للطباق حضوراً في شعر صدر الإسلام. فهو يساهم في توضيح المعنى وتوكيده ويكشف عن متناقضات الحياة ليعيد تشكيل الواقع من خلال التضاد.

وهذا حسان بن ثابت شاعر الرسول (ﷺ) يوظف الطباق في مدحه للرسول فيقول¹:

(البسيط)

تَاللّٰهِ مَا حَمَلْتُ أُنْثَى وَلَا وَضَعْتُ مِثْلَ الرَّسُولِ نَبِيَّ الْأُمَّةِ الْهَادِي

حسان جمع بين الضدين (حملت، وضعت) ليؤكد على صورة الرسول الهادي من رب العالمين وقد جاء الطباق بعيداً عن التكلف وساعده القسم بلفظ الجلالة قبله، واستخدام أدوات النفي (ما، لا) في تأكيد المعنى وتوضيحه.

وفي إطار الرد على أبي سفيان عندما هجا الرسول (ﷺ)، نجد حسان يقول²:

(الوافر)

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ فَشَرُّكُمْ لَخَيْرِكُمْ أَلْفُ دَاءٍ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحْهُ وَيَنْصُرْهُ سَوَاءٌ

جاء الطباق بين (شركما، خيركما) في البيت الأول، و(يهجو، ويمدحه) أيضاً في البيت الثاني، وحسان هنا يؤكد على أن الرسول (ﷺ) هو المثل الأعلى في الخلق الكريم لا يضره مدحهم أو هجأهم واستخدم الطباق ليؤكد على فكرته هذه، وأن الرسول من العزة والمنعة والوجاهة بحيث لا يُنال منه ولا يرتقى إليه.

أما عبد الله بن الزبيري في اعتذاره من الرسول بيدي أسفاً شديداً على ما فرط في عهد الإثم، ويقول³:

¹ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص99.

² حسان بن ثابت: الديوان، ص7-8. وصحيح البخاري، ج2، ص395-396. والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ص153. وابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص95.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص419. وابن الزبيري: الديوان، ص35-36. ومسعود، فريد الدين: روائع من أشعار الصحابة، ص167. والجمحي، ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ج1، ص243. والطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص339.

(الخفيف)

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ

استخدم عبد الله الطباقي أمام الرسول وذلك في (راتق، فتقت) ليعبر من خلاله عن أسفه الشديد ومقارنته بين الماضي والحاضر وأن لسانه سيصلح كل ما فتق في الدين سابقاً.

وهذا الزبرقان بن بدر في رثائه للرسول (□) يتذكر الرسول هاديهم ومرشدهم إلى طريق الحق والصواب ويقول¹:

(السريع)

وَهَادِيَ النَّاسِ إِلَى رُشْدِهِمْ وَشَارِعَ الْحِلِّ لَهُمْ وَالْحَرَامِ

جاء الطباقي في (الحل، الحرام) ليبين أهمية الرسول (□) ودوره في إصلاح المجتمع الإسلامي وإرشاد المسلمين إلى الحلال وتجنبيهم الوقوع في الحرام؛ فالهداية لا تكون إلا بالتمسك بالأولى والابتعاد عن الأخرى، وهكذا جاء الطباقي طبيعياً ساقه المعنى وقواه بالتضاد.

وأبو بكر الصديق يؤكد صورة الرسول (□) الصادق ويستخدم لأجل ذلك الطباقي ويقول²:

(الطويل)

مُصَدِّقٌ كُتِبَ الْأَنْبِيَاءِ وَرَاءَهُ فَكَذَّبَهُ أَبْنَاءُ تِلْكَ الطَّوَامِثِ

أسهم الضدان (مصدق، فكذبه) في توضيح صورة النبي الصادق المصدق كتب الأنبياء السابقين، وجاء الضد (فكذبه) ليؤكد على هذه الصورة من خلال عقد مقارنة بينه وبين الكفار، فالقارئ يعقد هذه المقارنة وينتقل من صورة الرسول (□) الإيجابية ليظهر صورة من كذبه من خلال التضاد.

¹ الصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج14، ص174.

² أبو بكر الصديق: الديوان، مصدر سابق، ص47.

والسيدة فاطمة الزهراء في رثائها المصطفى الحبيب (□) لا تتوقف عن بث حزنها وشكواها وتقول¹:

(الكامل)

فَلْيَبْكِهِ شَرْقُ الْبِلَادِ وَغَرْبُهَا وَلْتَبْكِهِ مِصْرُ وَكُلُّ يَمَانٍ

جاء الطباق (شرق، غرب) ليؤكد على عظم المصاب وهو فقد الرسول (□) الذي لا يعادله أي خطب في الكون، ولأن الرسول هو رسول العالمين جاء للناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها وجميع أنحاءها، فقد وجب البكاء على هذا الفقيد في كل مكان. وهناك احتمال لوجود طباق آخر بين مصر واليمن؛ لأنهما كناية عن الشمال والجنوب. وهذا الأعشى الذي لم يدخل في الإسلام، يمتدح هو الآخر الرسول (□) ويقول²:

(الطويل)

نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرُونَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لِعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدًا

رسم الشاعر صورة فنية للرسول (□) باستخدامه الطباق (أغار، أنجدا) حيث شبه صيت الرسول وشهرته بالشيء المادي الذي عم كل ارتفاع وانحدار من الأرض، وهذا دلالة على انتشار دعوته (□) وذكره الحسن في كل مكان. وهذا الطباق أعطى المعنى رونقاً وعمقاً كبيراً في التأثير والتأكيد على الفكرة التي هدف إليها الشاعر. كما أن الطباق السلبي بين (يرى، لاترون) جاء هو الآخر لترسيخ هذه الصورة وإظهارها.

المقابلة: أن يؤتى بمعنيين متوافقين على الترتيب أو معانٍ متوافقة على ما يُقابلهما أو يُقاربهما وأكثر ما تجري المقابلة في الأضداد فإذا جاوزت الطباق ضدين كان مقابلة³. وها هو حسان بن ثابت يقابل بين صورة من اهتدى وسار على طريق الحق ومن بقي على ضلالتة فيقول⁴:

¹ ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح: عيون الأثر في فنون المغازي والشما نل والسير، ج1، ص340.

² ديوان الأعشى، تح فوزي عطوي، ط1، بيروت، لبنان، الشركة اللبنانية للكتاب، ص106. وابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص378.

³ ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر ونقده، مصدر سابق، ج1، ص349.

⁴ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص88.

(الطويل)

وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالُ قَوْمٍ تَسْفَهُوا عَمَى وَهْدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدٍ

قابل حسان بين فئتين (ضلال قوم تسفهوا) و(هداة يهتدون بمهتد) عن طريق المتضادات؛
ليظهر من خلال هذه المقارنة عدم التكافؤ بين الفئتين، ويبرز الأثر النفسي الذي يتركه هذا التقابل
من تعجب واستفهام. وجاءت المقابلة على لسان الأعشى في وصف كرم الرسول () فقال¹:

(الطويل)

لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تَغِبُّ وَنَائِلٌ وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانِعُهُ غَدًا

الشاعر قابل بين كرم الرسول وعطاياه التي لا تنقطع، فليس عطاء اليوم وهباته سيمنعها
غداً، وهذا التقابل جاء بين (عطاء اليوم) و(مانعه غداً) جاء بجرس موسيقي جذاب شدَّ الانتباه،
وعمل على توضيح المعنى وتوكيده.

حسن التقسيم: ويُسمى التقسيم بالتقطيع وهو تقطيع ألفاظ البيت الواحد من الشعر إلى أقسام تُمثل
تفعيلاته العروضية أو إلى أقسام متساوية في الوزن².

ومنها أن المتكلم يضع أقساماً لفكرته التي يتحدث عنها. فيستوفي تلك الأقسام ولا يترك
منها شيئاً. وقد حرص كعب بن مالك على توضيح منهج الرسول الذي سار عليه بقوله³:

(البسيط)

الْحَقُّ مَنْطِقُهُ وَالْعَدْلُ سَيْرَتُهُ فَمَنْ يُجِبْهُ إِلَيْهِ يَنْجُ مِنْ تَبٍّ⁴

لقد قسم كعب بن مالك الطريق والدستور الذي أقامه الرسول () وحرص عليه إلى
قسمين هما: (الحق والعدل)، وعمل التقسيم على توفير جرس موسيقي ناجم عن الوقفات القصيرة
فيما بينها.

¹ ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص387.

² عتيق، عبد العزيز: علم البديع، ص139-140.

³ كعب بن مالك: الديوان، مصدر سابق، ص25.

⁴ تبب: الهلاك والخسارة.

المبحث الثالث

الصورة الفنية

تُعتبر الصورة الفنية عنصراً مهماً من عناصر التعبير لأنها تحمل بين ثناياها كثيراً من الصيغ الرمزية، أو الوسائل الراقية التي يُعتمد عليها لتجسيم المعنى وإظهار العاطفة¹، ولأنها توجه الشعور بعض التوجيه نجدها في الشعر تفيض رقةً وحيوية لما تُحدثه من أثر في النفوس التي يتوهم بها الجماد الصامت في صورة الحي الناطق والمبين المميز².

برزت الصورة الفنية منذ القديم واتخذت عناصر عدة لتشكيلها ومنها التشبيه، والاستعارة والكناية، ومصطلح الصورة لا يلغي هذه العناصر كما يؤكد الرباعي بقوله " مصطلح الصورة لا يلغي التشبيه أو الاستعارة أو الكناية، بل يعطيها فهماً أعمق من الفهم الذي اقترنت به سابقاً³.

أ- التشبيه: هو التمثيل وقد اختلف البلاغيون في تحديد تعريف جامع له؛ ومع ذلك وإن اختلفوا في تعريفهم للفظ فإنهم اتفقوا على المعنى فهذا ابن رشيق يقول التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته⁴ وأما العسكري فيرى أن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه⁵.

وقد وردت أمثلة كثيرة في الأشعار السابقة، استخدم فيها الشعراء التشبيه لرسم صورهم وتقريبها للأذهان، وجاء على لسان أبي طالب عندما تعلق الرسول (ﷺ) به في صغره أثناء سفره إلى الشام قوله⁶:

¹ ينظر: عصفور، جابر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط2، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، 1983، ص268.

² ينظر: ناصف، مصطفى: الصورة الأدبية، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1981، ص236. والجرجاني، عبد القاهر، أبو بكر عبد الرحمن بن محمد: أسرار البلاغة، تج، محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، ص343.

³ الرباعي، عبد القادر: الصورة الفنية في شعر أبي تمام، ط1، الأردن، إريد، جامعة اليرموك، 1980م، ص15-17.

⁴ ينظر: ابن رشيق القيرواني: العمد في محاسن الشعر ونقده، ج1، ص256.

⁵ العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين، ص239.

⁶ التتويجي، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي، ص38.

(الكامل)

فَارْفُضْ مِنْ عَيْنِي دَمْعٌ ذَارِفٌ مِثْلَ الْجَمَانِ مُفَرَّقٌ بِيَدَادِ

شاكل الشاعر بين دموعه المتألثة والمتتابعة في عينيه كحبات اللؤلؤ المتساقطة على مفارق الجواد، وتشبيهه دموعه بالجمان هو شيء يفخر بنفسه، وبكاؤه عزيز ولذا امتازت صورته بالإتقان في بيان تفاصيلها وشكلها، الذي أفضى بالوضوح والتعبير عن المشاعر التي كان عليها هذا العم.

وقد نوع شعراء صدر الإسلام في تشبيهاتهم للرسول (□) فهذا كعب بن زهير يمدح الرسول (□) ويشبّهه بالسيف اللامع فيقول¹:

(البسيط)

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهْتَدٍ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكِ

فقد أسبغ الشاعر على الرسول صفة النور واللمعان الصادرة عن السيف، وكذلك فعل كعب في تشبيه الرسول بالأسد الذي يهابه الجميع ويخشاه كل من حوله ويقول²:

(البسيط)

لِذَاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذْ أَكَلَّمَهُ وَقِيلَ إِنَّكَ مَسْبُورٌ وَمَسْئُولُ
مِنْ ضَيْغَمٍ مِنْ ضِرَاءِ الْأَسَدِ مُخْدِرِهِ بِبَطْنِ عَثْرٍ غِيلٍ دُونَهُ غِيلُ

فكعب إذا ما أراد أن يختار تشبيهاً للرسول (□) لم يجد غير السيف والأسد فهو يعطي أجمل ما لديه لهذين التشبيهين من أداء وفن، وهو يصف هيئة الرسول (□) بهيبة الأسد لم يبرح أكمته بعد أن اصطاد فريسته ومزقها وأطعم أولاده منها، حتى ظلت الحمر الوحشية خائفة، عازفة عن الإطعام لشدة هلعها وخوفها من هذا الضيغم³ وكذلك فعل علي بن أبي طالب عندما شبه قوة الرسول وشجاعته بقوة الأسد فقال⁴:

¹ كعب بن زهير: الديوان، المصدر السابق، ص22.

² المصدر السابق، ص22.

³ عزف على وتر النص الشعري. www.omara.altaleb.com

⁴ علي بن أبي طالب: الديوان، مصدر سابق، ص216.

(الطويل)

مِنَ الْأَسَدِ قَدْ أَحْمَى الْعَرِينَ مَهَابَةً تَفَادَى سِبَاعُ الْأَرْضِ مِنْهُ تَفَادِيَا

فهذا التشبيه من الشاعر نابع من معرفة سابقة بقوة الأسد وما يتمتع به من هيبة وإجلال،
لم يجد أمامه إلا أن يخلع صفات الأسد على رسول الله (ﷺ) ولم يكن علي وحده من فعل
ذلك، بل هناك شعراء من أمثال مالك بن عوف كانت صورة الأسد حاضرة في ذهنه عندما شبه
الرسول به فقال¹:

(الكامل)

فَكَانَ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ وَسَطُ الْهَبَاءَةِ خَادِرٌ فِي مَرْصَدِ

إذن فقد كان تشبيه الرسول (ﷺ) بالأسد لوجود صفات اشتركت بين المشبه والمشبه
به، وكانت القوة والشجاعة والهيبة من الأشياء التي برزت.

وقد جاء التشبيه من عاتكة بنت المطلب لمشركي قريش مُعبراً تماماً عن الصورة التي
أرادت من خلالها إظهار قوة المسلمين والرسول قاندهم فتقول²:

(الطويل)

فَمَا بَالُ قَتْلِي فِي الْقَلْبِ وَمِثْلِهِم لَدَى ابْنِ أَخِي أُسْرَى لَهُ مَا يُضَارِبُ
فَكَانُوا نِسَاءً أَمْ أَتَى لِنَفُوسِهِم مِنْ اللَّهِ حِينَ سَاقَ وَالْحَيْنُ حَالِبُ

شبهت عاتكة المشركين بالنساء لإظهار ضعفهم وهوانهم أمام الرسول (ﷺ) وجيشه
المقدام، واكتفت بذكر مفردة (النساء) لإظهار هذا الضعف ولم تذكر أية صفة أو خصال لهؤلاء
النساء فاستغنت عن ذكر ذلك بدلالة العقل³ لأن مجرد وصف المشركين بالنساء هو اختلال لميزان
القوى بين المتحاربين وجاء التشبيه ليؤكد الصورة ويوضحها.

¹ ابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص134. والمرزباني: معجم الشعراء، ج1، ص322.

² مقابلة، زايد: عمات الرسول (ﷺ) السيرة والشعر، ص156. وابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص43-ص143.

³ ينظر: الهاشمي، أحمد السيد: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ص332.

ب- الاستعارة : في اللغة هي رفع الشيء وتحويله من مكان إلى آخر، ويلاحظ الصلة بين المعنى اللغوي الحقيقي للاستعارة والمعنى المجازي، فلا يستعار لأحد اللفظين للآخر إلا إذا كانت هناك صلة معنوية جامعة لهما¹ ويشير ناصف إلى أن الاستعارة تعمل على تحسين المعنى وتنميته وتوضيحه وتؤدي معنى المبالغة والتوكيد حيث تقوم بمهمة توضيحه² وكان حسان بن ثابت أحد الشعراء الذين جعلوا من الاستعارة ملاذاً له في التعبير عن غدر المشركين بالرسول (□) فقال³:

(الكامل)

يَا حَارِ مَنْ يَغْدِرُ بِذِمَّةِ جَارِهِ مِنْكُمْ فَإِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَغْدِرْ
إِنْ تَغْدَرُوا فَالْغَدْرُ مِنْكُمْ شِيْمَةٌ وَالْغَدْرُ يَنْبُتُ فِي أَصُولِ السَّخْبِرِ

استعار الشاعر (نبات السخبِر)⁴ ليدلل على غدر الحارث وقومه عندما قتلوا الأنصاري الذي أرسله محمد (□) لهم، وقد جعل من الغدر نباتاً يَنْبُت، وهذه قمة الإبداع والعبقريّة حيث شخص الشاعر المعنوي (الغدر) بالشيء المادي وهو نبات السخبِر مما يجعلنا نؤمن بمقولة أرسطو "والاستعارة علامة العبقريّة لا يمكن أن تعلم ولا تمنح للآخرين"⁵.

وفي معرض حديث الزبيري أمام النبي (□) وتقديم الاعتذار له يجعل التشخيص عاملاً مساعداً له لإبراز صورة المقرّ بذنبه فيقول⁶:

(الخفيف)

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُور

¹ ينظر: عتيق، عبد العزيز: علم البيان، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1974، ص166، ص167.

² ناصف، مصطفى: الصورة الأدبية، ط 2، ص144.

³ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص210، ص211.

⁴ نبات يشبه الشمام، له جرثومة وعيدانه كالكرات في الكثرة إذا طال تدلت رؤوسه، ينظر: حسان بن ثابت: الديوان، ص211.

⁵ ناصف، مصطفى: الصورة الأدبية، مرجع سابق، ص124.

⁶ ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص419، وابن الزبيري: الديوان، مصدر سابق، ص35، ص36. والطبري: تاريخ الأمم

والملوك، ج2، ص339.

فقد شَخَّصَ عبد الله اللسان وجعله كالإنسان الذي يصلح كل ما رتق ويُجملّه، وهذا ما جعل الشاعر يلجأً للتشخيص لا اعتقاده القديم الذي يتشكل في النفس بشكل غامض وحاجته إلى وثاق يربطه بالطبيعة¹ وكانت فاطمة - رضي الله عنه - قد جعلت الحزن شخصاً يُؤنسها بعد وفاة الرسول (ﷺ) فقالت في ذلك²:

(الطويل)

فَلَأَجْعَلَنَّ الْحُزْنَ بَعْدَكَ مُؤْنِسِي وَلَأَجْعَلَنَّ الدَّمْعَ فِيكَ وَشَاحِيَاً

إذن كان الحزن شخصاً مؤنساً لفاطمة الزهراء تشكو له ألمها ولوعتها بعد غياب النبي (ﷺ) واستخدمت التجسيم في الشطر الثاني من البيت حيث جعلت من الدمع وشاحاً يغطي وجهها؛ وما ذاك إلا لشدة الحزن واللوعة التي أصيبت بها.

ج- الكناية: لم يقف شعراء صدر الإسلام عند التشبيه والاستعارة بل تعدوها إلى الكناية؛ فقد كانت الكناية من الوسائل التي استخدمها الشعراء في التعبير عن صورهم، فإذا أراد أحدهم الحديث وإثبات معنى من المعاني؛ فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى وهو تاليه أو رديفه فيوحي إليه ويجعله دليلاً عليه³ وتكون الكناية على ثلاثة أقسام هي: الكناية عن صفة والكناية عن موصوف والكناية عن نسبة⁴. وقد وظّف أبو طالب الكناية في حديثه عن الرسول (ﷺ) فقال⁵:

(الطويل)

هُوَ الْقَائِدُ الْمُهْدَى بِهِ كُلُّ مَنْسِرٍ عَظِيمِ اللِّوَاءِ أَمْرِهِ الدَّهْرُ يُحْمَدُ

¹ ناصف، مصطفى: الصورة الأدبية، مرجع سابق، ص136.

² علي بن أبي طالب: الديوان، مصدر سابق، ص215.

³ عصفور، جابر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص272.

⁴ عتيق، عبد العزيز: علم البيان، ص210 - ص216.

⁵ التتوحي، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي (ﷺ)، مصدر سابق، ص91.

جاءت الكناية هنا في الحديث عن موصوف وهو الرسول (ﷺ)، فقد وصفه الشاعر وأجاد في وصفه فالرسول قائد الجيش في المعركة، وهو من يتولى أمر قيادة المسلمين وقد جاءت الكناية لتأكيد الصورة وتقويتها وترسيمها في ذهن السامع، وعند الكناية عن صفة نجد أبا طالب يكنى عن الندم بقوله¹:

(الطويل)

نَبِيٌّ أَتَانَا بِالْوَحْيِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ فَمَنْ قَالَ: لَا، يَقْرَعُ بِهَا سِنَّ نَادِمٍ

استخدم أبو طالب التعبير (سن نادم) كناية عن الحسرة التي تملأ نفوس قريش أسفاً بعد رفضهم لدعوة الرسول (ﷺ) وتقديم الأدلة على صدق نبوته وبعثته، فهو نبي مرسل من رب العالمين نزل عليه الوحي ولذلك كنى الشاعر عن الندم بقوله (سن نادم) لأن من دواعي الندم عض الأصابع، فالإنسان يلجأ لهذا التصرف عندما يكون مع صراع داخلي وتردد في الأمر ولا يستقر على حال.

وجاءت كناية أبي بكر الصديق للمشركين في مكانها؛ حيث كنى عنهم النساء الطوامث فقال²:

(الطويل)

مُصَدِّقٌ كُتِبَ الْأَنْبِيَاءِ وَرَاءَهُ فَكَذَّبَهُ أَنْبَاءُ تِلْكَ الطَّوَامِثِ

كنى الشاعر عن المشركين ووصفهم بالنساء الطوامث والكناية هنا عن صفة (الطمث) التي تُصاب بها النساء دلالة على الضعف والتغيير، وهذا ما أراده الشاعر بهذه الكناية ليجعل من المعنى أبلغ وأشد وقعاً في النفس.

وعندما يكنى مالك بن نمط عن الرسول (ﷺ) وشجاعته، يستخدم لذلك الكناية عن صفة فيقول³:

¹ التتويجي، محمد: ديوان أبي طالب عم النبي (ﷺ)، مصدر سابق، ص85.

² أبو بكر الصديق: الديوان، مصدر سابق، ص47.

³ ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ج4، ص246.

(الطويل)

وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبَ الْعُرْفَ جَاءَهُ وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرِفِي الْمُهَنْدِ

يكنى عن الرسول بالسيف الذي يمتاز بالصلابة والمضاء والشدة. أما حسان بن ثابت فكانت الكناية عن النسبة وجاء في حديثه قائلاً¹:

(الكامل)

أَعْنِي النَّبِيَّ أَخَا التَّكْرَمِ وَالنَّدَى وَأَبْرَّ مَنْ يُوَلِّي عَلَى الْأَقْسَامِ

فقد نسب الكرم والندى للرسول () فهو لم يصرح بقوله كريماً إنما قال: أخا التكرم والندى وفي ذلك قدر كبير من التأثير والجمال أحدثته الكناية في المتلقي.

الصَّوَرُ الْحَسِّيَّة:

ولأن الصورة تستعمل للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي²، لذلك نجد مصادرها تتعدد؛ فهناك الصورة المستمدة من الطبيعة ومعالمها ومن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ومن الأمثلة المستمدة من الطبيعة ما جاء على لسان كثير من الشعراء في أثناء تصويرهم للرسول () بالبدر المنير ومنهم حسان بن ثابت في قوله³:

(البسيط)

مُبَارَكُ كَضِيَاءِ الْبَدْرِ صُورَتِهِ مَا قَالَ كَانَ قَضَاءً غَيْرَ مَرْدُودِ

وفي قول أبي بكر الصديق⁴:

(الوافر)

أَمِينٌ مُصْطَفَى لِلْخَيْرِ يَدْعُو كَضُوءِ الْبَدْرِ زَايِلُهُ الظَّلَامِ

¹ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص385.

² ناصف، مصطفى: الصورة الأدبية، ص3.

³ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص81.

⁴ أبو بكر الصديق: الديوان، مصدر سابق، ص30.

وفي تصوير كعب بن مالك هو الآخر تظهر صورة البدر الصادق في موعده ويقول¹:

(البسيط)

يَمْضِي وَيَذْمُرُنَا عَنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ كَأَنَّهُ الْبَدْرُ لَمْ يُطْبَعْ عَلَى الْكَذِبِ

كانت صورة البدر الأقرب للشعراء في تلك الفترة من الزمن لتصوير الرسول بها، لما تحتويه من صفات جمالية، حيث رأوا في صورة البدر، الصورة المثالية لخلعها على شخص الرسول (ﷺ) لما وجدوا من قرب التشابه بينهما، من خلال الصفات الجمالية والمعنوية.

وكانت الصور الأخرى مستمدة من الطبيعة الحيوانية، كما صوروا شجاعة الرسول وقوته بالأسد الهزير وسط المعارك والحروب، وقام أكثر من شاعر بذلك منهم علي بن أبي طالب²:

(الطويل)

مِنَ الْأُسْدِ قَدْ أَحْمَى الْعَرِينَ مَهَابَةً تَفَادَى سِبَاعُ الْأَرْضِ مِنْهُ تَفَادِيَا

وكذلك كانت الصور المستمدة من البيئة والطبيعة الصناعية كالسيوف والسهام، وهذا ما أكثر منه الشعراء ومنهم عاتكة بقولها³:

(الطويل)

مَرَى السُّيُوفَ الْمُرْهَفَاتِ نُفُوسَكُمْ كِفَاحًا كَمَا تَمْرَى السَّحَابَ الْجَنَائِبِ

وفي قول أنس بن زعيم ومدحه الرسول (ﷺ) ووصفه بالسيف الصقيل فيقول⁴:

(الطويل)

أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلًا إِذَا رَاحَ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهْنَدِ

والمعروف أن السيف في تلك الفترة رمز القوة والشجاعة، لذا اختاره أنس لمدح الرسول ووصفه به.

¹ كعب بن مالك: الديوان، مصدر سابق، ص12. وابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص161.

² علي بن أبي طالب: الديوان، مصدر سابق، ص216.

³ مقابلة، زايد: عمات الرسول (ﷺ) السيرة والشعر، ص156. وابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص43-ص143.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص244. والواقدي: المغازي، ج2، ص790.

وقد جاءت الصورة الفنية بمحاور عدة منها الصورة الشمية والحركية والسمعية والبصرية، وكثيراً ما نجد الصورة البصرية تتكرر في شعر هؤلاء الشعراء ممن وصفوا الرسول (ﷺ) وأرادوا بذلك مرضاة الله ومحبة رسوله ونيل شفاعته، فمنهم من جاء بالفعل (رأى) دلالة على الإبصار كما فعل حسان بقوله¹:

(الوافر)

وَأَحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطَّ عَيْنِي وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النَّسَاءَ

فحسان وصف الرسول (ﷺ) بما رآه ووقعت عينه على ملامحه (ﷺ) وأراد بذلك التأكيد على كمال صفاته وخلقه.

وقد تتصافر أكثر من حاسة للوصول إلى الصورة المطلوبة كما فعل مالك بن عوف بعد أن أسلم ومدح الرسول²:

(الكامل)

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ

فهو يشهد أنه لم ير ولم يسمع بأخلاق وكرم وصفات كما رآها من محمد (ﷺ)، فهذه صورة حسية، عبّر عنها الشاعر بكل صدق وأمانة.

وأما الصورة الشمية فقد جاءت عند فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - في تصوير المأساة التي وقعت عليها إثر غياب والدها فقالت³:

(الطويل)

مَاذَا عَلَى مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ أَنْ لَا يَشْتَمَ مَدَى الزَّمَانِ غَوَالِيَا

فاطمة - رضي الله عنه - ترسم صورة شمية للرسول (ﷺ) بعد وفاته وأن هذه الرائحة ستبقى عالقة في النفوس لأنها رائحة المسك والطيب الذي امتاز بها سيد الخلق فيما رواه أنس فقال

¹ حسان بن ثابت: الديوان، مصدر سابق، ص10.

² ابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص134.

³ علي بن أبي طالب: الديوان، مصدر سابق، ص215.

"ماشممت عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح أو عرق رسول الله (ﷺ)" ¹. وكذلك برزت صورة الرسول وبعد نظره عند الأعشى فمدحه قائلاً ²:

(الطويل)

نَبِي يَرَى مَا لَا تَرُونَ وَذَكَرَهُ أَغَارَ لَعْمَرِي فِي الْبِلَادِ وَأُنْجَدَا

تضافرت الرؤية مع الصيت الحسن الذائع للرسول (ﷺ) عند الأعشى الذي لم يسلم، ومدحه بعد أن انتشرت رائحة ذكره الحسن الطيب وعمت الأماكن بإرتفاعها وانخفاضها، لذلك هي صورة حركية استخدم التجسيم فيها الشاعر ليعبر عن الذكر الطيب لهذا النبي ويصفه بالكائن الذي يتحرك في كل مكان.

أما الصورة اللونية فكان اللون الأبيض سيد الموقف، حيث عبّر أبو طالب عن الرسول (ﷺ) ووصفه بالأبيض قبل بعثته وتتابع الشعراء وساروا على نهجه وذلك في بيته المشهور يقول فيه ³:

(الطويل)

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثَمَالُ الْيَتَامَى عَصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

فاللون الأبيض رمز الوضوح والطهارة والنقاء، هكذا تعارف عليه القدماء وجاء شعر صدر الإسلام بمرادف اللون الأبيض كالأزهر والأغر ووصفوا بها المصطفى، فكان كعب بن مالك ممن عبّر عن الأزهر قائلاً ⁴:

(الكامل)

وَمَوَاعِظُ مَنْ رَبَّنَا نَهْدِي بِهَا بِلِسَانِ أَزْهَرِ طَيِّبِ الْأَثْوَابِ

¹ صحيح البخاري، ج2، ص654. والمباركفوري، صفي الرحمن: وإنك لعلی خلق عظیم، مصدر سابق، ص425.

² ديوان الأعشى، مصدر سابق، ص106. وابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص378.

³ التتويج، محمد: أبو طالب عم النبي (ﷺ)، مصدر سابق، ص67. والهيتمي، أحمد بن محمد بن حجر: المنح المكية في شرح الهمزية، ج1، ص286.

⁴ ابن هشام: السيرة النبوية: مصدر سابق، ج2، ص260. وكعب بن مالك: الديوان، ص28.

جاء اللون الأزهر مُعبِّراً عن إحساس الشاعر الدفين الذي أراد إيصاله لنا عن طريق رسم صورة لهذا الرسول الأزهر الطاهر، الذي اصطفاه الله لهداية البشرية، وأما اللون الأسود فقد كانت آثاره واضحة في شعر الرثاء حين عبرت عنه فاطمة - رضي الله عنها - وكنت بالظلام الذي عمَّ الكون لوفاة الرسول (ﷺ) فقالت¹:

(الكامل)

اغْبَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ وَكُورَتِ شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمَ الْعَصْرَانِ

فالظلام كناية عن السواد والحزن الذي انتشر إثر وفاة النبي (ﷺ) واللون الأسود دلالة على الحزن والفقد والغياب، ولكن هذا السواد كان شيئاً آخر لدى علي بن أبي طالب وتصويره هذا الغياب، فقال²:

(مجزوء الكامل)

كُنْتُ السَّوَادَ لِنَاطِرِي فَبَكَى عَلَيْكَ النَّاطِرُ
مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلَيْمَتْ فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَادِرُ

إن اللون الأسود عند الشاعر يحمل بُعداً إيجابياً آخر، هذا السواد هو أساس النظر من الرؤية والإبصار وبغايه لم يعد قادراً على الرؤية، وهنا كناية عن بؤى العين الأسود؛ فيه يرى فاستخدام اللون الأسود عبّر عن حال الشاعر بعد وفاة الرسول، وكشف عن أهمية هذا الرسول له وللمسلمين، فكانت الصورة اللونية معبرة وجاءت مترابطة مع عناصر الصورة الأخرى.

¹ ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ج1، ص340.

² علي بن أبي طالب: الديوان، مصدر سابق، ص51. ويروى البيت لحسان بن ثابت، ينظر: حسان بن ثابت: الديوان، ص156.

الخاتمة:

بعد دراسة صورة الرسول (ﷺ) في شعر صدر الإسلام يمكن إجمال ما توصلت إليه الباحثة بالآتي:

- كان لصورة الرسول (ﷺ) في الشعر قبل الإسلام حضور بارز عند قريش على المستويين العام والخاص، وقد ظهرت له العديد من الصفات، وشهد بذلك أهله وكل من عرفه، ومنها الأمانة والصدق ورجاحة العقل.
- جاءت صورة الرسول (ﷺ) عند اليهود قبل الإسلام تحمل معاني التكذيب والحقد والحسد لهذا النبي، وبرغم ذلك فإن بعضاً من أحبارهم آمن به قبل بعثته، وتابع أمر ظهور دعوته، كما وصلنا عن حبرهم (قيس بن نسيبة)، أما الرهبان والنصارى فعبروا عن شوقهم ومؤازرتهم لمحمد وحرصهم على حياته كما فعل بحيرا الراهب وورقة بن نوفل.
- كشفت الدراسة عن نبوءة الكهان لقرب ظهور محمد، وعبروا من خلال أشعارهم ومقطوعاتهم القصيرة عن صورة النبي وصفاته، فجاءت نوراً ساطعاً كما رأته الخثعمية على جبين عبدالله والده، وبدا القلق والخوف يقض مضاجع كسرى؛ مما جعله يرسل إلى الكهان من أمثال شق وسطيح لاستطلاع الأمر والوقوف على حقيقته، كما كانت مساهمة التابع (الرئي) من الجن لتفسير هذه الالهامات.
- ظهرت صور متعددة للرسول (ﷺ) بعد الإسلام، وكانت امتداداً لصورته قبل النبوة، فكان رمز القائد الشجاع والكريم والأمين والصادق وذلك في أغراض الشعر المتعددة.
- رسم الشعراء المسلمون الصورة الدينية للرسول القائد من خلال وصفه بالمبارك والهادي وخاتم النبيين وصاحب الشفاعة والرسول والنبي وغيرها، وكل ذلك ابتغاء مرضاة الله وحباً في رسولهم وطلباً لشفاعته، لا ابتغاء مكسب دنيوي أو عرض زائل.

- من الصور التي كانت حاضرة في أذهان الشعراء، واستعاروها لوصف الرسول وإظهار قوته وشجاعته، صورة الأسد والليث وكذلك صورة السيف والمهند الصارم ومثلتُ جزءاً كبيراً من هذه الصور.
- الصورة الجمالية التي عبّر بها الشعراء عن الرسول (ﷺ) لم تكن هي الأخرى بعيدة عن الطبيعة ومكوناتها، فكان البدر ومرادفاته من أكثر الصور التي وقف الشعراء عليها، وجذبت انتباههم وصوّروا بها الرسول.
- أخذ اللون الأبيض مكاناً بارزاً في شعر صدر الإسلام؛ لما يمتاز به من النقاء والوضوح والطهارة، وكان أبو طالب قد استهل صورة الرسول الأبيض الذي يُستسقى به وسار على نهجه الشعراء في صدر الإسلام، فظهرت صورة الأغر والأزهر لتحدد ملامح هذا النبي وترسمها في الأذهان.
- عادت قريش الرسول (ﷺ) وحرّضت عليه، وكان الأقارب وعلى رأسهم أبو لهب وزوجته ممن ناصبوه العداوة ووصفوه بما لا يليق بشخصه الكريم، ولكن الله ردّ كيدهم عنه وأعمى أبصارهم.
- بالرغم من العداوة الذي كان لا يعرف الهوادة أو اللين، ولا يُراعي حق القرى والدم من قريش وأهل مكة، فقد أسلم الكثير منهم بعد الفتح، وجاء تائباً معترداً للرسول (ﷺ)، ومادحاً إياه بكثير من الصدق والندم؛ كما فعل ابن الزبير وضرار بن الخطاب وكعب بن زهير.
- حضرت المرأة في ميدان الشعر فوصفت، ومدحت ورثت الرسول (ﷺ)، كما نقلت له صورة حية معبرة، وبرز من النساء فاطمة الزهراء وعاتكة بنت المطلب وأروى وصفية عمات الرسول (ﷺ)، وكان الرثاء من أكثر الأغراض الشعرية الذي تفوقت به المرأة لرهافة حسها ورقة شعورها.

- عمل الشعراء في صدر الإسلام على الرد على من هجا الرسول والدين الإسلامي، وبرز شعراء أمثال حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة، فشَفَوْا النفوس و زادوا عن الرسول والدين.
- يُلاحظ على شعراء صدر الإسلام تأثرهم بالقرآن ومعانيه، وتوظيف تلك المعاني شعراً، وكان كعب بن مالك - رضي الله عنه - أكثرهم تأثراً بمعاني القرآن وأسلوبه .
- أظهرت الصورة التي صاغها الشعراء للرسول في صدر الإسلام انشاقاً في الخلق، فجوده مثل شجاعته وشجاعته كصبره لالتزيد واحدة أو تنقص أخرى، وهذا من كرم الله سبحانه وتعالى على نبيه.
- كان جود الرسول وكرمه دافعاً كبيراً لدخول الكثير في الدين الإسلامي، وقد تأثر الصحابة والمسلمون بالرسول القدوة، وكان مثلهم الأعلى -ليس فقط بالكرم- بل في جميع الأخلاق.
- اليهود أشد أعداء المسلمين شكلوا خطراً كبيراً على الرسول والدولة الإسلامية، فجادلوه وحرصوا عليه وأرادوا قتله في أكثر من موضع، فجاء الأمر الإلهي بالتخلص منهم والقضاء على شوكتهم، وبرز منهم أبو عفك اليهودي وكعب بن الأشرف.
- حذر النص القرآني من المنافقين وحرَم الصلاة عليهم أو الاستغفار لهم؛ ذلك لأنهم استفحل فيهم هذا المرض (النفاق)، ولم يعد هناك سبب للصبر عليهم أكثر من ذلك.
- راح الشعراء في صدر الإسلام بالتنوع في الأساليب البلاغية ومنها التكرار وأسلوب الأمر والنهي والاستفهام والنداء، وجاءت لغتهم متأثرة بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.
- تأثر الشعراء بعد دخولهم الإسلام وتغلغل الإيمان في قلوبهم، وتأثرت تبعاً لذلك لغتهم وألفاظهم وصورهم، مما جعلهم يتخيرون الألفاظ والعبارات التي تخدم الإسلام وتصب في مصلحة المسلمين.
- بدا التناص عند كثير من الشعراء واضحاً، من خلال تناصهم مع آية كاملة أو جزء منها، أو لفظة قرآنية؛ ليدللو على صدقِ صورهم ومعانيها.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله محمد بن عبد الكريم (ت: 637هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح محمد محي الدين عبد الحميد، (د.ط)، (د.م).
- ابن الأثير، عز الدين بن الحسين بن علي بن محمد الجوزي: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط1، تح محمد معوض وعادل عبد الموجود، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ج4، 1994.
- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد (ت: 336-430هـ): معرفة الصحابة، ج3، 1988.
- الأعشى، أبو بصير ميمون بن قيس (ت: 7هـ): ديوان الأعشى، تح فوزي عطوي، ط1، بيروت، لبنان، الشركة اللبنانية للكتاب، 1968.
- الأعلمي، محمد بن الحسين الحاتري: دائرة المعارف أو مقتبس الأثر ومجد ما دثر، ط1، بيروت، لبنان، منشورات مؤسسة الأعلمي، ج2، 1968.
- أفاية، محمد نور الدين: الغرب المتخيل صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، ط1، المركز الثقافي العربي، 2000.
- الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، ط3، الكويت، الضاحية، المكتبة الإسلامية، 2000.
- امرؤ القيس: الديوان، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، 1964.
- الأندلسي، أبو الفضل عياض بن عمرو اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تح كمال بسيوني زغلول المصري، مؤسسة الكتب الثقافية، ج1، 1995.

- أنيس، ابراهيم: **موسيقى الشعر**، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1952.
- البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري**، المكتبة التجارية، مصر.
- برو، توفيق: **تاريخ العرب القديم**، ط4، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1996.
- البستاني، بطرس: **أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**، دار الجيل، دار نظير عبود، 1989.
- البغدادى، محمد بن حبيب: **المنمق في أخبار قریش**، تعليق خورشيد حمد فارق، ط1، بيروت، عالم الكتب، 1985.
- أبو بكر الصديق: **الديوان**، تح راجي الأسمر، ط1، بيروت، دار صادر، 1997.
- البلاذري، أحمد بن يحيى: **أنساب الاشراف**، " ت ح " محمد حميد الله، القاهرة، دار المعارف.
- البيهقي، أحمد بن الحسين: **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، تح عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، 1985.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (209-279هـ): **الشمائل المحمدية والخصائص المصطفوية** ط3، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية.
- التتوجي، محمد: **ديوان أبي طالب عم النبي**، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1994.
- ابن تيمية: **تقي الدين أبي العباس: الصارم المسلول على شاتم الرسول**، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، لبنان، 1978.
- ابن تيمية، أحمد بن العباس: **النبوات**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1982.

- الجرجاني، عبد القاهر، أبو بكرين عبد الرحمن بن محمد: أسرار البلاغة، تح محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة المدني.
- الجمحي، محمد بن سلام: طبقات فحول الشعراء، شرحه محمود محمد شاكر، الرياض، وزارة المعارف، 1974.
- جي، بريل: دائرة المعارف الإسلامية، ط1، الشارقة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ج1، 1998.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل: الإصابة في تمييز الصحابة، القاهرة، مكتب الكليات الأزهرية، 1977.
- حسين، محمد محمد: الهجاء والهجائون في الجاهلية، ط9، بيروت، دار النهضة العربية، 1917.
- الخفاجي، ابن سنان: سر الفصاحة، تح عبد المتعال الصعيدي، القاهرة، مكتبة علي صبيح، 1968.
- خفاجي، محمد بن المنعم، وعبد الجبار عبد الله: قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية (د.ط)، 1986.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (673-374م): سير أعلام النبلاء، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، ج1.
- الذهبي، شمس الدين بن عثمان: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط1، تح عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ج1.
- الرافعي، مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب، ط2، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 2009.

- الرباعي، عبد القادر: الصورة الفنية في شعر أبي تمام، ط1، الأردن، إريد، جامعة اليرموك، 1980.
- ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني (390-456هـ): العمدة في محاسن الشعر ونقده، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل، ج1، 1981.
- رضا، محمد رشيد: إنجيل برنابا، ترجمه: خليل سعادة، القاهرة، دار البشير، 1995.
- الروضان، عبد عون: موسوعة شعراء العصر الجاهلي، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2001.
- الزبيدي، محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، (1205هـ)، تح أحمد فراج وآخرين، ط1، الكويت، ج1، 1965.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط14، بيروت، دار العلم للملايين، 1999.
- أبو زهرة، محمد: خاتم النبيين، تح عبد الله إبراهيم الأنصاري، (د.ط)، قطر، دار إحياء التراث الإسلامي، ج1.
- الزهري، محمد بن مسلم بن مجيد الله بن شهاب: المغازي النبوية، تح، سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، 1981.
- أبو زيد القرشي، أحمد بن أبي الخطاب: جمهرة أشعار العرب، ج1، 1963.
- زيدان، جرجي: تاريخ آداب العربية، ط2، مصر، مطبعة الهلال، 1942.
- ابن سعد، محمد بن سعد الهاشمي البصري: الطبقات الكبرى، تح محمد عبد القادر، بيروت، لبنان، ج1.

- سعيد، محمد: **النسب والقرابة في المجتمع العربي قبل الإسلام**، ط1، بيروت، لبنان، دار الساقى، 2006.
- السكاكي، أبو يعقوب: **مفتاح العلوم**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1983.
- سكر، عزمي: **معجم الشعراء في تاريخ الطبري**، ط1، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية، 1999.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي: **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية**، بيروت، لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر، ج1، 1978.
- السواح، فراس: **لغز عشتار، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، ط6، دمشق، دار علاء الدين، 1996.
- سيبويه، عمرو بن عثمان (ت: 180هـ): **الكتاب**، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1966.
- ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح: **عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير**، بيروت، دار الجيل ج1، 1974.
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: **الخصائص الكبرى**، بيروت، دار الكتب العلمية، ج2، 1985.
- السيوطي، عبد الرحمن (911هـ): **شرح عقود الجمان**، القاهرة مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1953.
- شامي، يحيى: **موسوعة شعراء العرب**، ط1، بيروت، دار الفكر العربي، ج1، 1999.
- الشايب، أحمد: **الأسلوب**، ط6، القاهرة، مصر، المكتبة العصرية، 1996م.

- الصفدي، صلاح الدين بن خليل بن أبيك: **الوافي بالوفيات**، إعتاء هلموت رينز، فسادن، دار نشر غرانز شتاينر، ج1، 1962.
- صقر، عبد البديع: **شاعرات العرب**، منشورات المكتب الإسلامي، الدوحة، 1967.
- الصمد، واضح: **أدب صدر الاسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع**، بيروت، الحمرا، ط، 1994.
- ضرار بن الخطاب بن مرداس القرشي الفهري (634م): **الديوان**، بيروت، دار صادر، 1966.
- ضيف شوقي: **العصر الإسلامي**، ط7، 1963م.
- ضيف، شوقي: **العصر الجاهلي**، ط 28، القاهرة، دار المعارف، 2008.
- الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد: **المعجم الكبير**، ط2، (د.م)، دار إحياء التراث العربي، ج5.
- الطبري: **محمد بن جرير بن يزيد (224-310هـ): تاريخ الأمم والملوك**، ج2، دار إحياء التراث العربي، (د.ت).
- العاملي، السيد محسن الأمين: **سيرة الرسول عن طبقات ابن سعد**، بيروت، دار الفكر العربي، 1968.
- العاني، سامي مكّي: **الإسلام والشعر، الكويت، عالم المعرفة**، 1996.
- العباس بن مرداس: **الديوان**، تح يحيى الجبوري، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1991.
- عبد الرحمن، عفيف: **معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى العصر الأموي**، ط1، بيروت، لبنان، 1996.

- عبد الله بن رواحة: أمير شهيد وشاعر على سرير من ذهب، دمشق دار القلم، 1976.
- عتيق، عبد العزيز: علم البديع، (د.ط)، بيروت، دار النهضة العربية، 1985.
- عتيق، عبد العزيز: علم البيان، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1974.
- عرجون، محمد الصادق إبراهيم: محمد رسول الله، ط21، دمشق، دار القلم، 1995.
- عزام، محمد: النقد والدلالة، نحو تحليل سيميائي للأدب، منشورات وزارة الثقافة، ط1، 1996.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: الصناعتين، تح علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار احياء الكتب العربية، 1952.
- عصفور، جابر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط2، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، 1983.
- علي بن أبي طالب: الديوان، جمع وترتيب عبد العزيز مكرم، ط1، 1988.
- علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب، ط1، بيروت، دار العلم للملايين، ج9، 1972.
- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ط2، تح سمير جابر، بيروت، دار الفكر، ج14.
- فروخ، عمر: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، بيروت، دار العلم للملايين، 1972.
- فهد، توفيق: الكهانة العربية قبل الإسلام، ترجمة حسن عودة ورندة بعث، بيروت، شركة قدس للنشر والتوزيع، 2007.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت: 671هـ): الجامع لأحكام القرآن، ط2، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1967.

- القزويني، محمد بن عبد الرحمن: الإيضاح، القاهرة، مطبعة محمد علي صبيح، 1996.
- ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، تح سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، ج2، 2002.
- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي: البداية والنهاية، تح أحمد أبو ملح وآخرون، ط1، دار الديار للتراث، 1988.
- كرعاني، رضا بن علي: أعداء محمد زمن النبوة، ط1، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 2010.
- كعب بن زهير: الديوان، رواية أبي سعيد السكري، بيروت، دار الفكر للجميع، 1968 .
- كعب بن مالك: الديوان، تح مجيد طراد، بيروت، دار صادر، 1997.
- الكعبي، عبد الحكيم: موسوعة التاريخ الإسلامي، عصر النبوة وما قبله، الأردن، عمان، دار أسامه للنشر والتوزيع، 2003.
- لاشين، عبد الفتاح: المعاني في ضوء أساليب القرآن، مصر، دار المعارف، 1976.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد: أعلام النبوة، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.
- المباركفوري، صفي الدين: وإنك لعلى خلق عظيم، دار كندة للإعلام والنشر، ج1، (دت).
- المحقي، ابراهيم أحمد: معجم المدن والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، 1985م.
- المرزباني، أبو عبدالله محمد بن عمران بن موسى: معجم الشعراء، تح عباس هاني الجراح، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ج2.
- المزني، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف: تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، تح عبد الصمد شرف الدين ط2، المكتبة الإسلامية والدار القيمة، 1982.

- مسعود، فريد الدين: **روائع من أشعار الصحابة**، تح عريف الدين معروف، القاهرة، دار الحديث، 2005.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: **التنبيه والإشراف**، بيروت، دار مكتبة الهلال، 1981.
- مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري: **صحيح مسلم**، ج2، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1977.
- المعلمي، يحيى بن عبد الله: **عقود الجمان شعر وشعراء**، الرياض، دار المعلمي للنشر، ج1، 1994.
- مغنية، حبيب يوسف: **الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي**، دراسة وصفية نقدية، دار مكتبة الهلال، 1995.
- مقابلة، زايد: **عمات الرسول (ﷺ) السيرة والشعر**، الأردن، عمان، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، 2008.
- مقداد، عبد الله جبريل: **شعر يهود في الجاهلية وصدر الإسلام**، (د.ط)، عمان، دار عمار، 1999.
- ابن منظور، جمال الدين بن مكرم: **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، (د.ت).
- النابغة الجعدي: **عصره حياته وشعره**، ط1، جمعه أحمد حسن بسبح، بيروت، دار الكتب العلمية، 1994.
- ناصف، مصطفى: **الصورة الأدبية**، ط1، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1981.
- نالينو، كارلو: **تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية**، تقديم طه حسين، ط2، مصر، دار المعارف، 1969.

- النبراوي، فتحية عبد الفتاح: السيرة النبوية المطهرة وبناء الدولة الإسلامية، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2013.
- النعانه، ابراهيم عبد الرحمن: شعر بني كنانة في الجاهلية وصدر الإسلام، جمعاً وتحأ ودراسة، ط1، دار جرير للنشر والتوزيع، 2007.
- الهاشمي، أحمد السيد: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، (د.ط)، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت).
- ابن هشام، محمد عبد الملك المعافري: السيرة النبوية، تح السقا وآخرون، ج1، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1972.
- الهيثمي، أحمد بن محمد بن حجر: المنح المكية في شرح الهمزية، تح بسام محمد بارود، ط1، بيروت، دار الحاوي للطباعة والنشر، ج5، 1998.
- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (130-207هـ): كتاب المغازي، ط3، بيروت، دار الكتب، 1984.
- الوائلي، عبد الحكيم: موسوعة شاعرات العرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين، ط1، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2001.
- ولفنسون، اسرائيل: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، القاهرة، مطبعة الإعتقاد، 1927.

مجلات ودوريات:

- اخليف، مي يوسف: شخصية الرسول في شعر مدرسة المدينة المنورة، الدارة، السعودية، ع 40 ج1، 2013، (123-152).

- البغدادي، مريم: *ظاهرة الضوء جمالياً في الشعر الجاهلي*، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (الآداب والعلوم الإنسانية) ع 9، 1414هـ (363-452هـ).
- الحبوبي، علي حمد: *شخصية الرسول الكريم في شعر السيرة النبوية لابن هشام*، آداب الرافدين، العراق، ع13، 1981 (375-406).
- حمدان، عاصم علي: *من بواكير شعر المنافحة عن الرسول (ﷺ) والتبشير بالرسالة*، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، ع1، مج 16، 2008، (255-314).
- دهش، عقيل جاسم: *البعد الإنساني لشخصية الرسول الأعظم في شعر حسان بن ثابت*، عدد 30، مركز دراسات الكوفة، 2013، (31-49).
- الديك، إحسان: *الكاهنة الجاهلية، قراءة في مكانتها ولغتها*، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة البحرين، 2010.
- الديك، إحسان: *الوعل صدى تموز*، مجلة جامعة القدس المفتوحة، ع3، 2002.
- علي، أسامة عبد الحكيم: *دراسة تاريخية للسيف عند العرب في الجاهلية وصدر الاسلام*، التربية، الإمارات، ع83، 1990، (72-82).
- الفجاوي، عمر عبد الله، والمعايطة، ريم فرحان: *شعر ورقة بن نوفل جمع ودراسة*، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل، العلوم الإنسانية والإدارية، ع 1، مج 10، 2009، (91-131).
- الفهادي، علي كمال: *شخصية الرسول في شعر حسان بن ثابت*، مجلة آداب الرافدين، العراق، ع24، (275-296).

- القيسي، أيهم عباس حمودي: ورقة بن نوفل حياته وشعره، مجلة المورد، ع1، مج 17، 1988.

- يعقوب، عبد الكريم وأمين أحمد حميدوش: صورة الإنسان المؤمن في الشعر بين صدر الإسلام والعصر الأموي، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج 31، ع1، 2009.

الرسائل الجامعية:

- اشتية، فؤاد يوسف اسماعيل: القمر في الشعر الجاهلي (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، 2010.

- الحربي، منور بن محمد بن صالح: شخصية الرسول (ﷺ) في شعر صدر الإسلام، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعه مؤتة، الأردن، 2009.

- الزواوي، خالد محمد أحمد: الصورة الفنية عند النابغة (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، 1991.

- صالح، حليلة خالد رشيد: الجن في الشعر الجاهلي، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، 2005.

- النخال، منال سليم سالم: الشعر العربي في القرن التاسع عشر الميلادي والثالث عشر الهجري، أغراضه، ظواهره، اتجاهاته، قضاياها، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الإسلامية، غزة، 2013.

المواقع الإلكترونية:

- حسان النائر لكرامة الأنصار: مجلة البحوث الإسلامية، المملكة العربية السعودية، عدد2، 1395-1396هـ

- [www.alifta.net/fatawa details](http://www.alifta.net/fatawa_details) *
- عزف على وتر النص الشعري
- [www.omara altaleb.com](http://www.omara.altaleb.com)
- مجموع فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين، مج 1، باب الرسل، 28 ذو الحجة
- Ar islam way net /fatwa

**An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies**

**Image of Prophet Peace be upon him in the
Earlier Published Literature Islam Poetry**

**By
Rawda Mufeed Abdel – Hadi Saleh**

**Supervisor
Prof. Ihsan Al - Deek**

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirement for
the Degree of Master of Arabic Language and Literature, Faculty Of
Graduate Studies, AN-Najah National University, Nablus, Palestine.**

2015

**Image of Prophet Peace be upon him in
the Earlier Published Literature Islam Poetry**

**Prepared by
Rawda Mufeed Abdel – Hadi Saleh
Supervisor
Prof. Ihsan Al - Deek**

Abstract

This research talks about Image of Prophet Peace be upon him in the Earlier Published Literature Islam Poetry, where poets of that period drew several images in poetry for Prophet Mohammad from which there were the moral, religious, personal images and many others. Moreover, the images of lion, sword, full moon and crescent appeared in many poetic purposes.

This study is considered new in its title, content and method. The study started with the image of Prophet Mohammad in poetry before Islam, then it extended to include his image after Islam and how Muslim poets and non- Muslim poets see that image.

The study depended on The integrative approach, relying on history in its first chapter. It has been arranged into an introduction, three chapters and a conclusion.

In the introduction, the researcher presented her own reasons for choosing this topic and its importance, as well as the previous studies and obstacles that she faced during this study. She also showed the approach she implemented in her research and the most important sources and references used mainly in this study.

The first chapter: The image of Prophet Mohammad in poetry before Islam. It includes three sections:

- 1) The image of Prophet Mohammad among Quraysh.
- 2) His image among Jews and Christians.
- 3) His image among Gin and Priests.

The second chapter has two sections: The first section: 1) His image among Muslims. Here, the study presented his moral image such as: the brave leader, the generous, the honest and the sincere images. The religious image that contains the blessed, the interceder and the latest prophet, the guide and messenger. The personal image as in the white, the full moon and the crescent.

The second section: 2) His image among enemies. The study presented the most important enemies to Mohammad and Islam at that stage and how he dealt with them. This section has three parts:

- 1) Among Quraysh and others who surround.
- 2) Among Jews.
- 3) Among the hypocrites (double – faced).

The third chapter: The artistic study completed the objective study where poetic texts were analysed using language, technique, marvelous improvers and artistic images.

The study has ended in a conclusion outlining the most important results, followed by a list of sources and references which were the basis for this study.